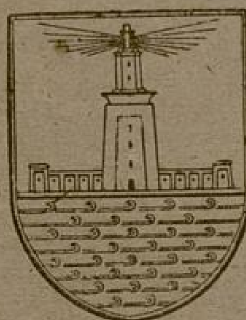
مجلة
كلية الآداب
جامعة فاروق الأول



المجلد الثانى

١٩٤٤

تصدر هذه المجلة بصفة مؤقتة فى آخر كل سنة مكتبية ،
وتطلب من مكتبة جامعة فاروق الأول بمحرم بك
بالاسكندرية ، وتوجه المكاتبات والمراسلات الخاصة
بالناحية العلمية وبالتحرير إلى الدكتور أبو العلا عفيفى
سكرتير التحرير

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

مجلة
كلية الآداب
جامعة فاروق الأول



المجلد الثانى

١٩٤٤

تصدر هذه المجلة بصفة مؤقتة فى آخر كل سنة مكتبية ، وتطلب من مكتبة جامعة فاروق الأول بمحرم بك بالاسكندرية ، وتوجه المكاتبات والمراسلات الخاصة بالناحية العلمية وبالتحرير إلى الدكتور أبو العلا عفيفى سكرتير التحرير

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

جامعة فاروق الأول

مجـــلة كلية الآداب

المجلد الثانى 1944

موضوعات القسم العربى

صحيفة

الأثر الفلسفى الإسكندرى

فى قصة حى بن يقظان

---

١ — من بين الوثائق اليونانية الهامة مجموعة من المقالات الفلسفية الدينية كتبها متأخرو العصر اليونانى بالإسكندرية فيما بين القرن الأول والثالث المسيحيين على وجه التقريب . وتعرف هذه المجموعة باسم Hermetica أو Corpus Hermeticum : الكتابات الهرميسية نسبة إلى هرميس الإله اليونانى المصرى المعروف باسم هرميس المثلث الحكمة أو المثلث العظمة Hermes Trismagestus .

وقد كان لهذه الكتابات أثر بالغ فى تشكيل الحياة الروحية المسيحية ، وتشكيل العقلية الإسلامية الفلسفية والصوفية إلى حد ما . أما صلتها بالمسيحية وأثرها فيها أو تأثرها بها ، فقد تناولها العلماء ورجال الدين المسيحى بالبحث والتعليق منذ زمن بعيد . وأما أثرها فى بعض مؤلفات مفكرى الإسلام ونزعاتهم الروحية ، وتفسيراتهم لمشا كل الكون والخلق والخالق والنفس الإنسانية والعقل ومدى إدراكه لحقائق الأشياء ، فلم ينل من عناية الباحثين فى الشرق أو الغرب حتى الآن قليلا ولا كثيراً .

ويخيّل إلىّ أن هذه الكتابات هى الحلقة المفقودة فى تاريخ الصلة بين التراث اليونانى والفلسفة الإسلامية ، بل هى الحلقة المفقودة التى طالما بحثنا عنها لتلقى شيئاً من الضوء على بعض اتجاهات وآراء فلسفية إسلامية لا يكفى فى

تفسيرها الرجوع إلى فلسفة أفلاطون وحدها ولا فلسفة المشائين من أتباع أرسطو ، ولا الأفلاطونية الحديثة ولا غيرها .

٢ — والمعروف أنه ينسب إلى « هرميس ترسماجستوس » — بنفس المعنى الذى ينسب إلى هوميروس القصائد الهوميرية — طائفة من المقالات قسّمها المؤرخون إلى قسمين مختلفين تمام الاختلاف ، لا يكاد يجمع بينهما إلا نسبتهما إلى مؤلف واحد . القسم الأول هو الكتابات الفلسفية الدينية الصوفية التى تعبر عن ناحية غريبة حقا من نواحى التفكير الإنسانى . وهى مزيج من الفلسفة الأفلاطونية — لاسيما ما ورد منها فى كتاب طيماوس — والفلسفة الرواقية والفلسفة اليهودية على نحو ما قررها فيلون الإسكندرى ، والفلسفة المسيحية الكاثوليكية والفلسفة الأفلاطونية الحديثة ، مضافا إلى هذا كله شىء من عقائد المصريين القدماء وطقوسهم وعاطفتهم الدينية الحارة .

والقسم الثانى كتابات تتصل بأمور تتعلق بالفلك والسحر والكيمياء ونحوها مما يطلق عليه عادة اسم العلوم الباطنية أو علوم الأسرار (Occult Sciences) . وبهذه المجموعة خاصة اشتهر اسم هرميس وعرف فى أوساط كثيرة ، وإن لم يكن لها من الخطر فى تاريخ الفلسفة مثل ما للمجموعة الأولى . والذى يعنينا فى موضوعنا هذا هو المجموعة الأولى لأنها هى التى نجد لها صدى فى كتابات ابن سينا وشهاب الدين السهروردى المقتول ومحيي الدين بن عربى وغيرهم من فلاسفة المسلمين ومتصوفيهم .

٣ — ولا عبرة بما ذهب إليه المؤرخون القدماء — وتابعهم فى القول به مؤرخو العرب — من أن الكتابات الهرميسية منسوبة حقا إلى هرميس المثلث الحكمة الذى عاش فى زمن موسى أو قبله ، وأنه كان مصدر علوم اللاهوت والأسرار التى اختص بها كهنة مصر منذ عصور سحيقة ، فقد أظهر التحليل

التاريخى النقدى بطلان هذه الأسطورة منذ أواخر القرن السادس عشر ، وبرهن على أن هذه المقالات صدرت عن أقلام كتّاب عديدين لا كاتب واحد ، وأن الفلسفة اليونانية — الأفلاطونية والفيثاغورية بوجه خاص — كانت أصلا لها ومصدراً على عكس ما كان يُعْتَقَد من أن فلسفة هرميس كانت الأصل الذى استقى منه الفيلسوفان اليونانيان فلسفتهما .

ويظهر أن الفلسفة الأفلاطونية التى أشبعت العقلية اليونانية الميالة إلى البحث النظرى والتعمق الميتافيزيقى لم تشبع — عندما دخلت مصر — مطالب المصريين الروحية وعاطفتهم الدينية القوية ونزعتهم الصوفية . لذلك لم يقنع مفكرو المصريين من رجال القرن الأول وما بعده — ممن كانوا على حظ كبير من الثقافة اليونانية — بالدراسة التقليدية لفلسفة أفلاطون ، بل أخذوا يعلقون عليها ويؤولونها ويضيفون إليها بعض ألوان تفكيرهم الشرقى ، وينسجون حولها بعض أساطير المصريين القدماء مما صبغها بصبغة صوفية وبث فيها عاطفة دينية قوية لم يكونا لها فى صورتها الأصلية . والظاهر أنه قد تألفت بالإسكندرية فى ذلك العهد جماعة اتفقوا فى هذه الغاية وإن لم يؤثر عنهم أنهم كانوا على مذهب فلسفى بعينه ، أو أنهم كانوا ينتمون إلى مدرسة فلسفية خاصة ، بل الذى يغلب على الظن أنهم كانوا رجالا متفرقين من محبى الحكمة وطالبى طريق الحق . فكتبوا ، مستقلين ، تلك المقالات أو الأحاديث الفلسفية التى نجدها ، أو نجد بعضها بعبارة أدق ، فى المجموعة المنسوبة إلى هرميس .

ومما له مغزاه أن « أفلوطين » صاحب التساعيات (Enneads) ومؤسس الأفلاطونية الحديثة بالإسكندرية قد ظهرت عنده — كما أخبرنا بذلك تلميذه ومؤرخ حياته فورفوريوس الصورىّ — هذه النزعة ذاتها عند ما برم بأساتذة الفلسفة بالإسكندرية فى عهده ، ولم يتخذ لنفسه أستاذا من بينهم سوى

« أمونيوس سكاس » الذى يغلب على الظن أنه كان أحد أولئك الكتاب الذين ساهموا فى كتابة الفلسفة الهرميسية ودعوا إليها . أما أثر الاتجاه الهرميسى الجديد فظاهر لكل من يقرأ تساعيات أفلوطين .

٤ — وقد عاش كتّاب الرسائل الهرميسية فى عصر ولع فيه أصحابه بتقديس القدماء وتقليدهم ، ونسبة كل فضيلة عقلية وعلمية إليهم ، كأنما كانت الحقيقة رهناً بهؤلاء القدماء أو سراً لا يعرفه سواهم ؛ أو كأنما العقل البشرى قد أصابه العقم من بعدهم ، فلم يَعُدْ يرى الحقيقة أو يصل إليها إلا مستضيئاً بنورهم . لهذا كله نسب كتّاب هذه الرسائل رسائلهم إلى تلك الشخصية الأسطورية القديمة التى اعتبرت على مر الزمن منبع الحكمة وعلوم الأسرار . فقالوا إن فيثاغورس وأفلاطون قد أخذا الحكمة عن كهنة المصريين ، وإن هؤلاء أخذوا حكمتهم عن الكتب المقدسة التى كتبها طوط — إله الحكمة المصرى القديم — وطوط هذا هو الذى أطلق عليه اليونان عند ما دخلوا مصر اسم إلههم هرميس ، وخلعوا على هرميس هذا نفس الصفة التى كان قدماء المصريين يخلعونها على طوط ، وهى صفة « مثلث الحكمة » أو « مثلث العظمة » .

فهرميس الإله أو العقل الإلهى هو الذى يتحدث فى هذه الرسائل ، ويلقى الحكمة على مستمعيه ، ويبثهم أسرار الوجود ، ويشرح لهم عجائب الإلوهية ، ويدعوهم إلى عبادة إله واحد قديم هو أصل كل شىء — كما يشرح لهم أسرار النفس الإنسانية ، وما فيها من نفحات إلهية تستطيع أن ترقى بها إلى عرش الله ، وما فيها من نزعات حيوانية تهبط بها إلى درجة العجماوات . ثم يرسم بعد هذا كله طريق خلاص النفس ، وسبل العروج إلى عالمها العلوى .

ويختلف مسرح هذه الرسائل باختلاف كتّابها : فأحياناً نرى الحديث يدور بين هرميس وابنه طاط ، أو بينه وبين إله الطب اسقليبوس ، أو بينه وبين

الملاك آمون . وأحياناً يصوِّر هرميس بصورة التلميذ الذى يتلقى الوحى عن الإله بويمندريس ، كما هو الحال فى الرسالة الأولى ، أو عن الإله أغاثاذيمون Agathos Daimon

ومهما تكن التفاصيل والاختلافات التى تتميز بها هذه الرسائل فإنها كلها تتفق فى شىء واحد هو تصوير النفس الإنسانية بأنها إذا تخلصت من قيود البدن وصفت من كدوراته أمكنها أن تتصل بعالمها العلوى وتحظى بالحضرة الإلهية ، أو بالقرب من العقل الإلهى الذى هو أبوها وأبو العقول كلها ، وهو الذى يوحى إليها بحكمته وأسراره .

وهذا العقل الإلهى هو الذى رُمِزَ إليه فى رسائل هرميس باسم هرميس تارة ، وبويمندريس تارة أخرى ، والنفس الإنسانية التى تتلقى عنه الوحى هى التى رمز إليها باسم طوط أو طاط أحياناً ، وباسم أسقليبوس وآمون أحياناً أخرى .

وكأنما شعر الإنسان منذ عرف التفكير الفلسفى وخبر النظر فى ماهيات الأشياء بعدم كفاية العقل الإنسانى فى توصيل صاحبه إلى الحقيقة أو إلى علم يقينى يطمئن إليه . لذلك طفق يبحث عن عقل آخر أعظم كفاية من عقله ، أو عن قوة أخرى تمنحه ذلك العلم اليقينى بطريق الوحى أو الكشف أو الاتصال أو ماشا كل ذلك . لهذا استلهم الإنسان عقل العقول كلها وهو الله ، واستلهم الأرواح العالية والملائكة والعقول الفلكية ، بل استلهم الشياطين كما فعل شعراء العرب الذين نسبوا روائع قصائدهم إلى شياطينهم .

٥ — وإننا نجد فى الفلسفة الإسلامية صورة مصغرة واضحة للفكرة الهرميسية فى القصة العربية المعروفة بقصة حى بن يقظان التى ألفها الفيلسوف ابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ هجرية ؛ وإلى حد ما فى قصة ابن طفيل المعنونة بنفس العنوان . ولكن الذى يعنينا فى مقالنا هذا هو الأولى لا الثانية . وقصة حى بن يقظان

لابن سينا هى إحدى الرسائل الفلسفية الصوفية التى كتبها فيما سماه « الحكمة المشرقية » معارضاً بها الحكمة المشائية التى هى فلسفة أرسطو وأتباعه ، تلك الفلسفة التى لم يرفيها ابن سينا — وهو الفيلسوف الشرقى ووارث الثقافة الفارسية والعاطفة الدينية الفارسية — أى إشباع لحياة دينية عميقة . وكأنه شعر نحو الفلسفة اليونانية القديمة نفس الشعور الذى شعر به أفلوطين الإسكندرى ، فبحث كما بحث زميله عن فلسفة أدنى إلى القلب وأقرب إلى العاطفة وأدخل فى التصوف . ومن الغريب أن يقع اختيار الاثنين على مصدر واحد أرضى نزعتهما الشرقية ، ذلك المصدر هو الرسائل الهرميسية التى جمعت إلى ميتافيزيقا اليونان روحانية الشرق وتصوفه .

ولعل السبب فى عدم شهرة رسالة حى بن يقظان لابن سينا ، وقلة ذيوعها إذا قيست برسالة ابن طفيل ، راجع إلى أسلوبها الرمزى الغامض الذى جرى فيه المؤلف على عادة أدباء الفرس المتأخرين . بل إنها عميقة فى الرمزية وفى مراميها الفلسفية البعيدة ، إلى حد أن القارئ ليجد شيئاً من الصعوبة فى فهمها بعد قراءة الشروح المختلفة الموضوعة عليها .

٦ — ولكننا إذا ترجمنا لغة هذه الرسالة الرمزية إلى لغتنا العادية حصلنا على الصورة المختصرة الآتية : وهى أن النفس الإنسانية خرجت يوما تطلب النزهة والرياضة بعيدة عن البدن متحررة من قيوده وأغلاله . فبينما هى تطوف فى فضاء حر طليق — وقد تمّ لها الصفاء والاستعداد لقبول الفيض والإشراق من العقل الإلهى — إذا بها تلقى ذلك العقل فى صورة شيخ بهى الطلعة موغل فى السن ، غير أنه مع كبر سنه لا يزال فى طراءة العز ورواء الشباب ؛ لم يزده تقادم الزمن إلا وقارا ، ولا تعاقب السنين إلا نضرة ، ولم تنل منه الأيام ما تنال من هياكل الأبدان المركبة الفاسدة . تدرك النفس لحينها الصلة بينها وبين ذلك الشيخ (العقل) وتدرك افتقارها إليه ، وتنزع إلى الاتصال به ليخلع عليها

كمالات علمه . وتحس فى ذاتها بدافع يدفعها إلى مداخلته ومحاورته ، فتقبل عليه بجميع قواها ، فيستجيب هو لذلك الميل ، ويقبل عليها يطالعها بما فى ذاته ، ويعرفها كنه أحواله ويدلها على أسراره ، ويشرح لها من هو ، ومن أين هو ؟ وما سنته وصناعته ؟

أما هو فهو «الحى» الذى هو أصل كل حياة[1] وأما أبوه فهو «اليقظان» الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ؛ لأن أباه هو عقل العقول وهو « الله » ، واليقظان أكمل درجة من الحى ، لأن اليقظة تقتضى الحياة وصفة كمال أخرى زائدة عليها . وأما موطنه فمدينة القدس : العالم الأقدس الذى هو العالم العلوى . وأما عمله وصناعته فتعقل محض ، لأنه خلو من المادة ومن كل ما هو بالقوة .

ويخبر هذا الشيخ النفس بأنه أخذ من أبيه « مفاتيح العلوم » فتسأله عن هذه العلوم مستجلية غوامضها : فيتحدث إليها الشيخ عن أسرار الكون والنفس ، ويشرح لها قوى النفس وآفاتها وطريقة التغلب على أمراضها وأدوات الشر فيها . وهنا يشرح « حى بن يقظان » جزءاً غير قليل من سيكولوجيا ابن سينا وفلسفته فى وجود العالم .

ثم تطلب النفس إلى « حى » أن يرشدها إلى طريق الهداية ، وأن يرسم لها معالم العروج الروحى والتخلص من علاقات البدن ، فيستبعد منها هذا المطلب ، ويسد فى وجهها باب هذا الأمل ما دامت فى هذه الحياة رهينة قيود البدن مكبلة بأغلاله . ولكنه يخبرها أنها إذا تهيأت لها أسباب السياحة وتم لها التجريد ، أمكنها أن ترافقه وتقطع العلاقة التى تربطها برفقاء السوء (قوى البدن) ، ولا تعود إليهم أبداً !

---

(١) لأنه عند ابن سينا آخر العقول الإلهية ، وهو العقل الذى يدبر هذا العالم الأرضى — ما تحت فلك القمر — ويمنحه الحياة التى فيه .

وفى هذا الجزء من الرسالة يشرح ابن سينا نظريته الصوفية .

ثم يعود بينهما الحديث ، فيخبرها الشيخ عن العالم أعلاه وأسفله ويصف لها ناحية « المغرب » حيث الظلام المقيم — وهى ناحية المادة ؛ وناحية المشرق حيث النور الدائم ، وهى عالم العقول والنفوس . ويصف لها الكواكب وسكانها ، ويصعد بها من كوكب إلى كوكب حتى ينتهى من عالم الكواكب . ثم يأخذ فى وصف العوالم العلوية الأخرى وما فيها من عقول حتى يصل إلى العقل الفعال الأول الذى هو أبو العقول كلها ، وهو الملك الذى يعكف الكل على خدمته ، ويطيع الكل أمره ، وينفذ الكل إرادته . هذا الملك عزيز على الوصف ، منزه عن التشبيه والتمثيل : يخدع نفسه من يبحث عن أصله ، ويهذى من يظن أنه يستطيع الوفاء بمدحه . قد طمس جماله كل جمال وفاق كل حسن . من يتأمل حسنه من الحافين حول عرشه يرد الطرف عنه وهو حسير . يحجب حسنُه حسنَه ، كالشمس إذا أمعنت فى الظهور حال ضوؤها دون النظر إليها ، ولكنه ملك كريم يحب ذويه ، ولا يضن عليهم بلقائه : سمح فياض واسع البر غمر النائل عام العطاء : من حظى لحظة بمشاهدة جماله هجر الدنيا وما فيها .

ثم يختتم الشيخ حديثه مع النفس بقوله : ولولا تقربى إليه (أى الملك) بمخاطبتك منبها إياك لكان لى به شاغل عنك : وإن شئت اتبعتنى والسلام » .

٧ — هذه خلاصة رسالة حى بن يقظان لابن سينا بعد حل رموزها ، وكشف ما استغلق من معانيها : وهى كما ترى مزيج غريب من الأساطير والفلسفة الإلهية والطبيعية والدين والتصوف لا يدانيها فى هذا الوصف من مؤلفات الفيلسوف إلا رسائله الأخرى التى وضعها فى الفلسفة المشرقية .

والناظر فيها يرى أن الفكرة الأساسية التى تحوم حولها الرسالة هى هى الفكرة الأساسية التى تتمركز حولها أحاديث الكتابات الهرميسية :

وأن « حى بن يقظان » ذلك الشيخ الشاب الفياض بالحكمة ليس إلا صورة إسلامية من صور هرميس الإله المصرى اليونانى : وأن النفس التى خرجت للنزهة والرياضة بعيدة عن علائق البدن ليست إلا صورة لطوط أو طاط الذى يتلقى الوحى عن أبيه : وأن الواحد القديم الذى يسميه ابن سينا تارة بالأول وتارة بالملك ليس إلا الأب الأعظم الذى يرشد هرميسُ إلى عبادته وتقديسه

هذا فيما يتعلق بأشخاص الرسالة والمسرح الذى يظهرون عليه . أما الأحاديث التى تجرى على ألسنتهم فمن المستحيل أن نأتى على تفاصيلها فى مقال كهذا . ولكننا نستطيع أن نقول بوجه الإجمال إن مادتها مستمدة فى جوهرها من رسالة « بويمندريس » الهرميسية مع اختلاف فى التفاصيل وفى الأسلوب والعاطفة : لأن أسلوب ابن سينا فى هذه الرسالة رمزى جاف ، وأسلوب مقالة بويمندريس — بل المقالات الهرميسية جميعها — سهل جميل صريح متدفق . أما العاطفة الدينية فلا نكاد نحس لها أثرا فى الأولى بينما هى فى الثانية قوية فياضة لأنها صدرت عن قلوب كانت — بالرغم من وثنيتها — عامرة بتقوى الله ومحبته ، مشتغلة بتسبيحه وتقديسه ، تواقة إلى الوصول إليه ، ناظرة إليه فى كل شىء مشاهدة جماله فى كل مجلى .

ولا عجب أن تظهر هذه العاطفة القوية فى الكتابات الهرميسية وتكاد تنعدم تماما فى مؤلفات قدماء اليونان ؛ فإن مؤلفى هذه الكتابات أبناء مصر القديمة التى ورثوا عنها تراثها الدينى والروحى ، كما أنه لا عجب أيضا أن يكون لعاطفة هؤلاء الوثنيين الحارة أثر غير قليل فى تشكيل الحياة الدينية العملية عند المسيحيين فى القرون الأولى ، وأن يظهر هذا الأثر فى أحفادهم وأتباعهم الذين أقاموا نظام الرهبنة وأسسوا الأديرة فى مصر ابتداء من القرن الرابع الميلادى عند ما اعتنق هؤلاء الأحفاد والأتباع المسيحية ورسخت أقدامهم فيها .

٨ — لا شك أن بعض التعاليم الهرميسية قد تسرب إلى المسلمين ودخل إلى الأوساط الصوفيـة عن طريق هؤلاء الرهبان المسيحيين فى مصر وغيرها ؛ ولـكن مما لا شك فيه أيضا أن علم المسلمين بالفلسفة الهرميسية ومحتوياتها كان أقوى من هذا بكثير ، مما يحمل على الظن أنها وصلتهم برمتها — على الأقل فى ترجمة سريانية . بل ربما عرفوا من هذه الرسائل ما ضاع أصله اليونانى أو اللاتينى ولم يعثر عليه الباحثون حتى الآن وهنا مجال للبحث واسع خصب لا يزال ينتظر من يعنى باستخلاص المقـالات والفقرات التى لها صبغة هرميسية من بين ثنايا الـكتب العربية ، فيكمل بذلك المجموعة الهرميسية الأوروبية ويلقى بعض الضوء على نواحيها الغامضة أو الناقصة .

وتدل الشواهد التاريخية على أن كتابات هرميس قد وصلت إلى المسلمين لا عن طريق الإسكندرية التى هى منبعها الأصلى ، بل عن طريق حران التى ورثت ثقافة الإسكندرية وحافظت عليها قروناً عدة قبل الإسلام وبعـده ، ولـكننا لا ندرى على وجه التحقيق كيف بدأ وصول هذه الـكتابات إلى حران ولا فى أي زمن بدأ ، ولا الرجال الذين تم على أيديهم نقل هذه الثقافة .

ويحدثنا التاريخ أيضاً أن جماعة الحرنانيين الذين كانوا يعرفون باسم الصابئة قد اتخذوا فلسـفة هرميس دينا لهم ، واعتبروا هرميس وأغاثاذيموس وغيرهما من الحـكماء الذين وردت أسماؤهم فى الرسائل الهرميسية أنبياءهم ، كما اعتبروا هذه الرسائل كتابهم المقدس [١] ، وأن وثنيى حران عنـد ما أمنوا جانب المسلمين ، ونال بعضهم الحظوة عند خلفاء بنى العباس تدفق سيلهم على

(١) راجع القصة التى يرويها ابن النديم فى الفهرست (المقالة التاسعة ص ٤٤٥ — ٦ — طبعة مصطفى محمد) نقلا عن مؤلف نصرانى مات فى أوائل القرن الثالث الهجرى اسمه أبو يوسف أيشع القطيعى من كتاب له عنوانه « الـكشف عن مذاهب الحرنانيين المعروفين فى عصرنا بالصابئة .

بغـداد ، وأسسوا بها مدرسة للأفلاطونية الحديثة أشبه بالمدرسة الأفلاطونية الحديثة التى كانت قائمة فى أثينا حتى أغلقها الإمبراطور جوستنيناز حوالى سنة ٣٥٠ ميلادية . غير أن مدرسة بغداد الحرانيـة جعلت من أولى أغراضها نشر تعاليم هرميس و إذاعتها ، بينما أغفلت أختها الأثينية هذه التعاليم وأهملتها .

منذ ذلك الوقت اشتهر اسم هرميس فى الأوساط الإسلامية ، وكثر التحدث عنه وعن عجائب حكمته وعلمه ، وظل موضع إجـلال المسلمين واحترامهم حتى نهاية القرن السادس الهجرى ؛ ورفعه المسلمون لا إلى مصاف الآلهـة كما فعل اليونان والمصريون ، بل إلى مصاف الأنبياء مما يثبت قطعا أن الفلسفة الهرميسية لم تصل إلى المسلمين فى صورتها اليونانية الخالصة ، بل وصلتهم بعد أن امتزجت ببعض الأفكار والعقائد الإسرائيلية .

ومما يثبت تأثر الفلسفة الهرميسية التى وصلت إلى المسلمين بالأفكار اليهودية أن تعددت الهرامسة عندهم وأصبحوا ثلاثة :

الأول : هرميس الهرامسة الذى قالوا إنه إدريس النبى أو أخنوخ . ذكروا أنه ولد بمنف وعاش قبل الطوفان وعنه ظهرت كل العلوم التى عرفها الإنسان فى ذلك العهد .

الثانى : هرميس البابلى الذى اعتبروه من تلامذة فيثاغورس . ذكروا أنه عاش بعد الطوفان وأنه كان عالما بالطب والفلسفة وطبائع الأعداد والـكيمياء ، ونسبوا إليه كثيراً من الروحانيات والطلسمات . بل قالوا إنه انتقل إلى مصر وحكمها وكان له أولاد منهم طاط وأشمن ونقط وغيرهم .

الثالث : هرميس المثلث الحـكمة . قالوا سمى كذلك لأنه ثالث الهرامسة الحـكماء ، والأصح ما قررناه فى أمر هذه التسمية فى بدء المقال .

وليس من شك فى أن هرميس الأول من خلق الخيال اليهودى وأن

هرميس الثانى اسم اخترعه العرب لمؤلف المقالات الهرميسية التى تدور حول علوم الأسرار من السحر والطلسمة والكيمياء وما إليها . أما هرميس الثالث المثلث الحكمة فلم يعرفه العرب بالاسم فقط ، بل عرفوا الرسائل المنسوبة إليه . يقول القفطى « ونقلت من صحف هرمس المثلث بالحكمة نبذاً هى من مقالته إلى تلميذه طاطى على سبيل سؤال وجواب بينهما وهى على غير نظام وولاء ، لأن الأصل كان بالياً مفرقا »(١) وغير القفطى كتاب كثيرون يشيرون إلى رسائل هرميس ووجودها فى أصل عربى أو ترجمة سريانية ، وإلى اقتباسهم منها مما لا يدع مجالا للشك فى أن العرب عرفوا هذه الرسائل فى صورتها الأصلية .

زد على ذلك أن كتباً عربية وضعت برمتها ملخصة الفلسفة الهرميسية مما ساعد كثيراً على ذيوع هذه الفلسفة وشيوعها بين المسلمين : من هذه الكتب كتابان أشار إليهما العلامة الأستاذ « سانتلانا » فى محاضراته فى الفلسفة الإسلامية بالجامعة المصرية القديمة : وهما كتاب « سر الخليقة » المنسوب لبلينوس (وهو أبولونيوس الطيانى — من أهل طيانه —) الفيثاغورى ، من حكماء القرن الأول المسيحى . وهذا الكتاب مخطوط بمكتبة باريس وهو يحمل طابعاً هرميسيا لا يشك فيه الأستاذ سانتلانا . والثانى « رسالة هرميس المثلث بالحكمة فى معاتبة النفس أو معاذلة أو زجر النفس » وقد تعرف أيضاً باسم « رسالة المعانى » وتنسب خطأ إلى سقراط وأحياناً إلى أفلاطون أو أرسطو . وقد طبع الأبواب السبعة الأولى منها الأستاذ فلايشر سنة ١٨٧٠ ، وطبع الباقى الأستاذ باردنهاور سنة ١٨٧٣ ونشر الرسالة برمتها فى العصر الحديث الراهب الخورى فيليمون الكاتب أحد رهبان دير المخلص سنة ١٩٠٣ ببيروت .

٩ — من كل هذا يتبين إلى أى حد انتشرت تعاليم هرميس فى الشرق القديم قبل الإسلام وبعده ، وإلى أى حد انتعشت هذه التعاليم فترة من العصر

(١) تاريخ الحكماء .

الإسلامى على أيدى أتباعها من الحرانيين الوثنيين حتى أصبح لها مدرسة خاصة فى قلب عاصمة الإمبراطورية الإسلامية .

والذى يغلب على الظن أنها ترجمت إلى العربية فى حران فى أواخر القرن الثالث الهجرى على أيدى أمثال ثابت بن قرة المتوفى سنة ٢٨٨ هـ وشيعته ، وأن هذه الترجمة هى التى انتفع بها مفكرو الإسلام أمثال ابن سينا وابن طفيل والسهروردى المقتول وابن عربى وغيرهم .

وقد قصرت القول هنا على الإشارة إلى أثر بعض الرسائل الهرميسية فى رسالة حى بن يقظان فى صورة عامة خالية من التفاصيل . والحقيقة أن أثر هذه الرسائل قد تغلغل فى التفكير الإسلامى الدينى والصوفى إلى درجة بعيدة المدى ، كما ترك طابعه من قبل على التفكير المسيحى الدينى والصوفى : فإن كتباً أخرى وأجزاء من كتب أخرى غير رسالة ابن سينا تحمل نفس هذا الطابع وتنطق بنفس الأثر ، بل إن الباحثين فى الفلسفة الإسلامية — وفى ناحيتها الصوفية بوجه خاص — طالما أبدوا دهشتهم من محاولة المسلمين التوفيق بين المذاهب اليونانية الفلسفية المتعارضة ، ومن مزجهم هذا النوع من الفلسفة بالعقائد الدينية وإظهار صوت العاطفة الدينية فيها ، ثم مزجهم كل ذلك بأفكار تتصل بوحدة الوجود ووحدة العقول ، وجمعهم بين النواحى النظرية والنواحى العملية التى تظهر فى آداب التصوف عندهم . قد يدهش الباحث فى الفلسفة الإسلامية إذ يرى كل هذه العناصر تحشد حشداً فى صعيد واحد ، وقد يسائل نفسه : كيف تسنى لمفكرى الإسلام أن يضموا كل هذه الأشتات ، ومن أين استمدوا عناصرها . والحقيقة كما تبدو لى أنهم لم يكونوا أول من قام بمحاولة التوفيق هذه ، بل سبقهم إليها كتاب الرسائل الهرميسية ، وأنهم عرفوا هذه الرسائل حق المعرفة واقتبسوا منها وحاكوها .

أبو العلا عفيفى

نظرية «عبد القاهر الجرجانى»

فى «أسرار البلاغة»

١

(أ) «أسرار البلاغة» و «دلائل الإعجاز» كتابان ألفهما أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانى الذى عاش فى القرن الخامس الهجرى ، والذى اتفق المؤرخون [١] على أنه كان ذا قدم راسخة فى علوم البلاغة والنحو والكلام والفقه .

وكل من الكتابين يقوم على نظرية يتعهدها المؤلف بالتقرير والشرح والتطبيق والاعتراض والرد ، حريصاً على أن يحمل القارئ معه ، وعلى ألا يترك جانباً من جوانب النظرية عرضة للشك والغموض . وفى رأينا (الذى سنحاول

---

(١) معظم التراجم التى عثرنا عليها لعبد القاهر قصيرة ، وهى تتفق فى أنه كان عالماً واسع الثقافة ، وأنه كان متكلما على مذهب الأشعرى ، وفقيهاً على مذهب الشافعى ، وأنه أخذ النحو عن أبى الحسين محمد بن الحسن الفارسى ابن أخت أبى على الفارسى المشهور ، وبعضها يذكر أنه أخذ الأدب والنقد عن القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى (صاحب كتاب الوساطة بين المتنبى وخصومه) ، ويعدون له مؤلفات كثيرة فى مختلف الفروع ، ويرجحون أنه مات سنة ٤٧١ هـ (١٠٧٨ م) .

راجع طبقات الشافعية الكبرى لعبد الوهاب السبكى (المتوفى سنة ٧٧١ هـ) ط . ١٣٢٤ ج ٣ ص ٢٤٢ . ثم بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة لجلال الدين السيوطى (المتوفى سنة ٩١١ هـ) ط . ١٣٢٦ ص ٣١٠ وراجع كذلك شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلى (المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ) . طبعة القدس ج ٣ ص ٣٤٠ ، ثم راجع بروكلمان (Geschichte der Arabischen Litteratur) مجلد أول ص ٢٨٧ — ٢٨٨ ،

وفى الملحق مجلد أول ص ٥٠٣ — ٥٠٤ ، وفيه تجد بقية المراجع العربية عن عبد القاهر وإحصاء لمؤلفاته .

تبريره فى سياق البحث) أن كلتا النظريتين متكاملتان ، وأنهما تؤلفان المحور الرئيسى فى الفلسفة الذوقية عند عبد القاهر . وقد كان هذان الكتابان من أمهات الكتب العربية التى قامت النهضة المصرية الحاضرة على إحيائها ودراستها ؛ وكان للإمام الشيخ محمد عبده فضل السبق إلى العناية بهما وتدريسهما فى الأزهر الشريف . ثم أخذت الجامعة المصرية — ولا تزال تأخذ — بحظها منهما . وأظهر ما يميز أسلوب المؤلف فيهما منهجه الواضح القائم على الاستقراء الذوقى الشامل من جهة ، وعلى التحليل العلمى الدقيق من جهة أخرى ، حتى لتكاد بحوثه فيهما تقرب — فى دقتها وتسلسل مراحلها — من أسلوب العصر الحاضر فى بحوثه العلمية .

وسنحاول فى هذا المقال أن نبرز النظرية التى قام عليها كتاب « أسرار البلاغة » وننقدها ونضعها فى مكانها من سلسلة التفكير النقدى العربى ، ونبين مقدار ما فيها من ابتكار أو تقليد . ثم نتخذ منها دليلا على عدم صحة ما يذهب إليه بعض الباحثين من أن العقل العربى فى عصور النقد السابقة كانت تعوزه الفكرة الشاملة والنظر التحليلى ، وأنه كان يعنى بالجزئيات أكثر من عنايته بالأسس والظواهر العامة .

(ب) ليس عندنا نص نستطيع معه أن نجزم أىّ الكتابين[1] — « أسرار البلاغة » و « دلائل الإعجاز » — سبق أخاه فى الوجود . وكل ما هنالك إشارة فى « دلائل الإعجاز » قد يفهم منها أن كتاب « الأسرار » أسبق . يقول المؤلف فى الدلائل : « وأما المجاز فقد عوّل الناس فى حده على حديث النقل ،

---

(١) النسختان اللتان سنعتمد عليهما هنا هما « دلائل الإعجاز » تصحيح الشيخ محمد عبده والشيخ محمد محمود الشنقيطى ، ونشر رشيد رضا طبعة ثانية سنة ١٣٣١ هـ ، ثم « أسرار البلاغة » تصحيح ونشر رشيد رضا طبعة ثانية سنة ١٣٤٤ هـ .

وأن كل لفظ نقل عن موضوعه فهو مجاز ؛ والكلام فى ذلك يطول ، وقد ذكرت ما هو الصحيح من ذلك فى موضع آخر . وأنا أقتصر ههنا على ذكر ما هو أشهر منه وأظهر » (ص٣٥٣ دلائل) . و يعلق ناشر الكتاب على هذا فى الهامش بقوله : « لعله يريد بالموضع الآخر كتاب أسرار البلاغة » . والواقع أن هذه الإشارة ليست نصا فى الموضوع ، فالمؤلف يعود إلى ذكر المجاز فى مواضع أخرى من نفس كتاب « الدلائل » . على أنه فى مناسبة أخرى — قرب نهاية الكتاب — يقول : « وفى الاستعارة علم كثير ولطائف معان ودقائق فروق ، وسنقول فيها إن شاء الله فى موضع آخر » — (ص ٣٤٦ دلائل) . ور بما رجح الباحث أن كتاب « دلائل الإعجاز جاء أولا بحكم أهمية موضوعه لدى المؤلف ، فهو كتاب عام فى النظرية الأدبية واتصالها بإعجاز القرآن ، يطرق فيه عبد القاهر أهم النواحى التى عرفت بعد باسم البلاغة : ولكن بحث « أسرار البلاغة » بحث خاص يتناول مواضيع الاستعارة والتشبيه والتمثيل فيعالجها على حدة . ومن الظاهر أن هذه المسائل البيانية ذات صفة خاصة فى الخلق الأدبى ، وللصور الفنية التى تندرج تحتها تأثير خاص فى الأذهان والنفوس . ومما يقوى هذا الترجيح إشارة المؤلف فى أكثر من موضع فى « الدلائل » إلى أن هذه الأبواب البيانية محل شبهة كبيرة عند باحثى الفصاحة ، وأنها أبواب ينسب كثير من الناس المزية فيها للفظ ، وقد حاول عبد القاهر أن يُحل فكرة النظم محل فكرة اللفظ فى الاعتبار الأدبى ، غير أن جمال الصور الفنية فى هذه الأبواب لا يتكشف على أساس فكرة النظم وحدها ، فكان من الطبيعى أن تبحث بحثاً خاصا يؤكد فيه الجانب النفسانى من جمالها ، وهذا هو موضوع « الأسرار » . وقد يقال فى تأييد هذا الفرض أيضاً إن تأثر عبد القاهر بالدراسات اليونانية أظهر فى « الأسرار » منه فى « الدلائل » — وهذه نقطة سنعرض لها بعد — ومن الطبيعى والمعقول

— إذن — أن تمثل « الأسرار » مرحلة فى تفكير المؤلف متأخرة فى الوجود الزمنى عن مرحلة « الدلائل » .

وسواء أصح هذا الفرض أم لم يصح فإن غرض المؤلف فى كل من الكتابين واضح بيِّن : لقد اختلط أمر البلاغة والبيان على الناس فى عصره ، وقد ظهر هـذا الخلط بأجلى صورة فى أمر إعجاز القرآن ؛ إذ لجأ بعض العلماء إذ ذاك إلى الكسل العقلى فى الموضوع فقالوا إن القرآن معجز بالصرفة ، واكتفى آخرون بالتقليد فرددوا خصائص فى الكتاب العزيز تنبه لها من قبلهم ، دون أن يكلف هؤلاء المقلدون أنفسهم مئونة مناقشة هذه الخصائص والرجوع بها إلى أسس معقولة فى طبيعة البيان ومكانه من النفوس . لهذا ندب عبد القاهر نفسه إلى وضع أسس البحث العلمى فى هذه الناحية ، منبهاً إلى « شرف العلم وجليل محله ، وأن محبته مركوزة فى الطباع ، والغيرة عليه لازمة للجبلّة . وليس هناك — فى رأيه — علم أرسخ أصلا وأبسق فرعاً من علم البيان الذى لولاه لم تر لساناً يحوك الوشى وينفث السحر ، والذى لولا عنايته بالعلوم وتصويره إياها لبقيت كامنة مستورة ، إلا أنك لن ترى — على ذلك — نوعاً من العلم قد لقى من الضيم ما لقيه ، ومُنى من الحيف بما منى به ، ودخل على الناس من الغلط فى معناه ما دخل عليهم فيه ، فقد سبقت إلى نفوسهم اعتقادات فاسدة ، وأصبح الواحد منهم يسمع الفصاحة والبلاغة والبراعة ، فلا يعرف لها معنى سوى الإطناب فى القول ، وأن يكون المتكلم فى ذلك جهير الصوت ، جارى اللسان ، لا تعترضه لكنة ، ولا تقف به حبسة ، وأن يستعمل اللفظ الغريب والكلمة الوحشية ... وجملة الأمر أنه لا يرى النقص يدخل على صاحبه فى ذلك إلا من جهة نقصه فى علم اللغة ، جاهلا أن ههنا دقائق وأسرارا ، طريق العلم بها الروية والفكر ، ولطائف مستقاها العقل ، وخصائص معان ينفرد بها قوم قد هدوا إليها ، ودلوا

عليها . . . وأنها السبب فى أن عرضت المزية فى الكلام ، ووجب أن يفضل بعضه بعضاً ، وأن يبعد الشأو فى ذلك ، و يعلو المرتقى ، ويعز المطلب ، حتى ينتهى الأمر إلى الإعجاز ، وإلى أن يخرج من طوق البشر . ولما لم تعرف تلك الطائفة هذه الدقائق والخواص لم تتعرض لها ولم تطلبها . ثم عنّ لها بسوء الاتفاق رأى صار حجازاً بينها و بين العلم بها ، وهو أن ساء اعتقادها فى الشعر الذى هو معدنها وعليه المعول فيها ، وفى علم الإعراب الذى هو لها كالناسب الذى ينميها إلى أصولها و يبين فاضلها من مفضولها . . . وزاد الطين بلة أن ظهر فى الميدان قوم تعاطوا التفسير بغير علم وأخطأوا فهم المجاز والتمثيل فى القرآن فأفسدوا المعنى وأبطلوا الغرض ، ومنعوا أنفسهم والسامع منهم العلم بموضع البلاغة و بمكان الشرف . «وناهيك بهم إذا هم أخذوا فى ذكر الوجوه ، وجعلوا يكثرون فى غير طائل — هنالك ترى ما شئت من باب جهل قد فتحوه ، وزند ضلالة قد قدحوا به ، ونسأل الله العصمة والتوفيق» .

هذا هو الموقف النقدى والبلاغى كما بدا لعبد القاهر فى عصره ، وهذا هو مقدار الخلط والفوضى فيه . ولا علاج لهذه الحال — بالطبع — إلا رفع راية العلم ، والرجوع إلى الأسس والقوانين الأولى ، مستمدة من النظر الصحيح فى نصوص الأدب ، ومن الفهم السليم لطبيعة البيان ومناهج تأليفه ، ونواحى الصلة بينه و بين الفنون الأخرى ، ثم البحث فى منافذه إلى الأذهان والقلوب ، وطرائق تأثيره فيها . و بعبارة أوضح — أن يعالج الأدب على أساس طريقة واضحة يتعاون فيها الاستقراء والذوق والمعرفة ، و يرجع فيها إلى الأسس العامة التى تتفرع عنها ظواهر الأدب ، وتنبنى عليها نواحى جماله وتأثيره . فعلى الباحث — إذن — أن يتنبه لناحيتين أصيلتين فى دراسة الفن الأدبى : أولاهما ناحية البناء والنظم والتركيب ، والثانية ناحية الصياغة والتصوير والجمال ، وهاتان هما اللتان انتدب

لهما عبد القاهر فى كتابيه — على ما يظهر — فعالج الأولى فى « الدلائل » والثانية فى « الأسرار » .

ولسنا نقصد بالطبع إلى أن نقول إن « عبد القاهر » تصور المسألة على هذا الوضع ، فقسمها قسمين ، وأفرد لكل قسم كتابا ؛ ولكنا نرجح أنه وقت أن كتب أحد الكتابين كان تفكيره الأدبى متأثراً فى الغالب بإحدى الناحيتين ، فلما فرغ منه أحس أن النظرية لا تزال فى حاجة إلى البحث ، وأن منها جانبا لم ينل قسطه كاملا من العناية والمناقشة ، فكتب كتابه الثانى . فكلا الكتابين لا يفتأ يدور حول نظرية واحدة هى نظم الكلام وترتيب معانيه ؛ غير أن أحدهما يؤكد جانب بناء الكلام وصلة معانيه بعضها ببعض ، وثانيهما يؤكد الجانب التأثيرىّ من هذه المعانى و بيان مسالكها إلى النفوس .

هذه الصلة بين الكتابين — كما نتصورها — تجعل منهما وحدة تفكيرية ، وتربط بين الأهداف التى اتجه إليها المؤلف فيهما ، وتيسر على الباحث سبيل استخلاص الفلسفة الذوقية التى قام عليها مذهب عبد القاهر .

(حـ) ولم يكن القدماء يشتغلون كثيراً بالبحث فى أمر هذه الصلة ، فقد اكتفوا بأن اعتبروا الكتابين معاً أساس علم البلاغة ، يقول صاحب الطراز[1] : « وأول من أسس من هذا العلم قواعده وأوضح براهينه . . . الشيخ العالم النحرير علم المحققين عبد القاهر الجرجانى . فلقد فك قيد الغرائب بالتقييد . . . وفتح أزهاره من أكمامها . . . فجزاه الله عن الإسلام أفضل الجزاء . . . وله من المصنفات فيه كتابان : أحدهما لقبه بدلائل الإعجاز ، والآخر لقبه بأسرار البلاغة » .

أما المحدثون فقد تباينت وجهات نظرهم إلى الكتابين حسب اختلاف

(١) كتاب « الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز » تأليف يحيى ابن حمزة العلوى (٦٦٩ — ٧٢٩ هـ) ص ٤ — ج ١ طبعة دار الكتب الخديوية ١٣٣٢ هـ .

الزوايا التى نظروا منها إلى الموضوع : فـ « طه حسين » — مثلا — يذهب إلى أن المؤلف متأثر فيهما كليهما « بابن سينا » الذى عرّب كتاب « الخطابة » (لأرسطو) فجعله فى متناول الفكر العربى « وبذلك هيأ أسباب التوفيق بين البيانين (اليونانى والعربى) اللذين عاشا متجاورين دون أن يتلاقيا ويتآلفا . وقد تحقق هذا التوفيق فى القرن الخامس على يد عبد القاهر الجرجانى . . . صنّف عبد القاهر كتابين يعتبران بحق أنفس ما كتب فى البيان العربى هما : « أسرار البلاغة » و « دلائل الإعجاز » . فعند ما نقرأ أولهما نكاد نجزم بأن المؤلف قرأ الفصل الذى عقده ابن سينا للعبارة ، وأنه فكر فيه كثيرا ، وحاول أن يدرسه دراسة نقد وتمحيص . . . ولا يسع من يقرأ (دلائل الإعجاز) إلا أن يعترف بما أنفق عبد القاهر من جهد صادق خصب فى التأليف بين قواعد النحو العربى وبين آراء أرسطو العامة فى الجملة والأسلوب والفصول . وقد وفق عبد القاهر فيما حاول توفيقاً يدعو إلى الإعجاب . وإذا كان « الجاحظ » هو واضع أساس البيان العربى حقاً فعبد القاهر هو الذى رفع قواعده وأحكم بناءه [١] . و « الخولى » يفرق بين منهجى الكتابين على أساس ما يذهب إليه من أن عبد القاهر يمثل فى كتابيه نزعتين تكشفت عنهما دراسة البلاغة قبل عصره ، إحداهما طريقة المتكلمين ، والأخرى طريقة الأدباء . فعبدالقاهر « متكلم أو بليغ كلامى الدرس فى كتابه « دلائل الإعجاز » ، يعنى أولا وأخيراً بقضية الإعجاز فقط ، وينصرف إليها انصرافاً تاماً ، فيجادل عنها جدلا منطقياً . . . . وعبد القاهر بليغ أديب فى كتابه الآخر « أسرار البلاغة » لا يتحدث فى قضية

---

(١) راجع « تمهيد فى البيان العربى من الجاحظ إلى عبد القاهر » وهو بحث وضعه بالفرنسية « طه حسين » وترجمه « عبد الحميد العبادى » إلى العربية . فى مقدمة كتاب « نقد النثر » لقدامة طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٩ هـ من ص ٢٤ إلى ٣٠

الإعجاز بكثير ولا قليل ، بل لا يستشهد بالقرآن على نسبة كافية ، وكأنه يتحرى ترك ذلك ... كما يبدو أسلوبه فيه خالياً من الأسلوب المنطقى الاستدلالى ، ميالاً إلى طول النَّفَس و بسطة العبارة ، والاعتماد على الحاسة الفنية وتحكيم الذوق الأدبى »[1] . فالخولى — إذن — يعتبر عبد القاهر متكلما فلسفياً فى « دلائل الإعجاز » ، وأديباً صانع كلام وناقده فى « أسرار البلاغة » .

و بينما يرى الخولى أن منهج « دلائل الإعجاز » فلسفى جدلى ، يذهب « ابراهيم مصطفى » إلى أن « عبد القاهر » قد رسم فى دلائل الإعجاز طريقاً جديداً للبحث النحوى . و بيَّن أن للكلام نظما ، وأن رعاية هذا النظم واتباع قوانينه هى السبيل إلى الإبانة والإفهام » . وأساس هذا المذهب — فى رأى ابراهيم مصطفى — الذوق وتنبه الحس اللغوى لزنة الأساليب ودرك خصائصها » . وهو يقول : « ولقد آن لمذهب عبد القاهر أن يحيا ، وأن يكون هو سبيل البحث النحوى ، فإن من العقول ما أفاق لحظه من التفكير والتحرر ، و إن الحسّ اللغوى أخذ ينتعش ويتذوق الأساليب و يزنها بقدرتها على رسم المعانى والتأثير بها ، من بعد ما عاف الصناعات اللفظية ، وسئم زخارفها »[2] .

(ى) قلنا إن عبد القاهر — فى رأينا — قد تصور موضوع الإعجاز جزءاً من ظاهرة أوسع هى طريقة نظم البيان عامة ، فجاء كتابه « دلائل الإعجاز » لا بحثاً خاصاً من بحوث المتكلمين والفقهاء ، ولكن بحثاً عاماً فى ركن من أهم أركان النظرية الأدبية : هو أسلوب تأليف الكلام . وقد عالج فيه طريقة نظم الكلام وترتيب معانيه ، وما يعرض لها من تقديم وتأخير ، وذكر وحذف ،

---

(١) راجع « البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها » . (بحث تاريخى تجديدى ألقاه أمين الخولى فى الجمعية الجغرافية الملكية . سنة ١٩٣١ م) ص ٢٣ .

(٢) راجع « إحياء النحو » لابراهيم مصطفى طبعة لجنة التأليف ١٩٣٧ م ص ١٦ إلى ٢٠ .

وفصل ووصل ، وقصر واختصاص .. الخ . محاولا فى ثنايا كل ذلك أن ينقل الاهتمام من جانب اللفظ إلى جانب المعنى[1] ، منبهاً إلى أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هى ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هى كلم مفردة » ، و إنما تثبت لها الفضيلة وخلافها فى ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها ، أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ » .. والمنشئ إذ ينظم الكلم إنما يقتفى فى نظمها آثار المعانى ، ويرتبها على حسب ترتيب المعانى فى النفس ، « فهو — إذن — نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض ، وليس هو النظم الذى معناه ضم الشىء إلى الشىء كيف جاء واتفق ، ولذا كان عندهم نظيراً للنسج والتأليف والصياغة والبناء والوشى والتحبير وما أشبه ذلك مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض حتى يكون لوضع كلٍّ حيث وُضع علة تقتضى كونه هناك ، وحتى لو وضع فى مكان غيره لم يصلح » ، (ص ٤٠ دلائل) . وليس يُتصور « أن تعرف للفظ موضعاً من غير أن تعرف معناه ، ولا أن تتوخى فى الألفاظ من حيث هى ألفاظ ترتيباً ونظما » . بل « تتوخى الترتيب فى المعانى وتُعمل الفكر هناك ، فإذا تمَّ ذلك أتبعتها الألفاظ وقفوتَ بها آثارها » ... و « إذا فرغتَ من ترتيب المعانى فى نفسك لم تحتج إلى أن تستأنف فكراً فى ترتيب الألفاظ بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعانى وتابعة لها . وأن العلم بمواقع المعانى فى النفس علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها فى النطق » . فالمزية فى الكلام — إذن — من حيِّز المعانى دون الألفاظ ، وهى « ليست لك حيث تسمع بأذنك ، بل حيث تنظر بقلبك ، وتستعين بفكرك ، وتعمل رويتك ، وتراجع عقلك ، وتستنجد فى الجملة فهمك » وليس مدار أمر النظم إلا على معانى النحو وعلى الوجوه والفروق التى من شأنها

---

(١) نظرية عبد القاهر فى أمر اللفظ والمعنى تحتاج إلى نظر ومناقشة ، ويتلجلج فى بعض جوانبها شيء من الغموض والتناقض والإسراف .

أن تكون فيه .. « وإنما سبيل هذه المعانى سبيل الأصباغ التى تعمل منها الصور والنقوش ، فكما أنك ترى الرجل قد تهدّى فى الأصباغ التى عمل منها الصورة ، والنقش فى ثوبه الذى نسج ، إلى ضرب من التخير والتدبر فى أنفس الأصباغ وفى مواقعها ومقاديرها ، وكيفية مزجه لها وترتيبه إياها إلى ما لم يتهدّ إليه صاحبه ، فجاء نقشه من أجل ذلك أعجب ، وصورته أغرب ، كذلك حال الشاعر والشاعر فى توخيهما معانى النحو ووجوهه التى علمت أنها محصول النظم » (ص ٧٠ دلائل) .

هذه هى الفكرة التى بسطها عبد القاهر فى دلائل الإعجاز بسطاً شافياً قائماً على التحليل الدقيق لروائع النصوص ، وعلى تفنيد ما يمكن أن يقوم من شُبه واعتراضات . وهى ليست موضع بحثنا هنا ، وإنما أشرنا إليها مجرد إشارة لتفهم الصلة بينها وبين الفكرة التى قام عليها كتاب « الأسرار » ، والتى هى موضوع بحثنا الحاضر .

٢

(ا) يفتتح عبد القاهر كتابه « أسرار البلاغة » بالكلام على منزلة البيان من خصائص الإنسان ، وبالتنبيه إلى أن الوصف الخاص به هو أن يريك المعلومات بأوصافها التى وجدها العلم عليها ، ويقرر كيفياتها التى تتناولها المعرفة إذا سمت إليها ؛ « وإذا كان هذا الوصف مقوم ذاته ، وأخص صفاته ، كان أشرف أنواعه ما كان فيه أجلى وأظهر ، وبه أولى وأجدر .. » . ومن هنا يبين للمحصل كيف ينبغى أن يحكم فى تفاضل الأقوال إذا أراد أن يقسم بينها حظوظها من الاستحسان ... ومن البين الجلىّ أن التباين فى هذه الفضيلة ليس بمجرد اللفظ ، وإنما لأمر خاص بالمعانى ومواقعها فى النفوس « فإذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعراً ، أو يستجيد نثراً ، ثم يجعل الثناء

عليه من حيث اللفظ فيقول : حلو رشيق ، وحسن أنيق . . . ! فاعلم أنه ليس ينبئك عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف و إلى ظاهر الوضع اللغوى بل إلى أمر يقع من المرء فى فؤاده ، وفضل يقتدحه العقل من زناده (ص٣ أسرار) .
هذه الفقرة تحتوى جوهر الفكرة التى بنى عليها عبد القاهر كتابه ، وتعطينا المفتاح لفهم نظريته التى نحاول أن نبرزها فى هذا البحث . فالمسألة — إذن — مسألة ترتيب خاص فى صياغة المعانى ، وهذا الترتيب يحدث أثراً ما عند قارئه أو سامعه . ومن أهم مقاييس الجودة الأدبية — إذن — تعرُّف مقدار ما يتركه النص الأدبى من أثر فى نفس متذوقه .

(ب) وإذ كانت أبواب التشبيه والتمثيل والاستعارة هى الأبواب التى تفسح المجال أكثر من غيرها لضروب التصوير الأدبى ، وخلق الصور الفنية ، اعتبرها عبد القاهر الأصول التى تتفرع عنها جُلّ محاسن الكلام . ، « وكأنها أقطاب تدور عليها المعانى فى متصرفاتها ، وأقطار تحيط بها من جهاتها » . لهذا وجّه إليها همّه ، وتوسع ما شاء له استقراؤه وتحليله فى تطبيق نظريته عليها . غير أنه رأى من الضرورى أن يزيل وهْمًا فى طريق البحث قد يعوق القارئ عن متابعته فيه ؛ ذلك أن بين صياغات الكلام أقساماً قد يتوهم فى بدء الفكرة ، وقبل إتمام العبرة ، أن الحسن والقبح فيها لا يتعدى اللفظ والجرْس ، إلى ما يناجى فيه العقل النفس ، ولها — إذا حقق النظر — مرجع إلى ذلك ، ومنصرف فيما هنالك . ومن أمثلة هذه الأقسام التجنيس . ثم هنالك نوع من الأشعار اعتاد الأقدمون أن يثنوا عليه من جهة الألفاظ ، ويصفوه بالسلاسة ، ويقولوا كأنه الماء جريانا والرياض حسنا ، كقول الشاعر :

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسّح بالأركان من هو ماسح

وشُدَّت على دهم المهارى[1] رحالنا ولم ينظر الغـادى الذى هو رائح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطىّ الأباطح

أما التجنيس[2] فإنك لا تستحسن تجانس اللفظتين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعاً حميداً ، فترى الشاعر « قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها ، ويوهمك كأنه لم يزدك ، وقد أحسن الزيادة ووفاها » . وإذا لم تتحقق فى الجناس هذه الفائدة العقلية كان ضعيفا أو مستهجنا. والظاهر أن المتأخرين (فى عصر عبد القاهر) فتنوا بكل ما له اسم فى البديع ، من جناس أو سجع أو غيرهما ، وظنوا أن المسألة مسألة حلية لفظية ، وكان الواحد منهم لفرط شغفه بهذا ينسى أنه يتكلم ليُفهم ، ويقول ليُبين ، ويُخيل إليه إذا جمع بين أقسام البديع فى بيت فلا ضير أن يقع ما عناه فى عمياء ، وأن يوقع السامع من طلبه فى خبط عشواء ، وربما طمس بكثرة ما يتكلفه على المعنى وأفسده ، كمن ثقل العروس بأصناف الحلى حتى ينالها من ذلك مكروه فى نفسها » . أما المتقدمون فقد تركوا فضل العناية بهذه الألوان ، ولزموا سجية الطبع ، وجعلوا المعانى هى المالكة لسياسة الألفاظ ، فجاء كلامهم أمكن فى العقول ، وأبعد من القلق ، وأنصر للجهة التى تنحو نحو العقل . وعبد القاهر حريص على أن يطابق فكرته هذه فى كل أنواع الجناس ، فكما أنها تصدق فى التام المستوفى منه كقول أبى الفتح البستى :

ناظراه فيما جـنى ناظراه أو دعانى أمت بما أودعانى

فإنها تصدق أيضاً فى الجناس الناقص كقول أبى تمام :

---

(١) ابن قتيبة وأبو هلال العسكرى يرويان هذا البيت (وشدت على حدب المهارى رحالنا ..)

(٢) « التجنيس أن يورد المتكلم كلمتين تجانس كل واحدة منهما صاحبتها فى تأليف حروفها على حسب ما ألف الأصمعى كتاب الأجناس » (راجع الصناعتين لأبى هلال العسكرى ص ٢٤٩ طبعة الآستانة) .

يمدون من أيد عواص عواصم تصول بأسياف قواض قواضب

فإنك « تتوهم قبل أن يرد عليك آخر الكلمة — كالميم من عواصم ، والباء من قواضب — أنها هى التى مضت ، وقد أرادت أن تجيئك ثانية ، وتعود إليك مؤكدة ؛ حتى إذا تمكن فى نفسك تمامها ، ووعى سمعك آخرها ، انصرفت عن ظنك الأول . . . وفى ذلك ما ذكرتُ لك من طلوع الفائدة بعد أن يخالطك اليأس منها ، وحصول الربح بعد أن تغالَط فيه حتى ترى أنه رأس المال (ص ١٣ أسرار) .

وأما الأبيات : (ولما قضينا من منى كل حاجة . . الخ) فقد عالجها ناقدان — على الأقل — قبل عصر عبد القاهر : فابن قتيبة (المتوفى سنة ٢٧٦ هـ) يضربها مثلا لضرب من الشعر حسن لفظه وحلا ، فإذا أنت فتشته لم تجد هناك طائلا ، وفيها يقول : وهـذه الألفاظ أحسن شىء مطالع ومخارج ومقاطع . فإذا نظرت إلى ما تحتها وجدته : ولما قضينا أيام منى واستلمنا الأركان ، وعالينا إبلنا الأنضاء ، ومضى الناس لا ينظر من غدا الرائح ابتدأنا فى الحديث ، وسارت المطىّ فى الأبطح . وهذا الصنف من الشعر كثير . . »[1] . وأبو هلال العسكرى (المتوفى سنة ٣٩٥هـ) يسوقها دليلا على أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ ، فيقول : « ودليل آخر ... أن الكلام إذا كان لفظه حلوا عذبا ، وسلساً سهلا ؛ ومعناه وسطا ، دخل فى جملة الجيد ، وجرى مع الرائع . كقول الشاعر (ولما قضينا . . الخ) وليس تحت هذه الألفاظ كبير معنى ، وهى رائقة معجبة . . وإنما هى : ولما قضينا الحج ومسحنا الأركان وشدت رحالنا على مهازيل الإبل ، ولم ينتظر بعضنا بعضا ، جعلنا نتحدث وتسير بنا الإبل فى بطون الأودية »[2] .

---

(١) « الشعر والشعراء » لابن قتيبة . طبعة المكتبة التجارية (ثانية) ١٣٥٠هـ . ص ١٠ .

(٢) « كتاب الصناعتين الكتابة والشعر » من تصنيف أبى هلال العسكرى طبعة الآستانة ص ٤٢ — ٤٣ .

أما « عبد القاهر » فإنه يسلك فى معالجة هذه الأبيات منهجاً هو به أشبه ، وبنظريته أمثل : فيطالبك أولا أن تراجع فكرتك وتشحذ بصيرتك وتحسن التأمل فى أسرار استحسان الناس لمثل هذا الشعر ؛ ثم يسائلك . أتجد لهذا الاستحسان منصرَفا إلا إلى استعارة وقعت موقعها ، وأصابت غرضها ؛ أوحسن ترتيب تكامل معه البيان حتى وصل المعنى إلى القلب ، مع وصول اللفظ إلى السمع ؛ وإلا إلى سلامة الكلام من الحشو غير المفيد ، ومن التقصير الذى يفتقر معه السامع إلى زيادة بقيت فى نفس المتكلم فلم يدل عليها بلفظها الخاص بها ! . ثم يكرّ على الأبيات مرة أخرى فيصور لك كل ما همستْ به فى نفسه ، وكل ما خلفت فى ذهنه من أثر ، ويخلق لك الجو الذى قيلت فيه خلقاً جديداً ، حتى لكأنك تشهده رأى العين . يقول : وذلك أن أول ما يتلقاك من محاسن هذا الشعر أنه قال : (ولما قضينا من منى كل حاجة ، فعبر عن قضاء المناسك بأجمعها ، والخروج من فروضها وسننها ، من طريق أمكنه أن يقصر معه اللفظ ، وهو طريقة العموم . ثم نبه بقوله (ومسح بالأركان من هو ماسح) على طواف الوداع الذى هو آخر الأمر ، ودليل المسير الذى هو مقصوده من الشعر . ثم قال (أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا) فوصل بذكر مسح الأركان ما وليه من زم الركاب وركوب الركبان ثم دل بلفظة الأطراف على الصفة التى يختص بها الرفاق فى السفر من التصرف فى فنون القول وشجون الحديث ، أو ماهو عادة المتظرفين من الإشارة والتلويح والرمز والإيماء ؛ وأنبأ بذلك عن طيب النفوس ، وقوة النشاط ، وفضل الاغتباط ، كما توجبه ألفة الأصحاب ، وأنسة الأحباب ، وكما يليق بحال من وفق لقضاء العبادة الشريفة ، ورجا حسن الإياب ، وتنسم روائح الأحبة والأوطان واستماع التهانى والتحايا من الخلان والإخوان . ثم زان ذلك كله باستعارة لطيفة طبق فيها مفصل التشبيه ، وأفاد كثيراً من الفوائد بلطف

الوحى والتنبيه : فصرح أولا بما أومأ إليه فى الأخـذ بأطراف الأحاديث من أنهم تنازعوا أحاديثهم على ظهور الرواحل ، وفى حال التوجه إلى المنازل ؛ وأخبر بعدُ بسرعة السير ؛ ووطاءة الظهر ، إذ جعل سلاسة سيرها بهم كالماء تسيل به الأباطح ؛ وكان فى ذلك ما يؤكد ما قبله لأن الظهور إذا كانت وطيئة وكان سيرها السير السهل السريع زاد ذلك فى نشاط الركبان ، ومع ازدياد النشاط يزداد الحديث طيبا . ثم قال بأعناق المطىّ ، ولم يقل بالمطىّ ، لأن السرعة والبطء يظهران غالباً فى أعناقها ، ويبين أمرهما من هواديها وصدورها ؛ وسائر أجزائها تستند إليهـا فى الحركة ، وتتبعها فى الثقل والخفة ؛ ويُعبّر عن المرح والنشاط إذا كانا فى أنفسها بأفاعيل لها خاصة فى العنق والرأس ، ويُدل عليهما بشمائل مخصوصة فى المقاديم .. » (ص ١٦ — ١٧ — أسرار) .

هذا تحليل آثرت أن أثبت معظمه لأصور منهجه ، ولأبين كيف تطور النقد العربى العملى على يد عبد القاهر ، فلم يعد جملا قصيرة وأحكاما مبتسرة ، ولـكنه أصبح جولة يجولها الناقد فى الآفاق التى هام فيهـا الشاعر ، ثم يعود ليقص على الناس ما رأى ، وليكون المترجم بين الشاعر وبينهم ، كما يقول أناتول فرانس .

(حـ) ينتهى المؤلف من هـذه النقط التمهيدية ، ليفرغ لمقصده الرئيسى فى بيان أمر المعانى كيف تتفق وتختلف ، ومن أين تجتمع وتفترق ، وتفصيل أجناسها وأنواعها ، وتتبع خاصها ومشاعها ، مفصلا القول فى التشبيه والتمثيل والاستعارة ، لأنها عنده — كما أسلفنا — لب التصوير الأدبى ، وذخيرته التى لا تنفد .

وليس من مقصدنا هنا أن نناقش التعاريف التى ساقها المؤلف لتمييز صور الـكلام وأنواعه ؛ ولن يتسع المقام لإيراد كثير من الأمثلة التى حللها ونقدها ،

مع أنها جزء أصيل فى منهجه ، وبغيرها قد يبدو الكلام نظريا جافا بعيدا عن روح التذوق الأدبى ، وكان الإنصاف يقتضينا أن نعرض منهج تفكيره كاملا غير منقوص . ولكننا قصرنا أنفسنا هنا على رسم معالم النظرية التى تجرى خلال الكتاب كله والتى نعتقد أنها تضمن لعبد القاهر مكاناً بين رجال البحث والتفكير العالمى .

أما الاستعارة فهى — فى الجملة — أن يكون لفظ الأصل فى الوضع اللغوى معروفا تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع ، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر فى غير ذلك الأصل ، وينقله إليه نقلا غير لازم ، فيكون هناك كالعارية . وذلك كاستعارة الطيران لغير ذى الجناح إذا أردت السرعة ، وانقضاض الكواكب للفرس إذا أسرع فى حركته من علو ، والسباحة له إذا عدا عدْواً وكاستعارة النثر — الذى هو فى الأصل للأجسام الصغار كالدراهم والدنانير والجواهر والحبوب — للتعبير به عن تساقط المنهزمين على غير ترتيب ونظام فى قول المتنبى .

نثرتهمو فوق الأحيدب نثرة   كما نثرت فوق العروس الدراهم

وكقولك رأيت شمساً تريد إنساناً يتهلل وجهه كالشمس ، وكاستعمال النور فى الآية الكريمة : (واتبعوا النور الذى أنزل معه) مراداً به الحجة . وهذا الضرب الأخير — وهو ما كان الشبه فيه مأخوذا من الصور العقلية هو المنزلة التى تبلغ عندها الاستعارة غاية شرفها ، ويتسع لها المجال فى تفننها وتصرفها . ويمكن أن يقال على العموم إنها تنقسم أقساما ثلاثة : (أحدها) أن يؤخذ الشبه من الأشياء المشاهدة والمدركة بالحواس على الجملة للمعانى المعقولة : (والثانى) أن يؤخذ الشبه من الأشياء المحسوسة لمثلها إلا أن الشبه مع ذلك عقلى (والثالث) أن يؤخذ الشبه من المعقول للمعقول .

ومن الفضيلة الجامعة فى الاستعارة على العموم أنها تبرز البيان أبداً فى صورة مستجدة تزيد قدره نبلا ، وتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت فيها فوائد حتى تراها مكررة فى مواضع ، ولها فى كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد ، ومن خصائصها أنها تعطيك الكثير من المعانى باليسير من اللفظ ، حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر . وهى بين أقسام الصناعة البلاغية بدر نجومها وحلى عرائسها « فإنك لترى بها الجماد حياً ناطقاً ، والأعجم فصيحاً ، والأجسام الخرس مبينة ، والمعانى الخفية بادية جلية » . . . وإن شئتَ أرتك « المعانى اللطيفة التى هى من خفايا العقل كأنها جسمت حتى رأتها العيون ، وإن شئت لطفتْ الأوصاف الجسمانية ، حتى تعود روحانية لا تنالها إلا الظنون » (ص ٣٣ أسرار) .

وأما التشبيه فهو إلحاق أمر بأمر لجهة مماثلة بينهما : كتشبيه القدّ اللطيف بالغصن ، والحجة الظاهرة بالشمس ، والأبناء المتساوين فى النبل والحسب بالحلقة المفرغة لا يُدرى أين طرفاها ؛ وما إلى ذلك مما تكون الجهة فيه اشتراكا فى الصورة أو الشكل أو اللون أو الهيئة أو حال الحركات ، أو ناحية متأولة لا يفهمها حق فهمها إلا من له ذهن أو نظر .

وأما التمثيل فهو ما كان على غرار قول ابن المعتز :

فالنار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله

حيث يشبه الحسود — إذا صبر عليه ، وسكت عنه ، وترك غيظه يتردد فيه — بالنار التى لا تُمد بالحطب حتى يأكل بعضها بعضا . وهو على العموم — ما تجده لا يحصل لك الشبه فيه إلا منتزعاً من مجموع صور من الكلام لا يمكن فصل بعضها عن بعض ، مثل قوله تعالى (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا

أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس) . والفرق بينه و بين التشبيه ، أن التشبيه عام ، والتمثيل أخص منه ، فكل تمثيل تشبيه ، وليس كل تشبيه تمثيلا .

(ى) يقول المؤلف : « واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء فى أعقاب المعانى ، أو برزت هى باختصار فى معرضه ، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته ، كساها أبهة ... ورفع من أقدارها وضاعف قواها فى تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب إليها ، واستثار لها من أقاصى الأفئدة صبابة وكلفا ، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفا » (ص ٩٢ — ٩٣ أسرار) . فإن كان مدحا كان أبهى وأفخم . . وأهز للعطف . . و إن كان ذما كان مسه أوجع . . ووقعه أشد . . و إن كان حجاجا كان برهانه أنور وسلطانه أقهر . . و إن كان افتخاراً كان شأوه أبعد وشرفه أجد . و إن كان اعتذارا كان إلى القول أقرب ، وللقلوب أجلب . . و إن كان وعظا كان أشفى للصدر ، وأبلغ فى التنبيه والزجر . وهكذا الحكم إذا استقريت فنون القول وضروبه ، وتتبعت أبوابه وشعوبه ، و إن أردت أن تعرف ذلك .. فانظر إلى قول البحترى :

دان على أيدى العفاة وشاسع عن كل ند فى الندى وضريب
كالبدر أفرط فى العلو ، وضوؤه للعصبة السارين جد قريب

وفكّر فى حالك وحال المعنى معك وأنت فى البيت الأول لم تنته إلى الثانى ، ولم تتدبر نصرته إياه وتمثيله له فيما يملى على الإنسان عيناه — ثم قسهما على الحال وقد وقفت عليه وتأملت طرفيه ، فإنك تعلم بعد ما بين حالتيك ، وشدة تفاوتهما فى تمكن المعنى لديك ، وتحببه إليك ، ونبله فى نفسك » (ص ٩٢— ٩٨ أسرار) .

فالتمثيل — إذن — إنما ينبل ويجود بمقدار تأثيره فى النفس . و إذا تعمقنا بحث ذلك وجدنا أن لهذا التأثير أسبابا وعللا ، كل منها يقتضى أن يفخم

المعنى بالتمثيل وينبل ... « فأول ذلك وأظهره أن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفىّ إلى جلىّ ، وتأتيها بصريح بعد مكنى ، وأن تردها فى الشىء تعلمها إياه إلى شىء آخر هى بشأنه أعلم . . . نحو أن تنقلها من العقل إلى الإحساس ، وعما يُعلم بالفكر ، إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع ؛ لأن العلم المستفاد من طرق الحواس — أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة — يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر فى القوة والاستحكام ... » (ص١٠٢ أسرار).

« وضرب آخر من الأنس ، وهو ما يوجبه تقدم الإلف ... ومعلوم أن العلم الأول أتى النفس أولا من طريق الحواس والطباع ، ثم من جهة النظر والروية ، فهو — إذن — أمس بها رحما . . وأقدم لها صحبة . . فأنت — إذن — مع الشاعر وغير الشاعر — إذا وقع المعنى فى نفسك غير ممثل ثم مثّله — كمن يخبر عن شىء من وراء حجاب ، ثم يكشف عنه الحجاب ويقول : هاهو ذا فأبصره تجده على ماوصفت .. والمعانى التى يجىء التمثيل فى عقبها على ضربين : غريب بديع يمكن أن يخالف فيه ، ويُدعى امتناعه واستحالة وجوده ، وذلك نحو قول المتنبى .

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

فالتمثيل فيه ينفى الريب والشك ، ويؤمن صاحبه من تكذيب المخالف وتهكم المعترض ؛ ونوع آخر ليس بالغريب الذى يحتاج إلى إزالة الشك ، ولكن يحتاج إلى بيان المقدار ، ووضع قياس من غيره يكشف عن حده ومبلغه فى القوة والضعف والزيادة والنقصان ، كقول الشاعر :

فأصبحت من ليلىَ الغداة كقابض على الماء خانته فروج الأصابع

فهو قد أراك رؤية لا تشك معها ولا ترتاب فى أنه بلغ فى خيبة ظنه وبوار سعيه إلى أقصى المبالغ . . . والمشاهدة إذا كانت مستفادة من العيان ، ومتصرفة

حيث تتصرف العينان ، تُحرك النفس وتُمكن المعنى فى القلب » (ص ١٠٢ — ١٠٨ أسرار) . وهناك سرٌّ ثالث من أسرار روعة التمثيل هو أنه يتيح لك الفرصة لتتصور الشبه من الشىء فى غير جنسه وشكله : ذلك أن التشبيهات لا يكون لها موقع من السامعين ، ولا تهز وتحرك حتى يكون الشبه مقرراً بين شيئين مختلفين فى الجنس ، كتشبيه العين بالنرجس ، والثريا بعنقود الكرم المنور ، « وهكذا إذا استقريت التشبيهات وجدت التباعد بين الشيئين كلما كان أشد كانت إلى النفوس أعجب ، وكانت النفوس لها أطرب ، وكان مكانها إلى أن تحدث الأريحية أقرب ، وذلك أن موضع الاستحسان . . . والمثير للدفين من الارتياح أنك ترى بها الشيئين مثلين متباينين ، ومؤتلفين مختلفين ، وترى الصورة الواحدة فى السماء والأرض ، وفى خلقة الإنسان وخلال الروض » ... (ص ١٠٩ أسرار) . «ومبنى الطباع وموضوع الجبلة على أن الشىء إذا ظهر من مكان لم يعهد ظهوره منه . . . كانت صبابة النفوس به أكثر » (ص ١١٠ أسرار) . وإذا ثبت هذا الأصل ، وهو أن تصوير الشبه بين المختلفين فى الجنس مما يحرك قوى الاستحسان ، فإن التمثيل أخص شىء بهذا الشأن ؛ وهذا الصنيع صناعته التى هو الإمام فيها : وأمره فى ذلك أنك إذا قصدت ذكر طرائفه وعدّ محاسنه فى هذا المعنى ، والبدع التى يخترعها بحذقه ، والتأليفات التى يصل إليها برفقه ، ازدحمت عليك ، وغمرت جانبيك ، وهل تشك فى أنه يعمل عمل السحر فى تأليف المتباينين ، حتى يختصر بعد ما بين المشرق والمغرب ، ويجمع ما بين المشئم والمعرق ، وهو يريك للمعانى الممثلة بالأوهام ، شبهاً فى الأشخاص الماثلة والأشباح القائمة ، وينطق لك الأخرس ، ويعطيك البيان من الأعجم ، ويريك الحياة فى الجماد ، والتئام عين الأضداد ، فيأتيك بالحياة والموت مجموعين ، والماء والنار مجتمعين (ص ١١١ أسرار) .

وهناك لطيفة رابعة ، وهو أن المعنى إذا أتاك ممثلا ، فهو فى الأكثر ينجلى لك بعد أن يحوجك إلى طلبه بالفكرة ، وتحريك الخاطر له والهمة فى طلبه ، وما كان منه ألطف كان امتناعه عليك أكثر . ومن المركوز فى الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه ، ومعاناة الحنين نحوه ، كان نيله أحلى و بالميزة أولى ، فإن قلت فيجب على هـذا أن يكون التعقيد — والتعمية وتعمد ما يكسب المعنى غموضاً — مشرفا له وزائدا فى فضله ، وهذا خلاف ما عليه الناس ! أجابك المؤلف أنه لم يرد هذا الحدّ من الفكر والتعب ، وإنما أراد القدر الذى يحتاج إليه فى نحو قول المتنبى (فإن المسك بعض دم الغزال) ، وقول البحترى :

ضحوك إلى الأبطال وهو يروعهم ... وللسيف حد حين يسطو ورونق

فإنك تعلم على كل حال أن هذا الضرب من المعانى كالجوهر فى الصدف ، لا يبرز لك إلا أن تشقه عنه ، وما كل أحد يفلح فى شق الصدفة . وإنما ذم التعقيد لأنه أحوجك إلى فكر زائد على المقدار الذى يجب فى مثله ، وكدّك بسوء الدلالة ، وأودع المعنى لك فى قالب غير مستو ولا مماس ، بل خشنٍ مضرس ، حتى إذا رمت إخراجه عسر عليك ، وإذا خرج خرج مشوه الصورة ناقص الحس ؛ وذلك مثل ما تجده أحياناً «لأبى تمام» من تعسفه فى اللفظ وذهابه معه فى نحو من التركيب لا يهتدى النحو إلى صلاحه ، وإغراب فى الترتيب يعمى الإعراب فى طريقه . وليس معنى هذا أن نقول إن الكلام إذا كان غاية فى البيان أغناك عن الفكرة ؛ فإن المعانى الشريفة اللطيفة لا بد فيها من بناء ثان على أول ، ورد تال إلى سابق . وشيء من الجهد اللذيذ فى استخراج المعنى الذى قصد إليه الشاعر نفسه من جهد فى صياغة كلامه ، ويدفعنا إلى إحساس بتعظيم الكلام وتفخيمه . وإنك لا تكاد تجد شاعراً يعطيك فى المعانى

الدقيقة من التسهيل والتقريب ما يعطى « البحترى » ويبلغ فى هذا مبلغه ، فإنه ليروض لك المهر الأرن رياضة الماهر ، حتى يُعنق من تحتك إعناق المذلل ؛ ومع ذلك لا يمكن ادعاء أن شعره قليل الحاجة إلى الفكر ، غنى عن فضل النظر . فالمعقد من الشعر والكلام — إذن — لم يذم لأنه مما تقع حاجة فيه إلى الفكر على الجملة ؛ بل لأن صاحبه يعثر فكرك فى متصرفه ، ويشيك طريقك إلى المعنى ؛ بل ربما قسم فكرك وشعب ظنك ، حتى لا تدرى من أين تتوصل (ص ١١٨ — ١٢٦ أسرار) .

(هـ) وبعدُ ، فإذا أعدت الحلبات لجرى الجياد ، ونصبت الأهداف ليعرف فضل الرماة فى الإبعاد والسداد ، فرهان العقول التى تستبق ، ونضالها الذى تمتحن قواها فى تعاطيه هو الفكر والروية والقياس والاستنباط ؛ ولن يبعد المدى فى ذلك ولا يدق المرمى إلا بما تقدم من تقدير الشبه بين الأشياء المختلفة . وإنها لصنعة تستدعى جودة القريحة والحذق الذى يلطف ويدق فى أن يجمع أعناق المتنافرات المتباينات فى ربقة . وذلك بيِّن لك فيما تراه من الصناعات وسائر الأعمال التى تنسب إلى الدقة ، فإنك تجد الصورة المعمولة فيها كلما كانت أجزاؤها أشد اختلافاً فى الشكل والهيئة ، ثم كان التلاؤم مع ذلك أتمّ ، والائتلاف أبين ، كان شأنها أعجب ، والحذق لمصورها أوجب ؛ وإذا كان هذا ثابتاً من حيث الصور المصنوعة فهو فى التمثيل أقوى ثبوتاً .

وليس معنى ما تقدم أنك متى ألّفت الشىء ببعيد عنه فى الجنس على الجملة فقد أصبت وأحسنت ! ولكن لذلك شروطا وقيوداً : هى أن تصيب بين المختلفين فى الجنس وفى ظاهر الأمر شبهاً صحيحاً معقولا ، وتجد الملاءمة والتأليف السوى بينهما مذهباً وإليهما سبيلا ، وحتى يكون ائتلافهما الذى يوجب تشبيهك من حيث العقل والحدس ، فى وضوح اختلافهما من حيث العين والحس . فأما

أن تستكره الوصف وتروم أن تصوره حيث لا يتصور ، فلا ، لأنك تكون فى ذلك بمنزلة الصانع الأخرق ، يضع — فى تأليفه وصوغه — الشكل بين شكلين لا يلائمانه ولا يقبلانه حتى تخرج الصورة مضطربة وتجىء فيها نتوء ، ويكون للعين عنها من تفاوتها نبوّ (ص ١٣٠ أسرار) .

وقد يهم الباحث فى هذا المقام أن يعلم : لِمَ وجب أن يكون بعض الشبه على الذُّكْر ، وبعضه كالغائب عنه ، وبعضه كالبعيد عن الحضرة ، لا ينال إلا بعد قطع مسافة إليه . وسرّ هذا راجع إلى سببين :

الأول ما نعلمه من أن الجملة أبداً أسبق إلى النفوس من التفصيل : فأنت إذ تنظر الشىء ترى — بالنظر الأول — الوصف على الجملة ، ثم ترى التفصيل عند إعادة النظر . وهكذا الحكم فى السمع وغيره من الحواس ؛ فإنك تتبين من تفاصيل الصوت بأن يعاد عليك حتى تسمعه مرة ثانية ما لم تتبينه بالسماع الأول ، وتدرك من تفاصيل طعم الذوق بأن تعيده إلى اللسان مالم تعرفه فى الذوقة الأولى . وبإدراك التفصيل يقع التفاضل بين راء وراء وسامع وسامع ، وهكذا وإذ كانت هذه العبرة ثابتة فى المشاهدة وما يجرى مجراها مما تناله الحاسة ، فالأمر فى القلب كذلك : تجد الجُمل أبداً هى التى تسبق إلى الأوهام وتقع فى الخاطر أولا ، وتجد التفاصيل مغمورة فيما بينها ، وتراها لا تحضر إلا بعد إعمال الروية واستعانة بالتذكر . ويتفاوت الحال فى الحاجة إلى الفكر بحسب مكان الوصف ومرتبته من حد الجملة وحد التفصيل ؛ وكلما كان أوغل فى التفصيل كانت الحاجة إلى التوقف والتذكر أكثر (ص ١٣٧ — ١٣٨ أسرار) .

والناحية الثانية : أن مما يقتضى كون الشىء على الذكر وثبوت صورته فى النفس ، أن يكثر دورانه على العيون ، ويدوم تردده فى مواقع الأبصار ، وأن تدركه الحواس فى كل وقت أو فى أغلب الأوقات . وبالعكس ، وهو أن من

سبب بُعد ذلك الشيء عن أن يقع ذكره بالخاطر وتعرض صورته فى النفس ، قلة رؤيته ، وأنه مما يُحَس على طريق الندرة . وذلك أن العيون هى التى تحفظ صورة الأشياء على النفوس ، وتجدد عهدها . ولذلك قالوا : من غاب عن العين فقد غاب عن القلب . (ص ١٤٣) . وإذا كان هذا أمراً لا يشك فيه بان منه أن كل شبه رجع إلى وصف أو صورة أو هيئة من شأنها أن تُرى وتبصر أبداً — فالتشبيه المردود إليه غريب نادر بديع . ثم تتفاضل التشبيهات التى تجىء واسطة لهذين الطرفين بحسب حالها منهما . ومن هـذا تستطيع أن تعلم الطريق إلى التشبيه من أين يتفاوت فى كونه غريباً ، ويتفاضل فى مجيئه عجيباً ، وبأى سبب تجد عند شىء منه من الهزَّة ما لم تجد عند غيره ، علماً يخرجك عن نقيصة التقليد (ص ١٤٤ -- ١٥١) .

(و) ومن التشبيه نوع يعرف بالتشبيه المقلوب — من قول الشاعر :

وبدا الصباح كأن غرته   وجه الخليفة حين يمتدح

والمؤلف يطبق نظريته العامة عليه فينبه إلى أن فى مثل هـذا الأسلوب خلابة وسحرا ، ومصدر ذلك أنه يوقع المبالغة فى نفسك من حيث لا تشـعر ، ويفيدكها من غير أن يظهر ادعاؤه لها ، لأنه وضع كلامه وضع من يقيس على أصل متفق عليـه ، لا حاجة فيه إلى دعوى ، ولا إشفاق من خلاف مخالف . والمعانى إذا وردت على النفس هذا المورد كان لهـا ضرب من السرور خاص ، وحدث بهـا نوع من الفرح عجيب ، فكانت كالنعمة لا تـكدرها المنـة ، (ص ١٩٥) .

(ز) ويجول المؤلف جولاته الـكاشفة فى وادى التشبيه والتمثيل ، ثم يعود ليستأنف ما بدأه أولا من البحث عن كنوز الاستعارة وأنواعها ، والفروق بينها وبين التشبيه والتمثيل . حتى إذا ما قطع فى ذلك شوطاً أحس أنه قد

أطال ، وأن منكراً قد ينكر عليه هذه الإطالة فى شرح ما لا يزيد على مؤدى ثلاثة أسماء — وهى التشبيه والتمثيل والاستعارة ؛ فوقف وقفة ليزيل هـذا الإنكار ، وليقول إن هـذا الذى يقوم به يستدعى جملا من القول يصعب استقصاؤها ، وشعباً من الكلام لا تستبين لأول النظر . وهـذه الأمور التى قصد البحث عنها معروفة ومجهولة معاً : معروفة على الجملة لا ينكر بيانها فى نفوس العارفين ذوق الكلام والمتمهرين فى فصل جيده من رديئه ؛ ومجهولة من حيث لم تتفق فيها أوضاع تجرى مجرى القوانين التى يُرجع إليها فتستخرج منها العلل فى حسن ما استحسن وقبح ما استهجن (ص ٢٢٥ — ٢٢٧) .

(ح) ثم يطرق المؤلف موضوع المعانى الشعرية وأنواعها ، فيقسمها إلى قسمين عقلى وتخييلى : فأما العقلى من المعانى فعلامته أنه يجرى فى الشعر والكتابة والبيان والخطابة مجرى الأدلة التى يستنبطها العقلاء . ولذلك تجد الأكثر منه منتزعا من أحاديث النبى (ص) وكلام الصحابة ، ومنقولا من آثار السلف ؛ أو ترى له أصلا فى الأمثال القديمة والحكم الموروثة . وهو — فى الجملة — صريح يشهد له العقل بالصحة ، ويعطيه من نفسه أكرم النسبة ، وتتفق العقلاء على الأخذ به ، والحكم بموجبه فى كل جيل وأمة ، ويوجد له أصل فى كل لسان ولغة ؛ وليس للشعر فيه إلا ما يلبسه من اللفظ ، ويكسوه من العبارة ، وكيفية التأدية — من مثل قوله : (وكل امرئ يولى الجميل محبب) ، فإن أصله ما ورى عن النبى (ص) « جبلت القلوب على حب من أحسن إليها » ، بل قول الله عز وجل (ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) . (ص ٢٢٨ — ٢٣١) .

وأما القسم التخييلى فهو ما يحاول الشاعر فيه أن يثبت أمراً غير ثابت أصلا ، ويدعى دعوى لا طريق إلى تحصيلها ، ويقول قولا يخدع فيه نفسه ،

ويريها ما لا ترى . وهو مفتنُّ المذاهب كثير المسالك ، لا يكاد يحصر إلا تقريباً ، ثم إنه يجىء طبقات وعلى درجات ؛ فمنه ما يجىء مصنوعاً قد تلطف فيه واستعين عليه بالرفق والحذق ، حتى أعطى شبهاً من الحق ، باحتجاج يُخَيَّل ، وقياس يصنع فيه ويعمل : ومثاله قول أبى تمام .

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى　　فالسيل حرب للمكان العالى

« فهذا قد خيّل إلى السامع أن الكريم إذا كان موصوفاً بالعلو والرفعة فى قدره ، وكان الغنى كالغيث فى حاجة الخلق إليه ، وعظم نفعه ، وجب بالقياس أن ينزل عن الكريم ، نزول ذلك السيل عن الطود العظيم ، ومعلوم أنه قياس تخييل وإيهام ، لا تحصيل وإحكام » (ص ٢٣١) .

ومن ذلك صنيعهم إذا أرادوا تفضيل شىء أو نقصه ، ومدحه أو ذمه ، فتعلقوا ببعض ما يشاركه فى أوصاف ليست هى سبب الفضيلة والنقيصة ، وظواهر أمور لا تصحح ما قصدوه من التهجين والتزيين على الحقيقة ، كقول البحترى فى الشيب والشباب :

وبياض البازى أصدق حسنا　　إن تأملت من سواد الغراب

وعلى هذا يجرى الشعر والخطابة ، إذ لا يطالب الشاعر بتصحيح كون ما جعله أصلا وعلة كما ادعاه ، فيما يبرم أو ينقض من قضية . فالشعر — إذن — يكفى فيه التخييل ، والذهاب بالنفس إلى ما ترتاح إليه من التعليل . وإلى هذا قصد البحترى فى قوله : (والشعر يكفى عن صدقه كذبه) .

ولهذا المنحى التخييلى أنصار يذهبون إلى أن الصنعة إنما يمد باعها ويتسع ميدانها حيث يعتمد الاتساع والتخييل ، وادعاء الحقيقة فيما أصله التقريب والتمثيل .

وواضح من تتبع هذا النوع فى الشعر العربى أن باب التشبيهات قد حظى منه بضرب من السحر لا تأتى الصفة على غرابته ، ولا يبلغ البيان كنه ما ناله

من اللطف والظرف ، فإنه قد بلغ حداً يبز المعروف فى طباع الغزل ، ويلهى الثكلان ، وينفث فى عقد الوحشة ، وينشد ما ضلّ عنك من المسرة ، ويشهد للشعر بما يصل لسانه فى الفخر ، وقد اتفق للمتأخرين من المحدثين — من أمثال « ابن نباتة » — نكت ولطف لا يستكثر لها الكثير من الثناء .

ويلحق بهذا الميدان باب آخر وهو أن يكون المعنى من المعانى — والفعل من الأفعال — علة مشهورة من طريق العادات والطباع ، ثم يجىء الشاعر فيمنع أن يكون لتلك العلة المعروفة ، ويضع له علة أخرى — مثل قول المتنبى :

ما به قتل أعاديه ولكن ‏ ‏ ‏ يتقى إخلاف ما ترجو الذئاب

(ط) هذا البحث فى المعانى وأقسامها جزء من البحث العام الذى قصد إليه عبد القاهر فى « الأسرار » ، ومظهر من مظاهر تفكيره السيكولوجى ؛ فهو من ناحية متصل بموضوع التشبيهات التى يعتبرها المؤلف ركناً من أركان الخَلْق الأدبى ؛ ومن ناحية أخرى متصل بموضوع المفاضلة بين الأدباء والحكم عليهم من حيث الابتكار أو التقليد .

وعلى أساس هذا البحث يعالج الموضوع الذى لهج به نقاد العرب من قبله ، وهو موضوع الأخذ والسرقة ، فيقول : إن الشاعرين إذا اتفقا ، لم يخل ذلك من أن يكون فى الغرض على الجملة ؛ أو فى وجه الدلالة على الغرض . فأما الاتفاق فى عموم الغرض (كوصف الممدوح بالشجاعة ، أو وصف فرسه بالسرعة) فما لا يكون الاشتراك فيه داخلا فى الأخذ والسرقة . وأما الاتفاق فى وجه الدلالة فيجب أن يُنظر : فإن كان مما اشترك الناس فى معرفته ، وكان مستقراً فى العقول والعادات (كالتشبيه بالأسد فى الشجاعة ، وبالصبح فى الظهور والجلاء) فحكم ذلك حكم العموم الذى تقدم ذكره . وإن كان مما ينتهى إليه المتكلم بنظر وتدبر ، وكان من دونه حجاب يحتاج إلى خرقه بالنظر ،

أو كان دراً فى قعر بحر لا بدُّ له من تكلف الغوص عليه ، وكامنا كالنار فى الزند لا يظهر حتى يقتدحه ، ومشابكا لغيره كعروق الذهب التى لا تبدى صفحتها بالهوينى ، بل تنال بالحفر عنها — إذا كان هـذا شأنه ، فهو الذى يجوز أن يُدّعى فيه الاختصاص والسبق ، وأن يجعل فيه سلف وخلف ، وأن يقضى بين القائلين فيه بالتفاضل والتباين ، وأن أحدهما فيه أكمل من الآخر .

على أن المشترك العامى الذى لا يدخله التفاضل إنما يكون كذلك منه ما كان صريحاً ظاهراً لم تلحقه صنعة ، وساذجا لم يعمل فيه نقش . فأما إذا ركب عليه معنى ، ووصل به لطيفة ، ودخل إليه من باب الكناية والتعريض والرمز والتلويح ، فقد صار — بما غُيِّر من طريقته ، واستؤنف من صورته — داخلا فى قبيل الخاص الذى يملك بالفكرة والتعمل . وذلك كقول الشاعر .

سلبن ظباء ذى نفر طُلاها ونجل الأعين البقر الصوارا

(أى سلبن الظباء أعناقها ، والبقر أعينها النجل) فهذا فى أصله ومغزاه تشبيه ، ولكن كنى لك عنه وخودعت فيه ، وأتيت به من طريق الخلابة فى مسلك السحر ومذهب التخييل ، فصار لذلك غريب الشكل بديع الفن لا يدين لكل أحد . فالاحتفال والصنعة فى التصويرات التى تروق السامعين وتروعهم ، والتخيلات التى تهز الممدوحين وتحركهم ، شبيه بما يقع فى نفس الناظر إلى التصاوير التى يشكلها الحذاق بالتخطيط والنقش ، أو بالنحت والنقر ؛ فكما أن تلك تعجب وتخلب ، وتدخل النفس من مشاهدتها حالة غريبة لم تكن قبل رؤيتها ، ويغشاها ضرب من الفتنة لا ينكر مكانه — كذلك حكم الشعر فيما يصنعه من الصور ، ويشكله من البدع ، ويوقعه فى النفوس من المعانى التى يُتوهم بها الجامد الصامت فى صورة الحى الناطق ، والمواتُ الأخرص فى قضية

الفصيح المعرب ، والمعدومُ المفقود فى حكم الموجود الشاهد . والشعر يستطيع كذلك أن يغض من شرف الرفيع ، وأن يصنع من المادة الخسيسة بدعا يغلو فى القيمة ويعلو . وما ذاك إلا بحسن الانتزاع ، ولطف القريحة الصناع (ص ٢٢٨ — ٢٩٨) .

٣

(ا) حرصت فى القسم الماضى أن ألخص الفكرة الرئيسية فى « الأسرار » من نفس عبارات المؤلف ، وأن أعرضها فى صورتها التى عرضها بها فى القرن الخامس الهجرى ، ليتضح للمعاصرين مقدار القرب بين عبد القاهر والفكر الحديث ، ومقدار الابتكار والتركيز فى تفكيره وتعبيره ، ثم مبلغ حرصه على مقتضيات المنهج العلمى — قدر ما وصل إليه العلم فى عهده — فى عرض نظريته . ولعلنا — إذن — لا نعدو الإنصاف إذا قلنا إن عبد القاهر يستحق مكاناً بين الخالدين من علماء الدراسات النقدية ، لا لسعة أفقه ووفرة معارفه ودقة تحليله فحسب ، ولكن لنجاحه فى التوفيق بين ما يتطلبه الذوق الأدبى ، ومناهج التفكير الموضوعى المنظم .

والفكرة الرئيسية التى تبرز فى كتاب «أسرار البلاغة» لعبدالقاهر ، والتى يصح أن نعتبرها نظريته فى الأدب هى : « أن مقياس الجودة الأدبية تأثير الصور البيانية فى نفس متذوقها » . والفكرة فى ذاتها فكرة إنسانية قديمة ؛ فقد تنبه الناس منذ العصور البعيدة إلى أن الأدب نوع من الإبانة ، وآلة للتواصل الفكرى ، وأن نجاحه يكون على قدر نفاذه إلى عقول سامعيه وقلوبهم . إذن ليس من العجيب أن نظفر بإشارات هنا وهناك — فى كتب المؤلفين

السابقين[1] من عرب وغير عرب — إلى فكرة التأثير الأدبى . ومعظم النظريات الخالدة فى العلم لا تعدم أن تجد لها سوابق فى إشارات المتقدمين وكتاباتهم . ولكن الفكرة التى تستحق اسم نظرية هى ما كان لصاحبها فضل عرضها وتحقيقها وتعليلها واستقراء أمثلتها وإزالة ما يعرض لها من شبهات ، ومحاولة تطبيقها فى ميدان الدراسة الخاصة .

وهذا هو ما قام به عبد القاهر فى فكرة التأثير الأدبى ؛ فقد عرضها — أولا — فرضاً — كدأب العلماء فى عرض نظرياتهم ، ثم رسم الخطة لتحقيقها ، فناقشها فى الجناس والحشو والطباق وما إليها ، ثم فصل القول فيها تفصيلا بارعا فى أبواب التشبيه والتمثيل والاستعارة ؛ وكلما قطع مرحلة وقف ليحقق مثلا أو يزيل شبهة أو يجيب على اعتراض . وهو لا يكتفى بشرح الظاهرة وتطبيقها ، ولكنه يحاول أن يتلمس لها العلل والأسباب ، كما فعل فى أسرار

---

(١) من الأمثلة على ذلك ما يقوله الجاحظ (المتوفى سنة ٢٠٥ هـ) فى كتابه « البيان والتبيين » ج ١ — ص ٨٣ طبعة السندوبى : « فإذا كان المعنى شريفا واللفظ بليغا ، وكان صحيح الطبع ، بعيدا من الاستكراه ومنزها عن الاختلال ، مصونا عن التكلف ، صنع فى القلب صنع الغيث فى التربة الكريمة » .

ومن الأمثلة التطبيقية على ذلك طريقة القاضى الجرجانى (المتوفى سنة ٣٩٢ هـ) ، فقد كان دأبه فى كتابته — حين يعرض الشعر السمح الرائع — أن يطالب قارئه بأن يتأمل كيف يجد نفسه عند إنشاده ، ويتفقد ما يتداخله من الارتياح ، ويستخفه من الطرب إذا سمعه ، وأن يتذكر ما كان له من صبوات يثيرها هذا الشعر ويصورها تلقاء ناظره . (راجع كتابه « الوساطة بين المتنبى وخصومه » طبعة العرفان . ص ٢٩) .

أما الأمثلة من التفكير النقدى الأوربى فسنكتفى منها هنا بالاشارة الى أرسطو (٣٧٤ — ٣٢٢ ق . م) ولنجينوس (القرن الثالث الميلادى) . فقد عالج أرسطو طبيعة التراجيديا (والكوميديا) على أساس ماتثير كل منهما فى نفوس الجمهور من أحوال وانفعالات . وقد فرق لنجينوس بين الحق والباطل من الأساليب الرائعة على أساس أن الأول يحدث تأثيره على القراء الأذكياء المجربين — فى مختلف الظروف ، لامرة واحدة ولكن مرارا ، « فان نفوسنا بطبيعتها تهتز للرائع الحق ، وتفيض بالغبطة والابتهاج ، كأنها هى التى أبدعت ماتسمع » .

جودة التمثيل . وهو لا يترك فرصة من الفرص إلا انتهزها للحض على المعرفة المنظمة والوصول إلى العلل الأولى للأشياء ، والخروج من ربقة التقليد الفكرى الذى كان قد غلّ أذهان الناس فى عصره[1] .

(ب) وهذه النظرية التأثيرية فى جودة الأدب جزء من تفكير سيكلوجى أعمّ ، يطبع كتاب « الأسرار » كله بطابعه ؛ فالمؤلف لا يفتأ يدعوك بين لحظة وأخرى إلى تجربة الطريقة النفسانية التى يسميها المحدثون « الفحص الباطنى » (introspection) : وذلك أن تقرأ الشعر وتراقب نفسك عند قراءته وبعدها ، وتتأمل ما يعروك من الهزة والارتياح والطرب والاستحسان ، وتحاول أن تفكر فى مصادر هذا الإحساس . « فإذا رأيتك قد ارتحت واهتززت واستحسنت ، فانظر إلى حركات الأريحية ممّ كانت ، وعند ماذا ظهرت » .

ثم يخوض بك فى سيكلوجية الإلف والغرابة ، والعيان والمشاهدة ، والخلاف والوفاق ، والسهولة والتعقيد ، وأثر كل منها على النفس ؛ ويتعرض لشرح الإدراك ، وقيامه أولا على المعلومات التى ترد من طريق الحس ، ثم ازدياد ثروته بعد ذلك من طريق الروية والتأمل ؛ ويميز لك بين إدراك الشىء جملة وإدراكه تفصيلا ، فيحدثك هنا حديثا يُذكرك النظرية الحديثة التى يسميها علماء النفس نظرية «الجشتالت» (Gestalt) أو « الهيكل العام » ، والتى تقوم

---

(١) يقول عبد القاهر (فى الدلائل ص ٣٥٠) : « لم تر العقلاء قد رضوا من أنفسهم فى شىء من العلوم أن يحفظوا كلاما للأولين ويتدارسوه ويكلم به بعضهم بعضاً من غير أن يعرفوا له معنى : ويقفوا منه على غرض صحيح ، ويكون عندهم — إن يسئلوا عنه — بيان له وتفسير ، إلا علم الفصاحة ، فإنك ترى طبقات من الناس يتداولون فيما بينهم ألفاظاً للقدماء وعبارات من غير أن يعرفوا لها معنى أصلا ، أو يستطيعوا — إن يسئلوا عنها — أن يذكروا لها تفسيراً يصح » .

فى أساسها على اعتبار أن الإدراك ليس مجموعةَ حسوس جزئيـة تتضامّ فتؤلف الشىء المدرَك فى ذهنك ، ولـكن الفكر ينفذ فى اللمحة الأولى — بنوع من البصيرة — إلى هيكل الشىء جملة ، ثم يتبين بعدُ تفاصيله ودقائق أجزائه ، وما بينها من صلات ؛ ولهذه النظرية شأن كبير فى الدراسات الإنسانية الحاضرة .

ومن العناصر الإنسانية البارزة فى نظرية المؤلف حرصه على مكانة الذوق والطبع والحس الفنى فى المتعة الأدبيـة : فهو يقول لك — فى الـكلام على الاستعارة والتخييل — : « وهذا موضع فى غاية اللطف ، لا يبين إلا إذا كان المتصفح للـكلام حساساً يعرف وحى طبع الشعر ، وخفىّ حركته التى هى كالهمْس ، وكسرى النَّفَس فى النفْس » (أسرار ٢٦٦) : ويقول لك — فى التفرقة بين الحقيقة والمجاز : « وأنت إذا نظرت إلى الشـعر من جهته الخاصة ، وذقته بالحاسة المهيأة لمعرفة طعمه ، لم تشك فى أن الأمر على ما أشرتُ لك إليه » (٣٠٧) . وتتكرر الإشارة إلى هـذا فى « الدلائل » ، فيقول — فى حسن الاستعارة والتشبيه — « وهذا موضع لا يتبين سره إلا من كان ملتهب الطبع حاد القريحة » (دلائل ٣٤٦) ؛ ويقول — فى تعليل ما يصادف مع خصومه فى نظريته من عناء — « لأن المزايا التى تحتاج أن تعلمهم مكانها ، وتصور لهم شأنها ، أمور خفية ومعان روحية ، أنت لا تستطيع أن تنبه السامع لها ، وتحدث له علماً بها ، حتى يكون مهيأ لإدراكها ، وتكون فيه طبيعة قابلة لها ؛ ويكون له ذوق وقريحة ، يجد لها فى نفسه إحساساً بأن من شأن هذه الوجوه والفروق أن تعرض فيها المزية على الجملة » (دلائل ٤٢٠) . ثم يقول : « فـكيف بأن ترد الناس عن رأيهم فى هذا الشأن ! وأصلك الذى تردهم إليه ، وتعول فى محاجتهم عليه ، استشهاد القرائح ، وسبر النفوس وفَليها ، وما يعرض فيها من الأريحية عند ما تسمع ؟ » (دلائل ٤٢٣) .

ويتصل بهذا ما يلجأ إليه مراراً من إحالة قارئه إلى المركوز فى الطباع ، والراسخ فى غرائز العقول ، والخواص التى قد فطر الإنسان على أن يرتاح لها ، ويجد فى نفسه هزة عندها . وله أحياناً استطرادات طريفة يناقش فيها خصائص السلوك مناقشة تقرب مما يتحدث فيـه علماء النفس تحت اسم سيكاوجية كذا وكذا من الأشخاص والظواهر ، فتراه مثلا — عند ما يبحث تنزيل الوجود منزلة المعدوم لتعرّى الوجود مما هو المقصود منه — يتناول قول النـاس فى البخيل الذى لا ينتفع بماله : « إن غناه فقر » ، فيذكر أن المال لا يراد لذاته ، وإنما يراد للانتفاع به فى الوجوه التى تعدها الفضلاء انتفاعا ، فإذا حُرم مالـكه هذه الجدوى فملـكه له وعدم الملك سواء ؛ والغِنى إذا صُرف إلى المـال فلا معنى له سوى ملك الإنسان الشىء الـكثير منه ، فإذا تبين بالعلة التى مضت أنه لا يستفيد بملـكه هذا المال معنى ، وأن لا طائل له فيه ، فقد ثبت أن غناه والفقر سواء . وأما قول اللؤماء : إن انتفاعه فى اعتقاده أنه متى شاء انتفع به ، وما يجد فى نفسه من عزة الاستظهار ، وأنه يهاب ويكرم من أجله ، فمن أضاليل المنى ، وقد يهان ويذل ويعذب بسببه حتى تنزع الروح دونه . . . ونظير هـذا أنك ترى الظالم المجترىء على الأفعال القبيحة يدعى لنفسه الفضيلة بأنه مديد الباع طويل اليد ، وأنه قادر على أن يلجىء غيره إلى التطامن له ، ثم لا يزيده احتجاجه إلا خزياً وذلا عند الله والناس ... (أسرار ٦٤ — ٦٨) .

ويشرح قول ابن المعتز :

كأنا وضوء الصبح يستعجل الدُّجى ... نُطير غرابا ذا قوادم جونِ

فيقرر ما فيه من تشبيه : « وتمام التدقيق والسحر فى هذا التشبيه فى شىء آخر ، وهو أن جعل ضوء الصبح لقوة ظهوره ، ودفعه لظلام الليل ، كأنه يحفز الدُّجى ويستعجلها ، ولا يرضى منها بأن تتمهل فى حركتها ؛ ثم لما بدأ ذلك أولا

اعتبره فى التشبيه آخرا فقال : (نطير غرابا) ، ولم يقل غراب يطير — مثلا — وذلك أن الغراب وكل طائر إذا كان واقفاً هادئاً فى مكان فأزعج وأخيف وأطير منه ، أو كان قد حُبس فى يد أو قفص فأُرسل — كان ذلك لا محالة أسرع لطيرانه وأعجل . . وأبعد لأمده ، فإن تلك الفزعة التى تعرض له من تنفيره ، أو الفرحة التى تدركه وتحدث فيه من خلاصه وانفلاته ، مما دعته إلى أن يستمر حتى يغيب عن الأفق ، ويصير إلى حيث لا تراه العيون ، وليس كذلك إذا طار عن اختيار ... » : (أسرار ١٥٥) .

(ح) ولعلنا هنا قد أثبتنا ما قصدنا إليه فى هذا البحث من أن عبد القاهر صاحب نظرية فى النقد الأدبى ، يستحق بها أن يأخذ مكانه فى تاريخ هذه الدراسات ورجالها المحققين ؛ وأن هذه النظرية ذات طابع سيكولوجى وذوق واضح ، وأنها بهذا الطابع — وبين صاحبها والعصر الحاضر تسعة قرون — تمتُّ بكبير صلة إلى اتجاه من أهم الاتجاهات المعاصرة[١] فى دراسة النقد ، يقوم على العناية بالعناصر الأصيلة فى الفن ، وبنواحى تأثيره فى النفوس . وإذن فلنا أن نقول إن هذه النظرية كانت خطوة فى الطريق الصحيح ، وإنها جديرة بالالتفات والنقد من دارسى البيان العربى الحديث ، وإنها تصلح أن تكون أساساً لنظرية حديثة فى النقد العربى أوسع وأدق ، تسير فى المنهج التجريبى التحليلى — والذوق العلمى — الذى ابتدأه عبد القاهر ، وتنهض بما لم يفطن

---

(١) نبهنا إلى هذه الصلة فى بحث سابق درسنا فيه هذا الاتجاه . وأوردنا بعض أمثلة من سبق عبد القاهر إليه ، ثم قلنا : « هذه أمثلة مختصرة من الاتجاه العام لعبد القاهر فى أسرار البلاغة ، ولنا إليه عودة فى بحث خاص ، وهو عندنا أقرب العقليات الإسلامية القديمة فى دراسات الأدب إلى العقليات العلمية الحديثة ، وله التفاتات فنية سيكولوجية سبق بها التفكير الحديث » . (راجع « بعض التيارات الفكرية التى أثرت فى دراسات الأدب » — بحث نشر بمجلة كلية الآداب بجامعة فاروق الأول — المجلد الأول — مايو سنة ١٩٤٣ ص ٩٩) .

إليه من نواحي النظرية الأدبيـة[١] ، وتبين ما أجمله من مسالك الأدب إلى النفوس ، وتعالج ما أشار إليه من ضروب الصور الذهنية التي تثيرها فنون البيان ، منتفعة في ذلك بنتائج الدراسات الأدبية الحديثة ، وبما وصلت إليه الفروع الإنسانية المختلفة التي تمتّ إلى الأدب والفن بأوثق الصلات .

٤

بقيت لدينا ناحيتان لابد من درسهما في هذا البحث : أولاهما تحديد مكان عبد القاهر وكتابه « أسرار البلاغة » من تطور النقد العربي ؛ والثانية تتبع التيارات الدراسية التي يُظن أو يرجّح أنها أثرت في تفكير عبد القاهر .

إذن لابد لنا من أن نلقي نظرة تاريخية عاجلة على النقد العربي في عصوره الأولى التي سبقت القرن الخامس الهجري ، وعلى المراحل التي تدرج فيها التأليف في ذلك النقد حتى ظهر ناضجا متعمقا على يد عبد القاهر ، وعلى الثقافات المتنوعة التي ظهرت آثارها في منازع مؤلفي النقد العربي — ولا سيما في القرنين الثالث والرابع الهجريين .

---

(١) من النواحي التي يعنى بها التفكير الحديث ، والتي لا بد من اعتبارها في « نظرية الأدب » (Theory of Literature) درس الصلة بين الإنتاج الأدبي وشخصية صاحبه ؛ والانتفاع بدراسات العقل الواعي والعقل الباطن في فهم تنوع ذلك الإنتاج وكشف مصادره ؛ والتنبه إلى اختلاف منازع الأدباء بين خارجي وباطني (extravert و introvert) . ومنها كذلك تفصيل نواحي التأثير الأدبي بين إدراكي (cognitive) وانفعالي (emotional) وذوقي (aesthetical) ، وتقرير المدى الفني الذي ينبغي أن يتجه إليه كل نوع من هذه الأنواع . ومنها كذلك دراسات أنواع الصور الذهنية من حركية وسمعية وبصرية ، والتنبه إلى آثار غلبة نوع منها في إنتاج الشاعر ، أو في نقد الناقد . ومنها دراسات الأصوات والألفاظ ، وما يكون لها منفردة ومجتمعة من تأثير وإيحاء ، وما يكون بينها وبين معانيها من تناسب وتوافق .

هذه وغيرها نواح لم يطرقها عبد القاهر — أو طرق بعضها لماماً — وليس يصح في طبيعة الأشياء أن ننتظر منه ومن سابقيه أو معاصريه معالجة علمية شافية لها ، فتلك مسائل كشف عن أهميتها تقدم العلم ، وتعاون الدراسات المختلفة في العصر الحديث .

ولقد كان مما يعين على هذه المهمة أن توجد لدينا مراجع تجمع متون النقد العربى ، أو تدرس تطوره فى عصوره المتعاقبة ، على نسق ما عمله سانتسبرى (G. S. Saintsbury) — مثلا — فى كتابيه (Loci Critici) و History of Criticism and Literary Taste in Europe) . ولكن هذه الناحية فى الدراسات العربية لا تزال تنتظر جهداً وتحقيقاً .

غير أن بين أيدينا دراسات لبعض المحدثين متنوعة المنازع سنستعين بها على إظهار المعالم البارزة فى النقد العربى قبل عصر عبد القاهر ، مشيرين إليها فى مواضعها .

(ا) ليس هناك من شك فى أن النقد الأدبى وُجد فى الجاهلية العربية(١) هينا يسيرا ملائما لروح العصر وللشعر العربى نفسه ، قائما كالشعر على الانفعال والتأثر ، ولم تكن له بطبيعة الحال أسس أو أصول مقررة . حتى إذا جاء القرن الأول الهجرى اتسع أفق النقد ، وتنوعت رجاله وجنح إلى شىء من الدقة ، وحاول أن يحدد بعض خصائص الصياغة والمعانى ، وتأثر شيئا ما بروح البناء والتأسيس التى سادت فيما كان يجدّ أمام المسلمين من شئون التشريع . وما كاد القرن الأول ينتهى حتى ارتقى النقد ارتقاء محمودا ، وكثرت بيئاته فى البادية والحواضر الإسلامية ، وتعمق الناس فهم الأدب ، ووازنوا بين شعر وشعر ، وبين شاعر وآخر ، وتعرفوا المذاهب الأدبية ، وظهرت أول إشارة فى تاريخ النقد العربى إلى أن الشعراء طبقات .

---

(١) حاول (المرحوم) طه أحمد ابراهيم — فى محاضرات ألقاها بكلية الآداب بالقاهرة — أن يتتبع تطور النقد العربى منذ جاهليته — وقد وصل فى محاولته إلى القرن الرابع الهجرى — حيث الآمدى والقاضى الجرجانى — وقد طبعت هذه المحاضرات — بعد وفاته — تحت عنوان « تاريخ النقد الأدبى عند العرب من العصر الجاهلى إلى القرن الرابع الهجرى » . مطبعة لجنة التأليف سنة ١٩٣٧ .

(ب) ولكن الحياة الإسلامية الجديدة خلقت فى التفكير العربى فى القرن الثانى طائفتين كان لهما شأنهما فى النقد : هما اللغويون والنحويون من أمثال أبى عمرو بن العلاء ، ويونس بن حبيب ، والأصمعى ، وأبى عبيدة ، والمفضل الضبى ، وقد سلك هؤلاء لوناً جديداً من النقد تشعبت بحوثه وتنوعت ، وعُرِفت له مقاييس وأصول . وفى هذا العهد بدأ التأليف فى ألوان من الدراسات النقدية ، فظهر كتاب « طبقات الشعراء » لمحمد بن سلام الجمحى ، (الذى عاش فى أواخر القرن الثانى وأوائل الثالث — مات سنة ٢٣١ هـ) ، والذى طرق فكرة الشعر الموضوع ، وبرهن على وجود الوضع بأدلة عقلية ونقلية ، ثم خلص إلى فكرته الرئيسية فى الكتاب ، وهى الحديث عن الشعراء ، وتقسيمهم إلى طبقات ، متناولا فى ثنايا ذلك بعض الظواهر الأدبية وتعليلها من مثل أثر البيئة فى لين اللسان أو غلظه ، وفى رقة الشعر أو خشونته ، ومن مثل قلة الإنتاج الشعرى فى بعض البيئات وكثرته فى بعضها الآخر .

(حـ) أما القرن الثالث فقد كان خصبا حقا بالرجال والأفكار ، فقد انضمت فيه إلى الجداول العربية الأصيلة من التفكير جداول أخرى من المعارف الأجنبية كان لها أثرها فى تشعب نواحى النقد . وفى اختلاف الأمزجة وتنوع ذهنيات المؤلفين ، فمن لغويين ، إلى أدباء ، إلى علماء أخذوا نصيبا يسيرا من المعارف الأجنبية ، إلى آخرين تأثروا كل التأثر بما نقل عن اليونان . ومن أهم الكتب التى تصور هذه الاتجاهات كتاب « الكامل » للمبرد و « رسالة البديع » لابن المعتز ، و « الشعر والشعراء » لابن قتيبة ، و « البيان والتبيين » للجاحظ ، و « نقد الشعر » و « نقد النثر » لقدامة . فإنك إذا طالعت — مثلا — كتاب الكامل لمحمد بن يزيد المبرد الأزدى (٢١٠ — ٢٨٥ هـ) — وجدت نفسك أمام طائفة كبيرة من النصوص العربية المأثورة ، التى كانت تعجب الذوق العربى الخالص

فى تلك العصور ، ووجدت المؤلف — الأديب اللغوى النحوى — يعالج هذه النصوص على طريقته العربية ، فيشير إلى ما فيها من « اختصار مفهم ، أو إطناب مفخم ، أو لمحة دالة » ؛ ويأتى بالأمثلة الكثيرة على « ألفاظ العرب البينة القريبة المفهمة الحسنة الوصف ، الجميلة الرصف » . وعلى « ما يُفَضَّل لتخلصه من التكلف وسلامته من التزيد وبعده من الاستعانة ؛ ثم يسوق الأمثلة على « ما يستحسن لفظه ويستغرب معناه ويحمد اختصاره » ، وعلى ما يستحسن إنشاده من الشعر « لصحة معناه ، وجزالة لفظه ، وكثرة تردد ضربه من المعانى بين الناس » ؛ ويعقد المؤلف باباً طويلا[1] يذكر فيه « بعض ما مر للعرب من التشبيه المصيب ، والمحدثين بعدهم » ، ويعلق على الأمثلة على طريقته الخاصة ، محاولا فى ثنايا ذلك أن يلم إلماما مختصرا ببعض النواحى النظرية من التشبيه ، فيقول مثلا : « واعلم أن للتشبيه حدا ، فالأشياء تشابه من وجوه ، وتبايَن من وجوه ، فإنما ينظر إلى التشبيه من حيث وقع ، فإذا شبه الوجه بالشمس فإنما يراد الضياء والرونق ، ولا يراد العظم والإحراق » ... (ص ٤٧ الكامل ج ٢٠) ؛ ويقول « والتشبيه جار كثيرا فى كلام العرب ، حتى لو قال قائل هو أكثر كلامهم لم يُبْعد — قال الله عز وجل — وله المثل الأعلى — (الزجاجة كأنها كوكب درى) وقال (طلعها كأنه رؤوس الشياطين) .. (الكامل ص ٦٩ ج ٢٠) ،

ويقول : « والعرب تشبه على أربعة أضرب : فتشبيه مفرط ، وتشبيه مصيب ، وتشبيه مقارب ، وتشبيه بعيد يحتاج إلى التفسير ولا يقوم بنفسه ، وهو أخشن الكلام ... ومن التشبيه القاصد الصحيح قول النابغة :

وعيد أبى قابوس فى غير كنهه   أتانى ودونى راكس فالضواجع

---

(١) باب ٤٧ من الجزء الثانى من كتاب الكامل لأبى العباس المبرد — طبعة المكتبة التجارية سنة ١٣٥٥ هـ .

فبت كأنى ساورتنى ضئيـــلة من الرقش فى أنيابهـا السم ناقع
يسهـــد من نوم العشاء سليمها لحلى النســـاء فى يديه قعاقع
تناذرها الراقون من ســوء سمّها تطلّقه طوراً وطوراً تراجـــع

فهذه صفة الخائف المهموم ... » (الـكامل ٨٧ — ٨٩ — ج ٢)

هذا — إذن — لون من ألوان معالجة النصوص العربية ونقدها فى المرحلة الأولى من مراحل التأليف[١] . فإذا ما انتقلنا إلى ابن قتيبة (٢١٣ — ٢٧٦هـ) فى كتابه « الشعر والشعراء » وجدنا عالما من طراز آخر يقول عن كتابه : « هذا الـكتاب ألفته فى الشعر ، أخبرت فيه عن الشعراء ، وأزمانهم ، وأقدارهم ، وأحوالهم فى أشعارهم وقبائلهم وأسماء آبائهم ... وعما يستحسن من أخبار الرجل ويستجاد من شعره ، وما أخـذته العلماء عليهم من الغلط والخطأ فى ألفاظهم ، وما سبق إليه المتقدمون فأخذه عنهم المتأخرون ، وأخبرت فيه عن أقسام الشعر وطبقاته ، وعن الوجوه التى يختار الشعر عليها ويستحسن لها . . . » ، وقد تدبر الشعر فوجده أربعة أضرب — حسب الحسن والجودة فى لفظه ومعناه ، ومثّل لـكل ضرب من هذه ؛ وقسّم الشعراء على حسب ما فيهم من تكلف أو طبع ؛ وبيّن أن للشعر دواعى تحث البطىء وتبعث المتكلف ، منها الشرب ، ومنهـا الطرب ، ومنها الطمع ، ومنها الغضب ، ومنها الشوق . وللشعر أوقات يبعد فيها قريبه ، ويستصعب فيها ريّضه ، ولا تعرف لذلك علة إلا من عارض يعرض على الغريزة[٢] ، وللشعر كذلك أوقات يسرع فيها أتيّه ، ويسمح فيها أبيّه .

---

(١) يقول أحمد أمين فى كلامه عن الـكامل « خير كتاب وصل إلينا من تراث ذلك العصر ، يمثل شيئين هامين ، يمثل الثقافة العربية فى عناصرها المختلفة ، ويمثل طريقة تعليم المعلمين فى ذلك العصر لتلك الثقافة ، ومنهج التأليف فيها » . (ص ٣٣١ — ٣٣٢ . ضحى الإسلام . ج ١ . ط ٣) .

(٢) لاحظ تنبه ابن قتيبة لبعض النواحى السيكلوجية فى الشعر كتوقفه على دواعٍ نفسية خاصة ، وتأثره بما يعرض على الغريزة ، فيجعلها مسمحة فياضة ، أو عصية متكلفة .

وبعد أن يفرغ ابن قتيبة من مقدمته هذه يأخذ فى غرضه الرئيسى وهو الكلام عن الشعراء وترجمة حيواتهم .

وأما الجاحظ (١٦٠ ؟ — ٢٥٥ هـ) فلعله أهم شخصية من شخصيات القرن الثالث الهجرى تعنينا فى بحثنا الحاضر ، ذلك لأنه — إلى جوانبه الأخرى — قد استطاع أن يتصور موضوع البيان العربى فى صورة دراسة واسعة تعالج على شىء من الأسس النظرية ، وتحشد لها النصوص ، ويستعان عليها بنتف من آراء الأمم الأخرى فى الموضوع . وأنت على الرغم من طريقة الجاحظ الاستطرادية ، وعلى الرغم من أنه لم يبن دراسته على نظرية بعينها يناقشها ويطبقها ، فإنك تتبين فى كتابه « البيان والتبيين » تنبها إلى النواحى العامة التى لابد من اعتبارها فى دراسة البيان — لا سيما ما اتصل منه بالجماهير كالخطابة والجدل والمحاجة بين أرباب النحل — وقد بحث الجاحظ فيما بحث طبيعة اللغة ، وعلاقة الألفاظ والمعانى ، وصفات الكلام المبين ، وما يعرض له من وضوح وغيره ، ومن إيجاز وإطناب ؛ وفصل القول فى مخارج الحروف وصحتها وسلامتها من العيوب ، وصوّر الهيئة التى يجب أن يكون عليها الخطيب فى مظهره وإشاراته وطرق تعبيره . إذن « فالعرب لم يخطئوا حين عدوا الجاحظ مؤسس البيان العربى ؛ وليس ذلك لأنه وصل بجهده الخاص إلى قاعدة بيانية بعينها ، فشخصيته القوية تكاد تكون معدومة فى كتابه (البيان والتبيين) ، ولكن لأنه جمع فى هذا الكتاب طائفة من النصوص توضح لنا توضيحاً حسناً كيف كان العرب يتصورون البيان فى القرن الثانى والنصف الأول من القرن الثالث ، وتعطينا صورة مجملة لنشأة البيان العربى إن لم تسمح لنا بتأريخ هذه النشأة[1] » .

(١) راجع « البيان العربى من الجاحظ الى عبد القاهر » بحث وضعه بالفرنسية طه حسين ، وترجمه إلى العربية عبد الحميد العبادى ، ونشر تمهيداً لكتاب نقد النثر لقدامة . طبعة لجنة التأليف — القاهرة ١٩٤٠ — ص ٣ .

والجاحظ — وإن لم يكن بينه وبين عبد القاهر نسب فى المنزع الفكرى النقدى — وإن لم يكن عبد القاهر قد تأثر به تأثراً ظاهرا فى نظريته فى أسرار البلاغة — فإنه يجتمع وعبد القاهر فى أن كليهما نظر إلى الموضوع نظرة علمية واسعة، « وإذا كان الجاحظ هو واضع أساس البيان العربى حقا، فعبد القاهر هو الذى رفع قواعده وأحكم بناءه »[1] .

على أن هناك منزعا آخر من منازع التفكير النقدى فى القرن الثالث نلمّ به هنا إلمامة خفيفة إتماماً لتصوير هـذا القرن — على أن نعود إليه فى القسم التالى (٥) من البحث . ذلك هو المنزع الذى يتزعمه قدامة بن جعفر، والذى يتفق الباحثون على أنه أثر من آثار اتصال الثقافة العربية بالثقافة اليونانية[2] فى ذلك العصر .

ألف قدامة بن جعفر (٢٧٥ — ٣٣٧ هـ) — فيما ألّف — كتابين أحدهما فى « نقد الشعر » ، والآخر « نقد النثر » ، (على خلاف فى نسبة الثانى إليه) ؛ ذكر فى أولهما أنه لم يجد أحدا وضع فى نقد الشـعر وتخليص جيده من رديئه كتاباً، مع أن الناس يخبطون فى ذلك منذ تفقهوا فى العلوم، وقليلا ما يصيبون . لهذا عالج هو الموضوع على طريقة ظاهرة التأثر بتفكير أرسطو، فنظر إلى الشعر باعتباره صناعة ، ومن شأن الصناعات أن يكون لها طرفان أحدهما غاية الجودة والآخر غاية الرداءة ، وحدود بينهما تسمى الوسائط . والمعانى للشـعر بمنزلة المادة الموضوعه ، والشعر فيها كالصورة ، وعلى الشاعر أن يتوخى البلوغ من

---

(١) المرجع السابق ص ٣٠ .

(٢) يذهب العبادى إلى أن ما وصل إلينـا من مصنفات قدامة يدل على تأثره الشديد بالثقافات الأربع التى كانت تقوم عليها يومئذ المدنية الإسلامية : العربية ، والفارسية ، واليونانية ، والهندية .

(راجع « تحقيق فى حياة قدامة » . كتاب نقد النثر ص ٣٨) .

التجويد فى ذلك إلى الغاية المطلوبة ، وليس عليه حرج أن يناقض نفسه فى قصيدتين أو كلمتين ، بل — على العكس — ذلك ، عند قدامة ، يدل على قوة الشاعر فى صناعته واقتداره عليها . ثم راح قدامة على هذا الأساس يعالج نعت اللفظ ، ونعت الوزن ، ونعت القوافى ، ونعت أغراض الشعر من مديح وهجاء ومراث ؛ ثم نعت التشبيه والوصف ، والنسيب ، ثم نعوت المعانى الشعرية على العموم . وبعد أن أتى على كل ذلك فصّل القول فى عيوب الشعر ، على نفس النظام الذى رسمه .

أما نقد الشعر فإنه يبدؤه بالإشارة إلى نواحى النقص فى كتاب الجاحظ ، من أنه لم يوف وصف البيان ولا أتى على أقسامه فى هذا اللسان ، فراح قدامة يتكلم عن البيان ، والقياس ، والعبارة ، وما يندرج تحتها من الاستعارة والأمثال وغيرها فى طريقة تذكرنا حقا خطابة أرسطو .

(ى) وتصل حركة النقد الأدبى العربى ذروتها فى القرن الرابع الهجرى ، حيث تتسع دائرة التاريخ الأدبى ، وتصنيف الشعراء إلى طبقات ، ويزداد الاهتمام ببحث موضوع التعبير الشعرى ، ومناقشة خصائص الأسلوب القرآنى . فأما حركة التأريخ الأدبى فقد بلغت قمتها على يد أبى الفرج (المتوفى سنة ٣٥٦هـ) فى التراجم الأدبية التى جمعها فى كتابه « الأغانى » . وأما تحليل البواعث الشعرية وتبويبها فيمثل التقدم فيه كتاب « ديوان المعانى » لأبى هلال العسكرى (المتوفى سنة ٣٩٥ هـ) . وتتجلى موازنة أعمال الشعراء فى كتاب « الموازنة بين الطائيين » للآمدى (المتوفى سنة ٣٧١ هـ) ، وكتاب « الوساطة بين المتنبى وخصومه » للقاضى الجرجانى (المتوفى سنة ٣٩٢ هـ) — ويتمثل امتزاج البحوث البلاغية التى بدأها قدامة وابن المعتز — والبحوث القائمة على الذوق الأدبى فى كتاب « الصناعتين » لأبى هلال . وأهم كتاب يمثل دراسة

خصائص الأسلوب القرآني هو كتاب «إعجاز القرآن» للقاضي الباقلاني (المتوفى سنة ٤٠٣ هـ).

وبحسبنا — لبحثنا الحاضر — أن نقف وقفة قصيرة عند اثنين من هؤلاء المؤلفين: أحدهما القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني «حسنة جرجان، وفرد الزمان، ونادرة الفلك، وإنسان حدقة العلم، وفارس عسكر الشعر...»[1] وهو يهمنا من أكثر من ناحية؛ فالرواية تذهب إلى أن الشيخ عبد القاهر الجرجاني كان «قد قرأ عليه[2]، واغترف من بحره، وكان إذا ذكره في كتبه تبخبخ به وشمخ بأنفه بالانتماء إليه»[3]، وهو من جهة أخرى قد طرق في مقدمة كتابه «الوساطة» نواحي تمتُّ إلى نظرية عبد القاهر بنسب، فقد حلل الإنتاج الشعري، وبيّن العناصر اللازمة لهذا الإنتاج من طبع ورواية وذكاء ودربة، وتوسع في شرح اختلاف الطبائع وما يحدثه ذلك الاختلاف من أثر في الشعر؛ فسلاسة اللفظ تتبع سلاسة الطبع، ومن شأن البداوة أن تحدث شعراً جافا باديا، ولا أدل على ذلك من أن عديًّا — وهو جاهلي — أسلس من الفرزدق ورؤبة — وهما آهلان — لملازمة عدي الحاضرة. «وترى رقة الشعر أكثر ما تأتيك من قبل العاشق المتيم، والغزِل المتهالك، فإن اتفقت لك الدماثة والصبابة وانضاف الطبع إلى الغزل، فقد جمعت لك الرقة من أطرافها».

---

(١) ص ٣ ج ٤ «يتيمة الدهر» للثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ هـ، طبعة الصاوي.

(٢) أشار عبد القاهر أكثر من مرة في كتابيه إلى الشيخ أبي الحسن وآرائه. ولا نستطيع أن نحدد بالضبط سن عبد القاهر عند وفاة أبي الحسن، ولكننا نستطيع أن نكون فكرة ما إذا لاحظنا أن أبا الحسن توفي سنة ٣٩٢ هـ وأن عبد القاهر توفي سنة ٤٧١ أو ٤٧٤، فبين وفاتيهما حوالي ثمانين سنة. وإذن فلعل عبد القاهر كان في حوالي العاشرة من عمره حين اتصل بشيخه وقرأ عليه. على أن مسألة الاتصال الشخصي هذه تتعرض لشيء من الشك إذا أخذنا بالرواية الأخرى التي تجعل وفاة أبي الحسن سنة ٣٦٦ في نيسابور، لا سنة ٣٩٢ في الري.

(٣) ص ١٦ ج ١٤ «معجم الأدباء» لياقوت — طبعة الرفاعي.

أما التكلف فمعه المقت وللنفس عن التصنع نفرة ، وفى مفارقة الطبع قلة الحلاوة ، وربما كان ذلك سبباً لطمس المحاسن كالذى نجده كثيراً فى شعر أبى تمام ، فإنه تعسف فى اقتدائه بالأوائل ، ولم يكتف بذلك بل أضاف إليه طلب البديع ، ولم يرض بهاتين الخلتين حتى اجتلب المعانى الغامضة وقصد الأغراض الخفية ، فصار هـذا الجنس من شعره إذا قرع السمع لم يصل إلى القلب إلا بعد إتعاب الفكر ، وكد الخاطر ، والحمل على القريحة ، فإن ظفر به من بعد العناء والمشقة فتلك حال لا تهش فيها النفس للاستماع بحسنٍ ، أو الاستلذاذ بمستظرف .

هذا — إذن — لون من ألوان التفكير فى الأدب صوره أبو الحسن الجرجانى تصويراً يكاد يذكرنا المنزع السيكولوجى الحديث فى تحليل المواهب عامة ، ومواهب الأديب خاصة . على أن هناك — فى مقدمة أبى الحسن — لوناً آخر متمما لهـذا ، وهو طريقة التذوق الأدبى ، فالمؤلف يورد لك النصوص العربية المتفق على جمالها ، ثم يقول لك : « تأمل كيف تجد نفسك عند إنشاده وتفقد ما يتداخلك من الارتياح ، ويستخفك من الطرب إذا سمعته ، وتذكر صبوة إن كانت لك تراها ممثلة لضميرك ، ومصورة تلقاء ناظرك »[1] .

وهذه الطريقة أيضاً تذكرنا المنزع السيكولوجى الحديث فيما يسمونه « التأمل الباطنى » — أو الفحص الباطنى — (introspection) إذ يطالبون مستمع الشعر أو قارئه أن يتأمل نفسه عند القراءة وبعدها ، وأن يسجل ما تداخله من ضروب الهزة والارتياح . وقد لاحظنا فيما مضى من البحث كيف تطورت هذه الطريقة على يد عبد القاهر حتى أصبح يعول عليها فى كثير من المواطن الذوقية .

---

(١) راجع مقدمة كتاب « الوساطة » طبعة العرفان — ولا سيما الصفحات من ١٩ إلى ٣٣ .

وإذن — فنستطيع أن نقول هنا إن أحد التيارات التى أثرت فى التفكير السيكلوجى الذوقى عند عبد القاهر، إنما انحدر إليه من شيخه ومواطنه أبى الحسن الجرجانى[١].

أما المؤلف الثانى الذى نريد أن نقف عنده فهو أبو هلال العسكرى[٢]، ويهم بحثنا الحاضر من كتبه بصفة خاصة «كتاب الصناعتين الكتابة والشعر» فهو مرجع من مراجع النقد المهمة فى القرن الرابع الهجرى، حاول صاحبه فيه أن يسد ما لاحظه من النقص فى الكتب المصنفة فى النقد[٣]، وأن يعرض الموضوع عرضا شاملا منظما مقرونا بالشواهد والنصوص؛ فعالج موضوع البلاغة وذكر حدودها وشرح وجوهها، وعقدا بابا لتمييز الكلام جيده من رديئه، وخصص لشرح البديع — والإبانة عن وجوهه وحصر أبوابه وفنونه — باباً فى خمسة وثلاثين فصلا.

---

(١) مما ينير جانباً من جوانب البحث الحاضر تتبع الحركة الفكرية والنقدية فى أقاليم ما وراء العراق فى القرون الهجرية الثالث والرابع والخامس. فالظاهر أن لعلماء الإسلام فى تلك البقاع طابعا فكريا خاصا أشار إليه بعض المؤلفين السابقين كصاحب «صبح الأعشى». ونرجو أن نفرغ لمعالجة هذه الناحية فى بحث آخر.

(٢) الحسن بن عبد الله بن سهل .. أبو هلال اللغوى العسكرى — من خوزستان — «وكان الغالب عليه الأدب والشعر، وله فى اللغة: كتاب سماه بالتلخيص، وهو كتاب مفيد، وكتاب صناعتى النظم والنثر، وهو أيضاً كتاب مفيد جداً» .. وكتاب معانى الأدب .. وكتاب العمدة ... الخ، (راجع معجم الأدباء لياقوت طبعة الرفاعى المجلد الثامن ص ٢٥٨ — ٢٦٧).

(٣) يذكر المؤلف تخليط الأعلام فى هذا الفن وقلة الكتب المصنفة فيه، ويذكر أن أكثرها وأشهرها كتاب البيان والتبيين للجاحظ «وهو لعمرى كثير الفوائد .. لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة» والخطب الرائعة والأخبار البارعة، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء، وما نبه عليه من مقاديرهم فى البلاغة والخطابة .. إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة، وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة فى تضاعيفه .. ضالة بين الأمثلة لا توجد إلا بالتأمل الطويل. فرأيت أن أعمل كتابى هذا مشتملا على جميع ما يحتاج إليه فى صنعة الكلام نثره ونظمه .. » ص ٥ كتاب الصناعتين طبعة الآستانة.

ومن أبواب الكتاب — القريبة الصلة ببحث « أسرار البلاغة » لعبد القاهر — الباب السابع فى التشبيه (وفيه فصلان : الفصل الأول فى حد التشبيه وما يستحسن من منثور الكلام ومنظومه — والفصل الثانى فى البيان عن قبح التشبيه وعيوبه) .

عرّف المؤلف التشبيه وذكر الأوجه التى يقع عليها، ثم راح يبين أن أجود التشبيه وأبلغه ما يقع على أربعة أوجه : أحدها إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما يُحسّ، كقول الله عز وجل : (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء) ... والوجه الآخر إخراج ما لم تجر به العادة إلى ما جرت به العادة كقوله تعالى : (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ...) ؛ والوجه الثالث إخراج ما لايعرف بالبديهة إلى ما يعرف بها، كقوله تعالى : (كأنهم أعجاز نخل خاوية ...) ؛ والوجه الرابع إخراج ما لا قوة له فى الصفة على ما له قوة فيها . كقوله عز وجل : (وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام) .

ويبين المؤلف بعد هذا أن الطريقة المسلوكة فى التشبيه والنهج القاصد فى التمثيل عند القدماء والمحدثين هى تشبيه الجواد بالبحر والمطر ... والسهم الماضى بالسيف ... « والتشبيه يزيد المعنى وضوحا ويكسبه تأكيدا ، ولهذا ما أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه ، ولم يستغن أحد منهم عنه . وقد جاء عن القدماء وأهل الجاهلية من كل جيل ما يستدل به على شرفه وفضله وموقعه من البلاغة بكل لسان » ، ثم يعقب المؤلف ذلك بحوالى ثلاثة عشر مثالا من أمثلة التشبيه ينقلها عن صاحب كليلة ودمنة كقوله : الدنيا كالماء الملح كلما ازددت منه شربا ازددت عطشا ... ثم يذكر أن التشبيه فى جميع الكلام يجرى على وجوه : « منها تشبيه الشىء بالشىء صورة : مثل قول الله عز وجل (والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم) أخذه ابن الرومى فقال فى ذم الدهر :

تأتى على القمر السارى نوائبـه   حتى يُرى ناحلا فى شخص عرجون

وأين يقع هذا من لفظ القرآن ! . » الخ . ويذكر من مليح التشبيه وبديعه قول ذى الرمة :

يُصلى بها الحرباء للشمس مائلاً   على الجـذل إلا أنه لا يكبّر

إذا حوّل الظل العشىّ رأيته   حنيفاً وفى قرن الضحى يتنصر

ثم يشرح ذلك فيقول : « الحرباء دويبة كالعظاية تأتى شجرة تعرف بالتنضبة فتمسك بيديها غصنين منها وتقابل بوجهها الشمس ، فكيف ما دارت الشمس دارت معها ، فإذا غربت الشمس نزلت فرعت . والحرباء فارسية معربة وإنما هى «خربا» أى حافظ الشمس — والشمس تسمى بالفارسية خر ... » . أما القبح فى التشبيه فإنما يجىء إذا كان التشبيه على خلاف ما وصف فى أول الباب من إخراج الظاهر فيه إلى الخافى ، والمكشوف إلى المستور ، والكبير إلى الصغير ...

وأما الباب التاسع فقد شرح فيه البديع فى خمسة وثلاثين فصلا — كل فصل منها يحتوى نوعا — وفى هذه الأنواع يقول : « فهذه أنواع البديع التى ادعى من لا روية له ولا رواية عنده أن المحدثين ابتكروها ، وأن القدماء لم يعرفوها ، وذلك لما أراد أن يفخم أمر المحدثين .. وقد شرحت فى هذا الكتاب فنونه ، وأوضحت طرقه ، وزدت على ما أورده المتقدمون ستة أنواع ... وشذبت على ذلك فضل تشذيب » (٢٠٤ — ٢٠٥ الصناعتين) .

وأول هذه الأنواع الاستعارة التى هى « نقل العبارة عن موضع استعمالها فى أصل اللغة إلى غيره لغرض . وذلك الغرض إما أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه ، أو تأكيده والمبالغة فيه ، أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ ، وهذه الأوصاف موجودة فى الاستعارة المصيبة ، ولولا أن الاستعارة المصيبة تتضمن

ما لا تتضمنه الحقيقة من زيادة فائدة لكانت الحقيقة أولى منها استعمالا . . . » .
وبعد أن يشرح المؤلف بعض الأمثلة يقول : « وفضل هـذه الاستعارة وما شاكلها على الحقيقة أنها تفعل فى نفس السامع ما لا تفعـل الحقيقة » ، (ص ٢٠٦) ثم يروح يتتبع شرح هـذا المبدأ وتطبيقه على كثير من الاستعارات الواردة فى القرآن وفى كلام العرب ، وكلام النبى (ص) والصـحابة ، ونثر الأعراب ، وفصول الـكتّاب ، وأشعار الشعراء فى حوالى ثلاثين صفحة من كتابه ، حتى إذا وصل إلى قبيح الاستعارات و بعيدها مثّل له ، ووقف وقفة خاصة عند أبى تمام فأشار إلى أنه أكثر من هذا الجنس اغتراراً بمـا سبق منه فى كلام القدماء فأسرف فنُعى عليه ذلك وعيب به ، وتلك عاقبة الإسراف .
« وقد جنى أبو تمام على نفسه بالإكثار من هذه الاستعارات وأطلق لسان عايبه ، وأكد له الحجة على نفسه . واختيارات الناس مختلفة بحسب اختلاف صورهم وألوانهم . » (ص ٢٣٧ صناعتين) .

هذان نموذجان من كتاب « الصناعتين » يبينان كيف عالج العسكرى بعض نواحى النقد والبلاغة . وقد اخترناهما لصلتهما القريبـة — كما أشرنا — ببحث عبد القاهر . وظاهر مما أوردناه أن التفكير السيكولوجى فى النقد كان موجوداً عند مؤلف آخر — غير القاضى الجرجانى — فى القرن الرابع الهجرى ، بل إن هذا المؤلف نفسه (العسكرى) يبنى تصوره لفضل الاستعارة على فكرة التأثير النفسى . وهى الفكرة التى قام عليها كتاب عبد القاهر . ولـكن بين المؤلفين فرقا ظاهراً ، له دلالته ، ذلك أن العسكرى قليل التوسع فى النواحى النظرية كثير الحفـل بالشواهد والنصوص وبالموازنة بين بعضها و بعض ؛ أما عبد القاهر فعلى العكس من هذا تهمه النظرية أولا ، يتعهدها بالشرح والتقرير والاعتراض والرد ، ثم يجلب النصّ ليؤيد وجهة النظر . وهو إلى ذلك شديد

الحرص على الاستعانة بالقارىء وذوقه ، وما يستخفه من ارتياح وطرب ، فى حين أن « العسكرى » لا يعدو فى شرح أمثلته أن الاستعارة فى كل منها أبلغ من الحقيقة : فقول الله تعالى « إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية » حقيقته علا وطما . والاستعارة أبلغ ، لأن فيهـا دلالة القهر ، وذلك أن الطغيان علو فيه غلبة وقهر . . . »

(هـ) ولـكن « القاضى الجرجانى » و « أبا هلال العسكرى » ليسا إلا اثنين من مجموعة الاختصاصيين الذين تكشف عنهم القرن الرابع فى حركة النقد الأدبى . ولا يزال إنتاج هذا القرن فى الناحيـة النقدية فى حاجة إلى البحث والتقدير ، ولقد حاول[1] باحث غربى حديث أن يتتبع تيارات النقـد المختلفة فى ذلك القرن ، وأن يكشف القواعد الأساسية التى كانت توجه الذوق الأدبى العربى فيه . وقد وصف الطريقة التى عالج بها العرب موضوعهم بأنها غير دقيقة ، وزعم أن النقاد العرب قلما وقفوا ليبرروا أحكامهم ، وأن نظرية النقد لم تكن قد تطورت عندهم إلى درجة علمية ، وأن قاموس النقد عندهم لم يكن قد اتضح وتحدد بعد . ومع ذلك فقد وجد من المستطاع أن يبوب مقاييس النقد العربى فى ذلك القرن خمسة أبواب : أحدها الاعتراضات اللغوية ؛ والثانى الاعتراضات الأسلوبية والثالث النقد القائم على التاريخ الأدبى ؛ والرابع الاعتراضات السيكلوجية ؛ والخامس الاعتراضات الموجهة إلى المعنى .

فصّل الباحث هذه الأبواب ومثّل لها . ثم ختم بحثه بتقدير أخير للجهود النقدية فى ذلك القرن قال فيه :

---

(١) من الباحثين الشرقيين — الذين تعرضوا لبحث النقد فى القرن الرابع الهجرى — زكى مبارك فى الباب الرابع من الجزء الثانى من كتابه « النثر الفنى فى القرن الرابع » ، دار الكتب ١٩٣١ .

"In literary theory, the 10th century (الميلادى) was an age of specialists, of people who abandoned the unscientific generalisations that make for the charm and the weakness of their great predecessor الجاحظ (869). Rational treatment of detail, little discoveries in the rhetorical field, progress to a safer and more elaborate system of critical qualifications, these are the aims and achievements of this age. In this sense the scholars of the 10th century paved the way for the great minds of later days, such as ابن رشيق (1064 or 1070), and عبد القاهر الجرجانى (1078) and ضياء الدين بن الأثير (1239) who on the basis of thorough rational training in the auxiliary sciences were able again to turn to the study of the more general aspects of literary expression"(١)

« فون جرنباوم » — إذن — يذهب إلى أن القرن الرابع الهجرى كان قرن الاختصاصيين الذين هجروا التعميم غير العلمى . واهتموا بمعالجة التفاصيل ونقد النصوص ، و بذلك هيأوا السبيل لأصحاب العقول العظيمة الذين قفوا على آثارهم : ومن بين أصحاب العقول هؤلاء موضوع بحثنا — عبدالقاهر الجرجانى — وهذه فكرة تتفق والاتجاه الذى يتجه بحثنا من اعتبار القرون الأربعة الهجرية الأولى مرحلة النشوء والشباب فى حياة النقد العربى ، واعتبار عصر عبد القاهر مرحلة النضوج والرشد الفكرى فى تلك الحياة . فالذوق العربى فى نظرنا قد جارى سنة الطبيعة ، فترقى من طور البساطة بما جدّ عليه من عوامل الرقى الاجتماعى والفكرى : إذ اتسعت رقعة الدولة ، وتطورت أنظمتها فى الحكم والحياة ، وتنوعت العناصر المؤلفة لشعوبها ، والتيارات المكونة لثقافتها ،

(١) 'Arabic Literary Criticism in the 10th cent. A.D." by Gustave von grunebaum (Sch. for Iranian Studies). J. of the American Oriental Society Number 1 vol. 61. March 1941. PP. 51—57.

وتحضرت اساليب لهوها ومتعتها الفنية . وعلى هذا ارتقى الذوق العربى فى الفن — كما اقتضت سنة العمران — من مجرد الانفعال والاستحسان إلى مراتب التذوق المنظم القائم على تعرف علل التأثر وأسبابه . ثم بدأت الروافد المختلفة تمد ذلك الجدول الطبيعى الجارى وتزيد فى تياره ؛ فكان من هذه الروافد نهضة جمع اللغة ورواية الشعر فى القرن الثانى الهجرى ، وكان أن اهتم النقاد بنواح موضوعية تقوم على اعتبارات من صحة اللغة ومجاراة أساليبها التقليدية . ثم صحبت هذه بل سبقتها فى الأهمية نهضة الدراسات القرآنية ، وتفهم نواحى الإعجاز فى القرآن ، وتبيُّنُ ما بين فنّ القرآن والفنون الأدبية الأخرى من صلات . وأخذت طوائف الشعوب الإسلامية من عرب وغيرهم تتفاعل فى تفكيرها وثقافتها . ونبغ فى الأدب العربى طوائف من غير أهله كانت لهم أذواقهم الموروثة . وخلقت شئون السياسة والأحزاب والعصبيات جماعات من الشعراء والخطباء والكتاب تخصصت فى فنونها ، ودفعت بها نحو الكمال الفنى . حتى إذا ما جاء القرن الثالث — وكان الفكر العربى قد وصل إلى مرحلة التأليف المنظم فى مختلف الفروع — انضم إلى الروافد المختلفة رافد الثقافة اليونانية وفلسفتها وما ترجم إلى العربية من كتب المعلم الأول . ثم جاء القرن الرابع فأنجب الاختصاصيين الذين عالجوا نواحى من موضوع النقد وحشدوا لها النصوص . وبهذا تكاملت أدوات البحث الذوقى والنظرى فى الموضوع وتهيأ الجو لأصحاب العقول العظيمة من أمثال عبد القاهر .

دراستنا — إذن — لهذا القسم من البحث توصلنا إلى نتيجة لها مغزاها فى الموضوع ، وهى أن جهود عبد القاهر ونظرياته كانت استمراراً وتنظيما للجهود العربية النقدية التى تعهدتها ونمّتها الحياة الإسلامية الجديدة . ولكن لهذه النتيجة جانباً لابد من بحثه — هو دراسة الأثر الإغريقى فى التفكير العربى

النقدى عامة وفى عبد القاهر خاصة — وسنفرد له الجزء التالى والأخير من بحثنا الحاضر.

غير أننا لا نريد أن نترك هذه النقطة دون أن نناقش نقطة أخرى تترتب عليها وتتصل بها اتصالا وثيقاً، وهى ذات اعتبار مهم فى الحكم على عبد القاهر ونظريته.

(و) إذا استقامت لنا هذه الفكرة التطورية عن الذوق العربى، وصح لنا أن ننظر إليه بهذه النظرة الشاملة، أمكننا أن نضع كل منزع من منازع النقد العربى فى مكانه، وأن نتفادى الخطأ العلمى الذى يقع فيه بعض الباحثين المحدثين حين يعتبرون النقد العربى منحصراً فى كتابين — كالموازنة للآمدى والوساطة لعلى بن عبد العزيز الجرجانى — ويعتبرون ما عداهما بحوثاً علمية أو بلاغية لا شأن لها بالنقد. وتلك النظرة الجزئية الناقصة تقوم على خطأ أساسى فى فهم طبيعة النقد، وفهم طبيعة الذوق الإنسانى؛ ذلك أن أصحاب هذه النظرة يتصورون الذوق شيئاً مستقلا عن العلم — بل شيئاً يجب أن يبقى مستقلا عن المعرفة المنظمة وعن التعليل والتحقيق. فإذا نزع مؤلف ما من مؤلفى النقد إلى تقرير أسس عامة فى الموضوع، أو إلى شىء من التفصيل والتقسيم؛ أو تنبه إلى وجهة نظر عامة يحاول أن يطبقها فى نقده العملى، فزع أصحاب النظر الجزئى من عمله هذا وعدوه بسطاً لسلطان العلم على وادى الذوق، أو تفلسفاً فى ميدان تأبى طبيعته النظر والفلسفة. وهم لهذا يقللون من شأن الجاحظ وقدامة وأبى هلال العسكرى وابن رشيق وعبد القاهر الجرجانى وغيرهم لا لشىء إلا لأن هؤلاء حاولوا التأليف فى النقد العربى بروح منظمة، ولأن منهم من حاول أن ينفذ إلى بعض الأسس الأولى للفلسفة الذوقية.

هذا الفصل المصطنع بين النقد العملى والتفكير النظرى فى النقد فصل تأباه

طبيعة الفكر الإنسانى من جهة ، وتاريخ تطور النقد الأدبى فى مختلف آداب العالم من جهة أخرى :

فالفكر الإنسانى — حتى فى أدوار فطرته — لم يقنع بمجرد الذوق الفطرى غير المعلل فى ميادين الفن والجمال ، بل حاول أن يتلمس لاستحسانه واستهجانه عللا وأسباباً ، وكلما تقدمت حضارته واتسعت معارفه ألحّ فى هذه المحاولة حتى وصل — فى أطوار مدنيته — إلى مرحلة البحث العلمى المنظم ، وأصبح كل فن من فنونه يقوم على المزاولة العملية من ناحية ، وعلى التفكير النظرى فى أساس الفن من ناحية أخرى . وليس ميدان هذا التفكير فى علم الذوق والجمال بوقف على باحث واحد ، بل يشترك فيه من نواحيه المختلفة باحث الأدب وباحث الفلسفة وباحث النفس والاجتماع وتطور الحضارات البشرية .

وهذه النقطة تتضح أكثر إذا لاحظنا التطور الذى سارت إليه الدراسات النقدية الحديثة ، فقد أصبحت فى عرف الباحثين المعاصرين تتألف من شقين : الأول ناحية نظرية يعبرون عنها باسم نظرية الأدب Theory of Literature والثانية ناحية عملية يسمونها النقد العملى أو الأساسى Practical Criticism or Cirt. Proper. وهما ناحيتان تتعاونان ولا تنفصلان ، بل لا تستطيع إحداهما أن تظهر فى صورتها الكاملة ما لم تشترك معها الأخرى .

ولكن الذين ينفرون من الناحية النظرية العلمية فى النقد إنما يتأثرون فى موقفهم هذا بما وصلت إليه الدراسات البلاغية فى القرون الوسطى من جمود وعناية بالشكليات ، واستغراق فى التقسيمات والتفريعات ، مما قتل روح الجمال الأدبى وأخرج تذوق النصوص الأدبية من طبيعته الفنية إلى طبيعة البحث المنطقى أو الرياضى ؛ فأصبحت همم الباحثين منصرفة إلى بيان ما فى النص من تشبيه أو استعارة ، وإيجاز أو إطناب ، وجناس أو طباق . وأصبح الناشئون

لا يتذوقون من جمال روائع الآثار الأدبية إلا معرفة إجراء الاستعارة أو تقرير الكناية ، أو تمييز هذه الناحية أو تلك من المحسنات البديعية .

وفى رأينا أن الاتجاه الذى اتجهته البلاغة فى نشأتها إلى التبويب والتقسيم وتمييز الظواهر الجمالية كان اتجاها طبيعيا علميا دعت إليه ضرورة التخصص وضرورة التقدم الفكرى — ولكن العقم الذى أصاب الأدب العربى فى القرون الوسطى وانصراف الشعراء والكتاب عن الابتكار إلى التقليد ، ونسيانهم جوهر الخلق الفنى ، وانشغالهم عنه بأعراض الحلية اللفظية والصناعة الشكلية — كل ذلك سرت عدواه إلى البحوث النقدية البلاغية ؛ فكانت حركة المتون والشروح والحواشى فى البلاغة ، وكان أن نسى مؤلفو تلك الحركة جوهر الجمال الأدبى وسر تأثيره فى النفوس ، فقنعوا بالمظاهر الأدبية يقسمونها ويبوبونها ويخترعون لها ما استطاعوا من الأوصاف .

هذا الانتكاس فى طبيعة البحوث النقدية العربية إنما جاء بعد عصر عبد القاهر . ولو أن مؤلفى البلاغة حرصوا على روح المنهج الذى سنه ، وساروا به فى الطريق الذى رسمه لتغير وجه التاريخ فى هذه الدراسات ، ولشاهدنا تطوراً حقيقيا فى فروعها العربية .

٥

(١) هل تأثر عبد القاهر فى بعض نواحى تفكيره البلاغى والنقدى بالثقافة الأغريقية . ولاسيما بحوث أرسطو ؟ إن التراث الإسلامى الذى ثقفه عبد القاهر قد خالطته وامتزجت به — منذ نهضة الترجمة فى القرن الثالث الهجرى — وأوائل الرابع — عناصر من فلسفة الإغريق وإنتاجهم الفكرى . وهذه العناصر كانت قد وجدت طريقها إلى الشرق قبل ظهور الإسلام ، واستقرت فى

مراكز الثقافة فى الشام والعراق وفارس ، ووجدت من السريان أدوات لنقلها إلى لغتهم أولا ، فلما ظهر الإسلام وأراد الخلفاء نقل العلوم إلى العربية كان هؤلاء السريان من أبرز من ساهموا فى نقلها من اللغات المعروفة فى ذلك العهد ، وعلى الأخص من اليونانية والسريانية ، وكان طبيعياً أن تأخذ كتب « أرسطو » مكانها الجدير بها فى هذه النهضة الثقافية . ولقد يهمنا هنا أن نقف عند كتابين من هذه الكتب : هما كتاب الشعر (بويطيقا) ، وكتاب الخطابة (ريطوريقا) . والمعروف أن الذى نقل الأول من السريانى إلى العربى أبو بشر متى بن يونس (١) « ونقله يحيى بن عدى » وللكندى مختصر فيه . وأما الثانى فقد قيل إن إسحاق ابن حنين نقله إلى العربية — ونقله إبراهيم بن عبد الله ، وفسره الفارابى أبو نصر (٢) وقد لعبت هذه التراجم العربية دورها لا فى ثقافة المسلمين فحسب ، ولكن فى الثقافة الأوروبية — أيضا — حتى الحديثة منها . فقد عرف المستشرقون الفرنسيون — مثلا — الترجمة العربية لكتاب الشعر منذ زمن طويل . وقد نشره « مرجليوث » فى انجلترا وعلّق عليه فى سنة ١٨٨٧ وبيّن طريقة الانتفاع به فى تحقيق النص اليونانى . ولكن نقاد الغرب متنبهون إلى بعض نواحى النقص فى الترجمة العربية ، فهى كما أشرنا — لم تكن من الإغريقية مباشرة وإنما هى منقولة عن أصل سريانى لم يعثر عليه بعد . ومن الجائز أن تكون الترجمة السريانية نفسها عن الإغريقية غير دقيقة . أضف إلى ذلك أن نظرية التراجيديا التى عالجها أرسطو كانت بعيدة عن عقل السريان والعرب جميعا .

(١) يقول « Bywatr » محقق النص اليونانى ومترجمه إلى الإنكليزية فى مقدمة كتابه : « من الواضح أن كتاب أرسطو وجد قراءه فى الشرق فقد ترجم إلى السريانية فى القرن الثامن (الميلادى) ، ومن السريانية إلى العربية فى القرن الحادى عشر » ص XXIV) . غير أن الوارد فى الكتب العربية أن متى بن يونس مات حوالى سنة ٣٣٠ هـ ، أو بعدها بقليل ، وأن يحى بن عدى مات سنة ٣٦٤ هـ . وإذن تكون الترجمة إلى العربية قد حدثت فى القرن العاشر الميلادى .

(٢) راجع « الفهرست » لابن النديم طبعة مصر ص ٣٤٩ — ٣٥٠ .

وقد ظهرت هذه الناحية الأخيرة فى شرح ابن رشد لكتاب الشعر .

"Averoes is fairly at home in the more philosophical and grammatical parts of the book; but its meaning as a theory of Greek tradgedy, was from first to last a hopeless enigma to the great Aristotelian of Cordova" (١) .

ويظهر أن قدامة بن جعفر (فى أوائل القرن الرابع) لم يكن أسعد حظاً من هذا الكتاب من ابن رشد . أما كتاب الخطابة فقد كان شأنه غير هذا ، فالظاهر أن قدامة « كان على إحاطة تامة به ، وقد فهم منه كل ما يمكن أن ينتفع به ، وطبق ما فهمه على الشعر العربى » وقد فهمه كذلك ابن سينا « فهما لا بأس به ، وحلله فى الشفا » (٢) تحليلا دقيقا وشديد القرب من الأصل (٣) .

وجد هذان الكتابان — إذن — طريقهما إلى الفكر العربى الفلسفى والنقدى ، وظهرت آثارهما فى مناهج التأليف والبحث . فماذا عالج أرسطو فيهما على وجه الإجمال ؟ وماذا كانت النواحى التى يمكن ، فى طبيعة الأشياء ، أن يثقفها الفكر العربى ويتأثر بها ؟ ثم إلى أى حد تأثر عبد القاهر بهذه النواحى فى كتابه « أسرار البلاغة » ؟ .

(١) "Aristotle on the Art of Poetry" by Bywater (Ingram). Oxford 1909. Introduction. p. XXXII.

وقد اعتمدنا على هذا النص فى تلخيص فكرة أرسطو . كما رجعنا إلى كتاب « قواعد النقد الأدبى » لمؤلفه « لاسل أبركرومبي » ترجمة محمد عوض محمد — لجنة التأليف ١٩٣٦ .

(٢) انتفعنا فى مراجعة هذا التحليل بالمخطوطة الشمسية رقم ٥٣ ٢٦٠ — مكتبة جامعة فؤاد الأول — وقد أعارنى إياها صديق الدكتور أبو العلا عفيفى . وابن سينا يعالج الشعر فى الفن التاسع من الجملة الأولى من المنطق فى ثمانية فصول : الأول فى الشعر مطلقاً وأصناف الصفات الشعرية وأصناف الأشعار اليونانية (ص ١٨٧) ؛ والثانى فى أصناف الأغراض الكلية والمحاكاة الكلية التى للشعراء (١٨٨) ، والثالث فى الإخبار عن كيفية ابتداء نشء الشعر ، وأصناف الشعر (١٨٨) ، والرابع فى مناسبة مقادير الأبيات مع الأغراض (١٨٩) ، والخامس فى حسن ترتيب الشعر (١٨٩) ، والسادس فى أجزاء الطراغوديا (١٩٠) ، والسابع فى قسمة الألفاظ وموافقتها لأنواع الشعر (١٩١) ، والثامن فى وجوه تقصير الشاعر .

(٣) طه حسين فى البيان العربى من الجاحظ إلى عبد القاهر .

(ب) النقطة الرئيسية فى كتاب الشعر لأرسطو هى البحث فى طبيعة التراجيديا (والملحمة والكوميديا) باعتبارها الأنواع الرئيسية من شعر المحاكاة. ومن هذا البحث تتفرع نواح عامة، فى نظرية الشعر. وأول هذه النواحى فكرة المحاكاة (أو التقليد) التى كانت شائعة عند الإغريق، إذ كانوا يعتبرون الفنّ على العموم ضرباً من التقليد للأشياء والظواهر والأعمال، وإنما تختلف الفنون بعضها من بعض حسب الأداة والغرض والطريقة التى يحدث بها التقليد. ولعل هذا الرجوع إلى طبيعة الفن على العموم — مهما اختلفت مظاهره — لون من التفكير لم يكن مألوفا للعرب قبل أن تنقل إليهم بحوث أرسطو. وأقرب المنازع إليه فى التأليف النقدى العربى منزع «عبد القاهر» فقد رأيناه حين يريد توضيح طبيعة الشعر يجلب الرسم والتصوير والنقش وصياغة الجواهر على نحو ما يفعل أرسطو فى هذه النقطة. وظاهر أن هذا ضرب من الفلسفة الذوقية فى الفن لا يوجد إلا حين تتجاوب ضروب التفكير العلمى والفلسفى والفنى فى الأمة.

والناحية الثانية التى يعرض لها كتاب أرسطو هى الكلام على أصل الشعر، وأن ذلك راجع إلى سببين فى الطبيعة الإنسانية: أحدهما التقليد، والثانى الحس باللحن والنغم والموسيقى. فالإنسان مفطور على التقليد منذ طفولته، وهذه الفطرة تميزه من سائر الحيوانات الدنيا. والناس كذلك مفطورون على السرور بالأعمال التى ينتجها التقليد الفنى، ففى رؤيتها تعلّم لشىء ما، وفى التعلم لذة أىّ لذة — لا للفيلسوف فحسب — ولكن لجميع الناس. وأما الحسّ باللحن والنغم فهو كذلك أصيل فى فطرة البشر. وعلى قدر حظ الشاعر من هاتين الموهبتين، والجهد الذى يبذله فى تحسينهما يكون خَلقه للشعر. ولم نجد لهذه الناحية صدى ظاهرا فى التفكير العربى؛ وإنما وجدنا نقاد العرب يشغلون ببحث الطبع والتكلف والتصنع. على أننا نظفر هنا وهناك فى كتابات عبد القاهر بالتنبيه إلى

حاسة الشعر . وقد نبهنا على هذا العنصر فى تفكيره وأوردنا بعض الإشارات الدالة عليه .

ويقسم أرسطو الأعمال التى ينصبّ عليها التقليد الفنى — حسب طبائع القائمين بها — إلى خير وشر ؛ فعنـده أن تنوع الطبائع الإنسانية إنما يرجع فى غالب الأمر — إلى هذا الخلاف الأولى . وعلى هذا فالشعر (القصصى) قد يتناول تصوير الناس بصورة خير مما فى الحياة أو شر مما فيها . وهـذه القسمة تنتج لأرسطو الشعر الجدى والشعر الهزلى . أو شعر المأساة وشعر المهزلة . وما دام العرب لم يعنوا بالفن القصصى فى الشعر ، فليس من المنظور أن تجد هذه التفرقة — فى وضعها الأصلى — سبيلها إلى تفكيرهم النقدى .

على أن بعض الباحثين[1] يذهب إلى « أنه لما كانت الدراما غير معروفة للعرب ، أو لم يكن لها مقابل عندهم ، فقد صرفوا أنواعها إلى ما وجدوه من فنونهم الأدبية قريبا منها فخلطوا التراجيديا بالمديح ، والـكوميديا بالهجاء ؛ وساعدهم على هذا الخلط لغة أرسطو فى تفريقه بين هذين النوعين ، فهو يقول : إن الشعر يبدأ إما شعرا حماسياً أو هجائياً ، ومن الحماسى (أى شعر الملاحم) تنشأ المأساة ، ومن الهجائى تنشأ المهزلة . ويقول فى موطن آخر : إن التراجيديا تقليد لما هو جدّى وأحسن من الواقع ، والمهزلة تقليد لما هو وضيع وأسوأ من الواقع . وقد ترتب على هذا الفهم الذى اتجه إليه العرب أن كادت الـكوميديا الإغريقية تفقد عند العرب خاصيتها فى إثارة الضحك ، وأصبحت هجاء وإقذاعا ، ولم يعد تأثيرها

---

(١) ممن رأى هذا الرأى « مرجليوث » وقد عرضه فى مقال له تحت عنوان "Wit and Humour in Arabic Authors" فى المجلد الأول من مجلة (Islamic Cultre) التى تصـدر باللغة الإنجليزية فى الهند . وقد أوردتُ هذا الرأى وناقشته بإيجاز فى مقالين فى مجـلة الثقافة (العددين ١٣٧ ، ١٤٠) تحت عنوان : « أدب الفـكاهة فى التأليف العربى » .

(٢) « قواعد النقد الأدبى » ص ١٠٧ .

يتوقف على ما قد تثيره من مرح وإمتاع» (الثقافة عدد ١٤٠ ص ١٦).

يفرغ أرسطو بعد هذا لغرضه الرئيسى فى الكتاب، وهو الكلام على «المأساة» وطبيعتها وأركانها وما يجب أن يتحقق فيها من الوحدات، والحبكة وشروطها — وما إلى ذلك من التقسيم والتفريع والموازنة بين هذا الفن وغيره من الفنون الشعرية. ويلخص أبركرومبى فى شىء من التصرف تعريف أرسطو للمأساة بقوله: «المأساة (١) تقليد لعمل جدى كامل بنفسه، له شىء من الخطر والأهمية. (٢) فى كلام ممتع بدرجة تتفق مع أهمية كل جزء من المأساة (٣) فى صيغة مسرحية لا فى صورة قصصية. (٤) وتستطيع بما اشتملت عليه من الرحمة والخوف أن تحدث تطهيراً (Katharsis) لهاتين العاطفتين»[1]. وهذا القسم الرئيسى فى الكتاب لا يعنينا من وجهة التفكير العربى عامة وعبد القاهر خاصة إلا فى نواح منه تدخل تحت ما نسميه «الاعتبارات السيكلوجية فى فهم الفن». فالشعر يرجع فى أصله إلى عناصر فى الطبيعة الإنسانية كما رأينا؛ والمأساة تحدث تأثيرها اللذيذ فى النفس بما تثير من انفعالى الرحمة والخوف وبما تطهر منهما. وفكرة التطهير هذه كما يراها أرسطو — محل أخذ ورد بين النقاد، ولكنهم متفقون على أنها محاولة فى فهم وظيفة المأساة ذات اتجاه علمى صحيح. والجمال — كما يراه أرسطو — فى الكائن الحى وفى الشىء المكون من أجزاء يجىء من أن لذلك الكائن أو الشىء حجما مناسباً لا هو بالمتناهى فى الدقة ولا بالمتناهى فى العظم، وبذلك تستطيع العين إدراكه كاملا. كذلك الحبكة فى التراجيديا ينبغى أن تكون على قدر من الطول يناسب إدراك الذاكرة. والأنواع التى يرفضها أرسطو من المآسى إنما يرفضها على أساس سيكلوجى كأن تصور الرجل الخير متحولا من سعادة إلى شقاء، أو الرجل الشر صائراً من شقاء إلى سعادة. وخير

(١) قواعد النقد العربى ص ١٠٧.

المآسى ما أثارت بحبكتها وتأليفها عنصرى الرحمة والخوف عند قارئها حتى ولو لم يشهد تمثيلها ، وخير مثال لذلك مأساة « أوديبوس » .

وهكذا إذا تتبعنا كتاب الشعر وجدنا روحا من التفكير النفسانى يجرى خلاله ، ورجحنا أن مؤلفى العرب الذين ظهرت عندهم هذه النزعة بشكل واضح — ممن جاءوا بعد عصر الترجمة — إنما كانوا متأثرين على العموم ببحوث أرسطو . وهذا الأثر لا يجىء من دراسات أرسطو النقدية فحسب ، ولكن يجىء أيضاً من بحوثه السيكولوجية التى ترجمت فيما ترجم العرب من فلسفته : فالكلام فى الحس والإدراك والتصور والخيال والوهم والذهن والغريزة والانفعال وما إليها ، واستخدام كل هذه التصورات فى مختلف البحوث يغلب أن يكون مما تأثر فيه العرب بدراسات أرسطو . وليس لدينا من دليل على أن عبد القاهر قرأ كتاب الشعر — إلا ما رجحه طه حسين من أن عبد القاهر انتفع بتعريب « ابن سينا » « لخطابة » أرسطو « وشعره » . ولن تعطينا النظرة السريعة التى نظرناها فى كتاب الشعر لأرسطو أكثر من ترجيح أن عبد القاهر متأثر بأرسطو على العموم فى منزعه النفسانى فى فهم ظواهر الأدب . وتأثره فى هذا إنما هو تأثر العالم بما يصل إليه من ثقافات ، وليس التأثر أو التقليد المباشر الذى ينفى عن صاحبه صفة الأصالة فى البحث العلمى .

(ح) وبعد فماذا كان شأن كتاب الخطابة لأرسطو ؟ وفى أى النواحى أثر على بحوث عبد القاهر — إن كان قد فعل ؟

لقد كانت الخطابة إحدى الظواهر الأساسية فى حياة الإغريق المدنية ؛ وقد شغلت حيزا كبيرا من بحوث مفكريهم . وجلَّى أرسطو هذه الناحية فى كتابه « الريطوريقا » [1] فتناول فى الكتاب الأول منه تعريف الخطابة وصلتها

---

(١) اعتمدنا فى هذا التلخيص على نص الترجمة الفرنسية للكتاب Rhétorique d'Aristote ترجمه وعلق عليه J. Barthélemy saint-Hilaire (باريس ١٧٨٠) .

بالجدل ، والفرق بينها و بين الفنون الأخرى ، ونقد الطريقة التى كانت تعلم بها ، وبيّن الوسائل التى تستعملها فى الإغراء والتحضيض ، ثم بيّن أقسامها الرئيسية من سياسية وقضائية ومنافرية ، وما يندرج تحت كل نوع من هذه النواحى الإنسانية ؛ وفصّل القول فى أنواع الحكومات وخصائصها ؛ و بحث فى عناصر الخير أو السعادة التى هى الهدف العام لكل أعمال بنى الإنسان ؛ وتوسع فى شرح مواطن المدح والذم من أعمال الناس ؛ فتكلم عن الفضيلة والرذيلة والقبيح والجميل ... الخ .

أما الكتاب الثانى فقد تناول فيه الكلام على خصائص الخطيب ؛ وأطال فى تحليل انفعالات السامعين من غضب ورضى ، وخوف وأمن ، وود وكراهية ، وميز طبائع الأشخاص فى مختلف أعمارهم من حداثة وشباب وشيخوخة . وخصص الفصول الأخيرة من هذا الكتاب للكلام على الجملة وأنواعها والحكمة والمثل ، واستعمال القياس تامه وناقصه .

وأما الكتاب الثالث فقد خصصه أرسطو للكلام على العبارة والأسلوب وما يعرض له من الجودة وعدمها ، وما يعود على الكلام من استخدام المجازات والألفاظ المشتركة وغيرها ؛ ثم بين الأسباب التى تجعل الأسلوب مستهجناً ، كضعف التأليف وغرابة الكلمات وعدم مناسبة المجازات ؛ وتوسع فى شرح التشبيه مبينا وجوه الاتفاق والاختلاف بينه و بين المجاز ، ثم نظر نظرة عميقة فى سر جمال المجازات والصور ممثلا لما يقول ، شارحا ، موازناً ، مفرعا .

ولسنا نُعْنى هنا بالكتابين الأولين إلا من حيث أثرهما فى الثقافة العربية العامة التى لابد أن يكون عبدالقاهر قد ثقفها ، ومن حيث أثرهما فى بعض مناهج التأليف النقدى قبل عصر عبد القاهر . ولا سيما عند قدامة بن جعفر ، فنظرة فى كتابيه « نقد الشعر » و « نقد النثر » تكشف لنا المدى الذى وصل إليه فى

الاعتماد على التحليل الفلسفى والنفسى فى الريطوريقا ، وقد أثبت «طه حسين» هذا الاعتماد إثباتاً مقنعاً فى مقدمته لكتاب نقد النثر لقدامة .

وإنما يهمنا أن ننظر فى الكتاب الثالث من الريطوريقا ، وفى تعريب «ابن سينا» له — وعلى الأخص فى المقالة الرابعة(١) من مقالاته فى فن الخطابة فى المنطق — حيث يعقد خمسة فصول : الأول فى التحسينات واختيار الألفاظ والتغيرات ؛ «وهذه بعضها متعلق باللفظ ، وبعضها متعلق بالترتيب ، وبعضها متعلق بهيئات المتكلمين ، وهى أمور خارجة عن اللفظ وعن المعنى ؛ فمنها مايتعلق بهيئة اللفظ ، ومنها مايتعلق بهيئة القائل ، فيخيل معانى ، أو يخيل أخلاقا واستعدادات نحو أفعال أونحو انفعال . وهذه الأشياء كلها توزينات للقول ليستقر فى الأنفس استقراراً أكثر . . واعلم أن الرونق المستفاد بالاستعارة والتبديل سببه الاستغراب والتعجب ، وما يتبع ذلك من الهيبة والاستعظام والروعة كما يستشعره الإنسان من مشاهدة الناس الغرباء فإنه يحتشمهم احتشاماً لا يحتشم مثله المعارف . فيجب على الخطيب أن يتعاطى ذلك حيث يحتاج إلى الروعة وإلى التعجب . وللأوزان تأثير عظيم فى ذلك . واستعمال الاستعارات والمجاز فى الأقوال الموزونة أليق من استعمالها فى الأقوال المنثورة . ومناسبتها للكلام النثر المرسل أقل من مناسبتها للشعر . . . وليعلم أن الاستعارة فى الخطابة ليست على أنها أصل بل على أنها غش ينتفع به فى ترويج الشىء على من ينخدع وينغش ... وينبغى للخطيب إذا أراد أن يستعير ويغير أن يأخذ الاستعارة والتغير من جنس مناسب لذلك الجنس محاك له غير بعيد منه ولا خارج عنه ... وجميع الاستعارات يؤخذ من أمور إما مشاركة فى الاسم ، أو مشاكلة فى القوة — أى مغنية غناء الشىء فى

(١) المقالة الرابعة من الفن الثامن من الجملة الأولى من منطق الشفا لابن سينا ص ١٨٣ إلى ١٨٧ مخطوطة رقم ٥٣ ٢٦٠ مكتبة جامعة فؤاد الأول .

فعل أو انفعال — أو مشاكلة فى الكيفية المحسوسة مبصرة كانت أو غيرها . وللقول الانتقالى الاستعارى فى تأثيره مراتب . والتشبيه يجرى مجرى الاستعارة ، إلا أن الاستعارة تجعل الشىء غيره ، والتشبيه يحكم عليه بأنه كغيره — لا غيره نفسه — كما قال القائل : (إن أخيلوس وثب كالأسد) . والتشبيه نافع فى الكلام الخطابى منفعة الاستعارة » .

ويتناول الفصل الثانى — من المقالة الرابعة — القول فى اجتناب ما يهجن اللفظ ، واختيار ما يحسنه . والفصل الثالث فى وزن الكلام الخطابى واستعمال الأدوات فيه ، والكلام على ضروب الاستعارات ، كالاستعارة من الضد ، والاستعارة من الشبيه ، والاستعارة من الاسم وحده . والفصل الرابع فى أجزاء القول الخطابى وترتيبها وخاصيتها .

إن الذى يطلع على هذه المقالة لا يملك إلا أن يرجح أن عبد القاهر انتفع بها — على نحوٍ ما — فيما قصد إليه فى أسرار البلاغة من تفريع وتحقيق : يقول طه حسين : « فعند ما نقرأ أولها (أى أول كتابى عبد القاهر — وهو أسرار البلاغة) ، نكاد نجزم بأن المؤلف قرأ الفصل الذى عقده ابن سينا للعبارة ، وأنه فكر فيه كثيراً ، وحاول أن يدرسه دراسة نقد وتمحيص . والواقع أنه درس الحقيقة والمجاز فتبين له أن تصور القدماء للمجاز مضطرب غير مستقيم ، فانبرى يوضح مبهمه ، ويجلو غامضه ، فقسم المجاز إلى نوعين : مجاز لغوى ومجاز عقلى . ثم قسم المجاز اللغوى إلى نوعين أحدهما يقوم على التشبيه ، وأما الآخر فعبارة عن كل لفظ استعمل مكان لفظ آخر لصلة بينهما . وبعد فنحن نعرف مجاز أرسطو الذى يجيز إطلاق اسم الجنس على النوع ، واسم النوع على الجنس ، واسم النوع على نوع آخر . فمجاز أرسطو هذا هو ما يسميه عبد القاهر (مجازاً مرسلا) ، وأما المجاز الذى يقوم على التشبيه ، والذى يسميه أرسطو (صورة) فيسميه

عبد القاهر (استعارة) ، وهو لفظ كان القدماء يطلقونه على المجاز بكافة أنواعه . ولكي يقرر عبد القاهر مذهبه هذا ، يتعمق دراسة المجاز والتشبيه تعمقاً لم يسبق إليه . ولكن من غير أن يخرج بحال من الحدود التي رسمها أرسطو . أما المجاز العقلي فهو من ابتكار عبد القاهر ، ويصح أن نسميه المجاز الكلامي »[١] .

طه حسين — إذن — يثبت لعبد القاهر هنا شيئين معا : تأثرا بأرسطو من ناحية ، وتعمقاً وابتكاراً من ناحية أخرى . وقد وصلنا نحن إلى نتيجة شبيهة بهذه في بحثنا لصلة عبد القاهر بالتفكير العربي السابق لعصره ؛ فقد وجدنا سوابق لآرائه في دراسات « القاضي الجرجاني » ، « وأبي هلال العسكري » وغيرهما[٢] . إلا أنه من الظاهر أن عبد القاهر مدين أكثر لأرسطو (وابن سينا) في الناحية المنهجية من كتاب « الأسرار » . وجوانب غير قليلة من فكرته الرئيسية نفسها في أسرار روعة الاستعارة والتشبيه تستمد نماذجها من الفصلين العاشر والحادي عشر من الكتاب الثالث من « الريطوريقا »[٣] . فالمعلم الأول

---

(١) « تمهيد في البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر » ص ٢٩ .

(٢) ممن يذكرون هنا « شيخ العربية أبو الحسن علي بن عيسى الرماني النحوي ، (عاش في بغداد ٢٩٦ — ٣٨٤) ، وأصله من « سر من رأى » ، وهو أحد الأئمة المشاهير ، جمع بين علم الكلام والعربية ، وله قريب من مائة مصنف ، وأخذ عن ابن دريد ، وأبي بكر ابن السراج وغيرهما (شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ طبعة القدس — ج ٣ ص ١٠٩) . وابن رشيق ينقل في « العمدة » آراء عن الرماني هذا قريبة الصلة بآراء عبد القاهر . « قال أبو الحسن علي بن عيسى الرماني : أصل البلاغة الطبع ، ولها مع ذلك آلات تعين عليها ، وتوصل للقوة فيها ، وتكون ميزاناً لها وفاصلة بينها وبين غيرها ، وهي ثمانية أضرب : الإيجاز والاستعارة والتشبيه ... الخ » (العمدة ج ١ ص ٢١٤) وقال : « الاستعارة أفضل المجاز ، وأول أبواب البديع ، وليس في حلي الشعر أعجب منها ، وهي من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها ونزلت موضعها » (ص ٢٣٩) . وقال « وشرح ذلك (تفاوت الحسن في التشبيه) أن ما تقع عليه الحاسة أوضح في الجملة مما لا تقع عليه الحاسة ، والمشاهد أوضح من الغائب ، فالأول في العقل أوضح من الثاني ، والثالث أوضح من الرابع ، وما يدركه الإنسان من نفسه أوضح مما يعرفه من غيره ، والقريب أوضح من البعيد في الجملة ، وما قد ألف أوضح مما لم يؤلف » (ص ٢٥٦ — ٢٥٧) .

(٣) La Rhétoirque الكتاب الثالث ص ٦٢ — ٨٦ .

يقرر هناك «أن لذة الفهم الخالى من العناء هى إحدى اللذات الطبيعية لبنى الإنسان . وأن الكلام الذى يعطينا مدلوله فى يسر يهب لنا أكبر مقدار من اللذة العقلية ، وهذه هى المزية الكبرى للمجاز ، فإذا قال قائل — مثلا : (إن الشيخوخة هشيم جاف) ، فقد هيأ لنا نوعا من العلم والمعرفة بأن أعطانا الجنس الذى تدخل تحته الشيخوخة . والتشبيهات التى يستعملها الشعراء لها ما للمجاز من تأثير ، بل هى مجاز ضمت إليه ضميمة . . . ومن المجاز كذلك تلك الصور (القائمة على المجاز بالتشبيه) التى تضع الأشياء أمام العين أو غيرها من الحواس واضحة رائعة ، وتحيل الجماد حياً متحركا ، كالذى كان يفعل « هوميروس » فى كل أشعاره ؛ إذ يجمع الأشياء معاً ، ويربطها برباط من مجاز المشابهة ، ويخلع عليها الحركة والحياة . وهل الحقيقة إلا الحركة ! على أن إدراك وجوه الشبه بين أشياء متباعدة جداً دليـــل على وجود الروح الفلسفى ، وعلى كثير من الحذق عند صاحبه ... وإذا كانت أغلب نواحى الروعة فى الأسلوب إنما تجىء من المجاز ، فإن منها ما يجىء من عناصر الطرافة والجدة ، ومفاجأة السامع ، وخدعه عن نفسه ... وإن من الأمثال ما يكون أصله مجازاً ... وكذلك المبالغات ليست فى حقيقة الأمر إلا مجازات » .

(د) هذا القسم الأخير من البحث — إذن — يصل بنا إلى ترجيح أن عبد القاهر تأثر — على نحو ما — بالبحوث الإغريقية المترجمة ، وانتفع بها انتفاعا ظاهراً فى دراسته لأسرار البلاغة . وهذا التأثر أظهر ما يكون فى النواحى التفريعية والتحقيقية (وهذه ليست الهدف الرئيسى لبحثنا) ، ولكنه باد أيضاً فى المنزع النفسانى العام عند عبد القاهر ، وفى بعض الأسرار التى اهتدى إليها فى كتابه .

غير أن هذا التأثر — كما حاولنا أن نثبت — لا ينافى الأصالة ، ولا ينفى

عن عبد القاهر صفة العالم المبتكر ، ولا يقلل من أهميـة نظريته التى لم يسبقه سابق إلى عرضها وتحقيقها وإفراد موضوعها بالدرس — كما يفرد العالم الحديث موضوعا معيناً للبحث والتنقيب فى رسالة خاصــة . فنهجه وطريقة تأليفه — إذن — من أبرز المعالم فى الدراسات العربية النقدية ، وشخصيته العلمية فى نظريته واضحـة حقا بجانب شخصية أرسطو ، وهذه النظرية تأخذ مكانها فى تفكيره المتصل الحلقات فى كتابيه — « الدلائل » و « الأسرار » . وهو — من بين من تأثروا بالثقافة الإغريقية — أكثرهم نجاحا فى التوفيق بين التفكير الأدبى الذوقى ، والمنهج الفلسفى العلمى . وإن قدرته على تسخير العلم فى كشف أسرار الذوق لدليل على أصالته كفيل بخلوده .

محمد خلف الله

RESUMÉ

Abd-ul-Kahir's Theory in his "Secrets of Eloquence".

(a Psychological Approach).

Abd-ul-Kahir of Jorjân (11th cen. A.D.) was a great scholar renowned for his many-sided achievements in the principal Muslim sciences. He wrote two books on Rhetorics which earned him rightly the name of the 'Founder' of that science in Arabic literature. One of the two books (دلائل الإعجاز) deals with the unsurpassable literary excellences of the "Korân", and the other (أسرار البلاغة) deals with the "Secrets of Eloquence". The two books are having a great influence on the modern Arabic studies of literary criticism; and it is becoming more and more apparent that they approach very near to the modern requirement of systematic treatment.

The present article deals with the second book (أسرار البلاغة); it tries to throw into relief — and criticise — its theory, and to discuss its place in the development of Arabic literary criticism.

The article starts (in section 1) by discussing briefly the relation between the two books, and puts forward the suggestion that they form a coherent theory of literature : the first dealing with the structural aspect of literary composition (النظم), and the second with the aesthetic side as it is exemplified in creative images (metaphors, tropes, comparisons and the like). Or — to express it differently — the first deals with composition as a construction in the hands of the writer (or the poet), and the second with composition as a beautiful product to be appreciated and enjoyed. The object of the author was — as he pointed out — to put Arabic literary criticism on a new and scientific basis.

Section 2 of the article summarises — as far as possible —

in the author's own words — the main theoretical contributions of the book. Chief among these are the following :

(a) excellence in literature should be judged by the meaning of the passage and its effect on the mind and soul of the reader rather than by the verbal aspects, *(b)* the beauty of tropes (استعارات) lies in the fact that they give the style novelty, vigour, and movement, and they bring out the hidden thoughts into a perceptual relief, *(c)* composite comparisons by similitude please the human understanding for a variety of reasons. All human souls enjoy being transferred from the hidden to the visible, from the abstract to the concrete, and from what is known by reflection to what is known intuitively or through sense perception. Men naturally enjoy seeing different things unified by links of similarities, and the enjoyment is enhanced when the discovery is reached after a reasonable amount of longing and search. The virtues of intellect are : thinking, reflection, analogy, and inference; and all these are exercised in creating and in perciewing relations between different things. The rhetorical figures are the embodiment of all these considerations.

Section 3 brings out the basic principle in all these discussions : namely that the test of literary excellence is — or should be — the effect of creative images on the mind and soul of an appreciative reader. This approach is not an isolated notion; it is part of a psychological atmosphere which permeates the whole book. The author invites you again and again to try the method of introspection after reading poetry; he comes very near the Gestalt theory when he is dealing with the perception of whole and parts; he dwells repeatedly on aesthetic sense and artistic temperament in enjoying literatune; he refers the reader to the fundamental characteristics of the mind; and he often uses psychological analysis to illustrate the beauty of certain classical verses and expressions. The text in his hand gives all it can offer in original and suggested meanings without losing its artistic unity and atmosphere.

Sections 4 and 5 trace briefly the development of the main currents of Arabic literary criticism in the first four centuries of Islam, and try to distinguish cultural influences which contributed to the enrichment of the Arabic mind (especially in the 9th and 10th cents. A.D.) Certain Muslim scholars : such a Al-Gahez, Al-Kādy Al-Jorjâny, and Abu-Helal-al-Askary, were found to anticipate Abd-al-Kahir in some aspects of his theory. Comparisons of Abd-el-Kahir's "Secrets of Eloquence" with Avicenne's Arabic version of Aristotle's "Poetics and Rhetorics" lead one to infer that Abd-al-Kahir must have studied that version and made use of it, especially in the section on Diction and style. The article points out these various influences, as well as some defects in his theory (as seen by the modern eye) but manitanis — in conclusion — that they do not diminish the worth of his originality and scholarly abilities. Among Arabic literary scholars — who had contact with Greek culture — he is almost unique in the fact that he never lost his independent personality. He was most successful in harmonising the requirements of scientific treatment with the spontaneity of literature. His approach seems — to the present writer — to have been a step in the right direction. It provides a classical example of the application of psychological thought to the enlightenment of literary criticism — a tendeney which seems to characterise this branch of study in our own time.

M. Khalafallah.

المراجع كما وردت فى البحث

١ — عبد القاهر الجرجانى : « أسرار البلاغة » طبعة ١٣٤٤ هـ و دلائل الإعجاز طبعة ١٣٣١ هـ .

٢ — القاضى (أبو الحسن) الجرجانى : « الوساطة بين المتنبى وخصومه » طبعة العرفان ١٣٣١ هـ .

٣ — عبد الوهاب السبكى : « طبقات الشافعية الكبرى » ط . ١٣٢٤ هـ . ج ٣ .

٤ — جلال الدين السيوطى : « بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة » ط . ١٣٢٦ هـ .

٥ — ابن العماد الحنبلى : « شذرات الذهب فى أخبار من ذهب » طبعة القدس ج ٣ .

٦ — بروكلمان (Karl Brokelmann)

"Geschichte der Arabischen Litteratur" مجلد أول وملحقه .

٧ — يحيى بن حمزة العلوى : « الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز » ، دار الكتب ١٣٣٢ هـ .

٨ — طه حسين : « تمهيد فى البيان العربى من الجاحظ إلى عبد القاهر » بحث بالفرنسية . ترجمه إلى العربية عبد الحميد العبادى فى مقدمة كتاب نقد النثر لقدامة — لجنة التأليف سنة ١٣٥٩ هـ .

٩ — أمين الخولى : « البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها » بحث ١٣٣١ هـ .

١٠ — إبراهيم مصطفى : « إحياء النحو » لجنة التأليف ١٩٣٧ م .

١١ — أبو هلال العسكرى : « كتاب الصناعتين » طبعة الآستانة ١٣٢٠ هـ .

١٢ — ابن قتيبة : « الشعر والشعراء » ط . ١٣٥٠ هـ .

١٣ — الجاحظ : « البيان والتبيين » ج ١ طبعة السندوبى ١٣٥١ هـ .

١٤ — خلف الله : « بعض التيارات الفكرية التى أثرت فى دراسات الأدب » . مجلة كلية الآداب جامعة فاروق الأول مجلد مايو سنة ١٩٤٣ م ، « أدب الفكاهة فى التأليف العربى » الثقافة بالعددين ١٣٧ ، ١٤٠ .

١٥ — طه أحمد ابراهيم : « تاريخ النقد الأدبى عند العرب » لجنة التأليف ١٩٣٧ م .

١٦ — المبرد : « الكامل » ج ٢ ط . ١٣٥٥ هـ .

١٧ — أحمد أمين : « ضحى الإسلام » ج ١ ط . ثالثة .

١٨ — قدامة بن جعفر : « نقد الشعر » طبعة الجوائب ١٣٠٢ هـ ، « نقد

النثر » ، لجنة التأليف ١٣٥٩ هـ .

١٩ — عبد الحميد العبادى : « تحقيق فى حياة قدامة » كتاب نقد النثر لقدامة . ١٣٥٩ هـ .

٢٠ — الثعالبى : « يتيمة الدهر » ج ٤ ط . ١٣٥٢ هـ (الصاوى) .

٢١ — ياقوت : « معجم الأدباء » ج ٨ ، ١٤ طبعة الرفاعى ١٣٥٥ هـ.

٢٢ — زكى مبارك : « النثر الفنى فى القرن الرابع » ج ٢ . دار الكتب ١٩٢١ م .

٢٣ — فون جرونباوم (Gustave von Grunebaum)

"Arabic Literary Criticism in the 10th cen. A.D."

J. Am. Orien. Society. March 1941.

٢٤ — ابن النديم : « الفهرست » طبعة مصر ١٣٤٨ هـ .

٢٥ — بايووتر (Ingram Bywater)

"Aristotle on the Art. of Poetry" Oxford 1909.

٢٦ — أبركرومبى : « قواعد النقد الأدبى » ترجمة محمد عوض لجنة التأليف ١٩٣٦ م .

٢٧ — ابن سينا : « منطق الشفا » مخطوطة شمسية رقم ٥٣ ٢٦٠ ، مكتبة جامعة فؤاد الأول .

٢٨ — مرجليوث (D. S. Margoliouth)

"Wit and Humour in Arabic Authors"

مقال فى المجلد الأول من مجلة Islamic Culture

٢٩ — سانتيلير (J. Barthélemy Saint-Hilaire)

"Rnétorique d'Aristote" Paris 1870.

٣٠ — ابن رشيق : « العمدة فى محاسن الشعر وآدابه » ، ج ١ طبعة القاهرة ١٣٥٣ هـ .

٣١ — دى تاسى (M. Garcin de Tassy)

"La Rhétorique des Nations Musulmanes"

مقالات نشرت فى المجلة الأسيوية الملكية فى نهاية النصف الأول من القرن التاسع عشر ملخصة عن كتاب « حدائق البلاغة » لمؤلفه أمير شمس الدين فقير الدلهى .

تقسيمات إقليمية

فى العصر العباسى الأول

ظهور الشرق الأدنى فى الإسـلام

يقسم معاصرونا من المؤرخين الإسلام من الناحية السياسية إلى شرق وغربى ، ويجعلون إيران والعراق والشام ومصر وما حول هذه البلاد مشرقا ، وإفريقية والأندلس وما حولها مغربا ، ونريد نحن أن نضيف إلى هذا : تقسيم المشرق الإسلامى إلى قسمين : شرقى وغربى ، ونريد أن نرتفع بهذا التقسيم إلى بوادره الأولى التى سجلتها كتب التاريخ الإسلامية القديمة .

وقد كان الإسلام فى القرن الأول وبعض القرن الثانى ، أيام دولة الراشدين والأمويين وابتداء دولة العباسيين ، وحدة سياسية غير متجزئة ، ثم ظهر التجزؤ مع قيام الدولة العباسية تقريباً ، وكان تجزؤا جرت إليه طبائع الأشياء ولم يسلم به الفقهاء من الناحية النظرية ، وقد كان موقف هؤلاء من ظاهرة التجزؤ هذه التى نسميها بانفصال الأطراف ، أو التى يسميها القدماء . بظاهرة قيام المتغلبين ، كان موقفهم منها نظرياً صرفا ، لأنهم اعتبروا الخلافة الشيعية أو الخلافة الخارجية مثلا غير شرعية ، وأفتوا هم والخلفاء السنيون بمعاملتها معاملة أهل الحرب ، وجعلوا أساس سلطان المتغلبين من ملوك الأطراف ما كان يصدره الخليفة لهم من تقليد ، وعلى هذا النحو حفظوا على الخلافة وحدتها النظرية ، ولكن المتأخرين من الفقهاء نظروا إلى هذه الظاهرة نظرة عملية ، وأجازوا قيام خلافات متعددة ، ونريد نحن أن نحذو حذو المتأخرين ، وألا نهرب من ملاحظة أى

انفصال أو ميل إلى الانفصال كما هرب القدماء الحريصون على سلامة مبدأ وحدة مصدر السلطان فى الإسلام ، وها نحن نقصد الآن إلى تتبع مظاهر التجزؤ فى ناحية خاصة لم يدرسها المؤرخون ، ولكنهم أشاروا إليها إشارات عاجلة ، ولم يرتفعوا إلى أصولها ، وهى ظهور تقسيمات إقليمية فى المشرق دون أن ينفرد بأمورها متغلبون ، وسنقف عن تتبع هذه الظاهرة عند قيام الدولة الطولونية « بالمغرب » أو قل بمصر ، فكلا التعبيرين صحيح ، أو قل إن شئت بشرقنا الأدنى الحديث ، فليس هذا التعبير بأقل صحة ، وإنما نقف عند الدولة الطولونية لأن التقسيم الإقليمى يصبح واضحاً عندئذ ، ولأن قيام الدولة الطولونية ومحاولتها بسط نفوذها على الشام والثغور والحجاز ليس إلا استجابة وتحقيقاً لهذا التقسيم الطبيعى الذى ظهرت بوادره فى المشرق الإسلامى منذ قيام الدولة العباسية تقريباً .

١

ولسنا نزج بهذا التقسيم عبثاً ، وإنما هو تقسيم أشار إليه الأقدمون وعرفوه وأحسوا به ورتبوا عليه ما أطلقوا على نواحى المشرق من مسميات ، وهذا جليس من جلساء الخليفة الهادى[1] يحدثه عن مصر ، فلما طال الحديث عنها قال له الخليفة « دع عنك ذكر المغرب وأخباره ، وهلم بنا إلى ذكر فضائل البصرة والكوفة ، وما زادت به كل واحدة منهما على الأخرى » ، ومما يؤيد إطلاق اسم المغرب على مصر أن الذين انتقلوا منها إلى العراق ثم دخلوا الجندية أيام المعتصم ، أو الذين فرض لهم ، إن أردنا أن نستعمل لغة العصر نفسه ، كانوا يسمون « بالمغاربة[2] » .

ولم يكن لفظ المغرب هذا يقتصر على مصر وحدها ، وإنما كان يشمل كذلك

---

(١) هو عيسى بن دأب ، انظر المسعودى ، مروج الذهب ط . بغداد ج ٢ ، ص ٢٥٦ — ٨ .
(٢) مروج الذهب ، ج ٢ ص ٣٤٩ .

كل ما يقع غربى إقليم العاصمة العراقية ، ولسنا نعتقد أن أساس هذا الإطلاق جغرافياً من أن كل إقليم ذى مركز لا يخلو من أن يكون له مشرق ومغرب ، ولكنا نعتقد أن الإطلاق مقصود لذاته للدلالة على تقسيم بعينه .

وتحدد النصوص التاريخية هذا المغرب تحديداً دقيقاً أحيانا ، حين تذكر ولاية المغرب التى ظهرت بعد قيام العباسيين بقليل والتى سنتكلم عليها فيما بعد ، فبعضها يقول المغرب فقط أو المغرب كله دون تحديد آخر(١) ، وبعضها يحدده تحديداً أضبط فيقول من الأنبار إلى إفريقية(٢) ، وقد يريد المؤرخ المغرب فلا يستعمل هذا الاصطلاح ، ويذكر أسماء بلاد ولاية المغرب فيقول « إفريقية — يعنى ما بقى فى سلطان الخلافة العباسية منها — ومصر والشام والجزيرة(٣) » .

ولكنا رغم هذا التحديد الدقيق نجد بعض النصوص تستعمل لفظ المغرب استعمالا ضيقاً ، فتقول الموصل والشام والمغرب(٤) ، فلفظ المغرب هنا يشمل مصر والقسم الشرقى من إفريقية شمولا مفهوما من السياق والأحوال ، ويتأيد هذا المدلول المفهوم بنص آخر أكثر صراحة يقول « إفريقية والمغرب كله من عريش مصر إلى حيث بلغ سلطانه من المغرب(٥) » ، ولكنا لا نلتزم بهذين

---

(١) طبرى ، ط . الحطيب (المطبعة الحسينية بالقاهرة) ج ٩ ص ٣٤٥ أخبار سنة ١٦٣ ، نفسه ج ١٠ ص ٣٤ سنة ١٧٠ ، نفسه ج ١٠ ص ٢٧٧ سنة ٢١١ ، نفسه ج ١٠ ص ٢٧٨ سنة ٢١١ ، نفسه ج ١١ ص ٢٣٦ سنة ٣٦٢ ، ابن الأثير ط . إدارة الطباعة المنيرية بمصر ج ٥ ص ٦٣ سنة ١٦٣ .

(٢) ابن الأثير ج ٥ ص ٧٤ سنة ١٦٤ ، طبرى ج ١٠ ص ٢١ سنة ١٦٩ ، ١٩٠ ، جهشيارى ، نفسه ١٥٠ .

(٣) جهشيارى ص ١٠١ ، ابن الأثير ج ٥ ص ١١٢ سنة ١٨٦ ؛ نفسه ج ٥ ص ١٧٢ سنة ١٩٨ ، نفسه ج ٥ ص ١٩٧ سنة ٢٠٦ ، من الرقة إلى مصر ، نفسه ج ٥ ص ٢١٦ سنة ٢١٣ ، « الشام ومصر » .

(٤) طبرى ج ١٠ ص ٢٢٦ سنة ١٩٨ ، ابن الأثير ج ٥ ص ١١٢ سنة ١٨٦ ، نفسه ج ٥ ص ١٧٢ سنة ١٩٨ .

(٥) طبرى ج ١١ ص ٣٨ سنة ٢٣٥ .

التحديدين ، لا بالتحديد المفهوم ولا بالتحديد المعين المنصوص عليه ، لأن لفظ المغرب فى النص الأول دل على مصر لأنها نواة المغرب ، ولأن الذى ضيق مدلول اللفظ فى النص الثانى ضرورة من الضرورات هى عدم الجمع بين مصر والشام فى يد وال واحد(١) .

وليس لنا أن نقول إن للفظ المغرب مدلولا شاملا ومدلولا محصورا ، فإن وسّعته جعلته من الأنبار إلى « أقصى ما بلغ سلطانه من المغرب » ، وإن ضيقته دل على مصر وحدها ، وإنما الواقع أن المغرب يدل على كل هذه النواحى ، ولا يستعمل لبعضها دون بعض إلا إذا التزم النص تعيين جهات دون جهات ، والخلاصة أن لفظ المغرب له مدلول شامل معين لايضيق عنه إلا لضرورات خاصة ، وهو نفسه شرقنا الأدنى الحديث .

وقد تخرج النصوص من هـذا المغرب بلاداً وتدخل عليه بلاداً أخرى ، حسبما يقربه الخلفاء أو تقتضيه قوة ولاة المغرب أنفسهم ، فبعضها تدخل عليه أرمينية وآذر بيجان ، فتقول المغرب كله وآذر بيجان وأرمينية(٢) ، وهذا أداء يدل على أن آذر بيجان وأرمينية ليستا من المغرب وإن دخلتا فى اختصاص واليه ، وقد تخرج النصوص من المغرب العواصم والجزيرة كما حدث فى تولية المأمون أخاه المعتصم « المغرب ماعدا الجزيرة والثغور والعواصم(٣) » . وقد تُدخل فى ولاية المغرب الحجاز واليمن(٤) ، ولعل الإدخال الأخير أحرى وأطبع من إدخال

---

(١) طبرى ج ١١ ص ٣٨ سنة ٢٣٥ أيام المتوكل .

(٢) جهشيارى ٢٧٧ ، ابن الأثير ج ٥ ص ٩٣ سنة ١٦٣ ، طبرى سنة ١٦٣ فى تولية المهدى ابنه هرون العهد ج ٩ ص ٣٤٥ .

(٣) طبرى ج ١٠ ص ٢٧٩ سنة ٢١٣ : ولى المأمون أخاه ... الشام ومصر وولى ابنه ... الجزيرة والثغور والعواصم .

(٤) جهشيارى ٢٧٧ : ديوان خراج الشام ومصر وأفريقية والموصل وأرمينية وأذربيجان والمدينة ومكة واليمن .

أذربيجان وأرمينية فى المغرب ، لما كان فيما بعد من ارتباط مصير الحجاز واليمن بمصير الدول التى قامت فى ولاية المغرب .

هذا هو المغرب ، أما المشرق فتعبير أوضح مدلولا من لفظ المغرب ، وأكثر منه وروداً فى النصوص القديمة[١] ، ولعل من أيسر الأشياء على قارئ هذه النصوص أن يفطن إلى شخصية المشرق لكثرة ما يطرأ من ذكره ، ومع ذلك فقد اختلفت النصوص فى تحديده ، فبعضها جعله يبدأ من مدينة السلام[٢] ، وواضح أن أساس هذا التحديد جغرافى ، وبعض النصوص جعل حدود المشرق تبدأ من النهراوان[٣] ، أو جعلها تبدأ من همذان[٤] ، وهما تحديدان صحيحان أولهما يضم إلى المشرق إقليم الجبل وثانيهما يُخرج منه هذا الإقليم ، ولكننا لا نعرض لهذا المشرق إلا عرضاً سريعاً ، لأننا إنما نقصد المغرب قبل كل شىء .

أما ما يقع بين المشرق والمغرب ، وهو العراق ، فإنه لم يكن أول الأمر من المشرق ولا من المغرب ، لا لتوسطه بينهما ، ولكن لاستقرار الخلافة فيه وغلبة شخصيتها وجلالها عليه ، وقد تأرجح العراق بين المغرب والمشرق كما تدل على ذلك أحداث القرون التالية ، فإنه انضم إلى المشرق أولا ، وظل على ذلك إلى أن نهضت القومية الفارسية نهضتها التى استتبعت إحياء النهضة الفارسية وعدم الحرص على اللغة العربية فأصبح العراق بعروبته أقرب إلى المغرب منه إلى المشرق ، والواقع أن عروبة العراق ميزت بينه و بين فارس منذ القرون الأولى ،

---

(١) طبرى ج ١٠ ص ١٧٥ ، نفسه ج ١٠ ص ٢٧٧ سنة ٢١١ : وهما مثلان من كثير .

(٢) طبرى ج ص ٢٥٥ سنة ٢٠٥ : « من مدينة السلام إلى أقصى عمل المشرق » ، « ولاه خراسان والمشرق » .

(٣) جهشيارى ١٩٠ : المشرق كله من النهروان إلى أقصى بلاد الترك .

(٤) طبرى ج ١٠ ص ٧٢ سنة ١٨٦ « من حد همذان إلى آخر المشرق » ؛ ابن الأثير ج ٥ ص ١١٢ سنة ١٨٦ .

وأنهـا كانت تقرب بينه وبين المغرب وتدمجه فيه منذ العصور العباسية الأولى إدماجا مستتراً أولا ثم واضحاً أخيراً ، ولـكن المؤرخ لا يكتب التاريخ مسترشداً بالمصائر التى انتهت إلى تقريرها الأحداث المتتابعة ، وإنما يكتبه على أنه يجهل المستقبل المعروف إن كان يؤرخ عصوراً خالية ، وهو أحرى أن يجهله إن كان يؤرخ عصوراً حاضرة ، فلنقل إذن إن العراق خضع مع الخلافة لسلطان المتغلبين من المشارقة ، من ترك وديلم وسلاجقة ، وأنه أصبح منطقة نفوذ شرقية لا سبيل للمغاربة إليها ، وقد جهدت الخلافة أن تستعين بالمغرب ، فلم تر إلى هذا سبيلا إلا أن تفكر مرة بعد مرة فى الانتقال إلى المغرب ، وكذلك جهد الخلفاء الفاطميون أنفسهم أن يستولوا على العراق وأن يضموه إلى المغرب ، فرد عليهم العباسيون فى شىء من الاستكبار أنهم لو أرادوا ما نووا للزمهم أن يتغلبوا لا على العراق وحده ولـكن على المشارقة قبل العراق ، وفى هذا دلالة قاطعة على أن العراق من منطقة المغرب ، أو أنه كان كذلك لضعفه عن تأمين حدوده الشرقيـة ، ونحن نظن أنه لو أراد أن يستغرب ما استطاع إلا أن يكون طرفا قصياً منه منضما إلى الشام ، منحرفا عن نواة المغرب التى هى مصر .

ولنعد إلى المشرق ، ولنلاحظ أن نواته كانت خراسان ، كما كانت مصر نواة المغرب ، وأن أقاليم المشرق كلها أو أكثرها كانت تتجمع حوله ، تتبين ذلك من عهد الرشيد لولده المأمون(١) حين أفرده بولاية خراسان وما يضاف إليها ، وجعلها له من بعده تحت ظل الخلافة المعهود بها للأمين ، ونتبين ذلك أيضاً من عهد المتوكل لبنيه الثلاثة ، ذلك العهد الذى ضم للمعتز خراسان وما يضاف إليها من أقاليم المشرق(٢) .

---

(١) طبرى ج ١٠ ص ٧٢ سنة ١٨٦ .
(٢) طبرى ج ١١ سنة ٢٣٥ .

ولا احتجاج على هذا بأن لفظ المشرق قد يذكر إلى جانب خراسان مثل ولاية عامل على « خراسان وطبرستان والرى والمشرق كله[1] » ، أو بأن ذكر المشرق بالجمع لا بالمفرد مثل قوله نواحى المشرق وأعمال المشرق[2] .

أما من الناحية الرسمية فإنا كنا ننتظر ألا يقتصر ذكر المشرق والمغرب على أن يرد فى النصوص التاريخية وحدها ، وأن تتضمن الوثائق الرسمية التى وصلت إلينا من العصر العباسى الأول ذكرهما ، ولكننا لم نجد لهذين الاصطلاحين فى الوثائق الرسمية ذكراً ، وهذا عهد الرشيد لبنيه لايذكر مشرقا ولا مغربا مع أنه ذكر ولاية المأمون خراسان التى هى نواة المشرق ، وفى هذه الحقيقة الملحوظة دليل قاطع على أن ألفاظ المشرق والمغرب لم تكن ألفاظا رسمية من الألفاظ الإدارية التى يتحدد بها إقليم معين ، ولا كانت من الألفاظ التى تعرفها الدواوين فيما يحفظه أصحابها وكتابها من مصطلحات ، وإنما كانت هذه الألفاظ عرفية جارية على الألسنة لتدل على فكرة خاصة يدركها الناس ويعترف بها العرف وتسجلها اللغة ويتناولها المؤرخون حين يتكلمون على الأقطار الإسلامية وحين يتكلمون على وثيقة الرشيد بالذات .

ولا وزن لما قد يحتج به من أن ألفاظ المؤرخين أحدث ظهوراً من ألفاظ الوثائق ، فإن الفارق الزمنى بين وثيقة الرشيد مثلا وزمن مؤرخ كالطبرى (+ ٣١٠) فارق لا تأثير له ، لأن الطبرى وغيره يرفعون رواياتهم إلى من عاصروا الحوادث التى يسردونها ، ويحتفظون فى هذه الروايات بألفاظ الرواة اعتقاداً منهم بأن التاريخ يجب أن يكون رواية لا تصويراً انشائياً ، ولهذا نقول إن ألفاظ المشرق والمغرب قد عرفت فى أوائل العصر العباسى الأول ولكنها لم تدخل

---

(١) طبرى ج ١١ س ٩١ سنة ٢٤٩ .
(٢) طبرى ج ١١ س ٢٣٥ سنة ٢٦١ .

فى اصطلاحات الدواوين ، فقد كانت ألفاظا عامة تكاد لما فيها من صفة العموم تشذ عن مصطلحات الإداريين ، ولكنها كانت ألفاظا لا يستغنى عنها الساسة الذين يدركون ما بين أقطار المشرق والمغرب من فروق فى الجنس والثقافة والأمزجة والطبيعة الجغرافية ، وما تستوجبه هذه الفروق فى السياسة العامة التى تسير عليها الخلافة .

ولو أن هذه الألفاظ لم توجد لاحتاج الساسة إلى خلقها بمعانيها منذ قيام أمبراطورية واسعة ، ثم إنهما بعد أن ظهرت بمعانيها للتمييز بين طبائع الأقطار أصبحت حين سارت الأمبراطورية نحو التجزؤ تدل على قيام وحدات إقليمية خاصة دلالة الاسم على المسمى .

٢

ونريد الآن أن نعرف متى ظهر المغرب والمشرق ، أما أمر المشرق فيكاد يكون ظاهراً معروفا ، فإن الثورة الخراسانية التى أقامت الخلافة العباسية تؤرخ ظهور القومية فى المشرق ، ثم إن قيام الدولة الطاهرية يؤرخ لنا ابتداء تبلور هذا المشرق فى وحدة سياسية خاصة، أما المغرب فأمره أكثر تعقيداً ، لأنه لم يظهر فى عالم السياسة إلا بقيام الدولة الطولونية ، وإن يكن قبل ذلك بقرن تقريباً وميضاً يتلمس سبيل الظهور .

يلوح لنا شخص المغرب من بعض تصرفات الخلفاء الإدارية ، فإن كثيراً من خلفاء العصر العباسى الأول جمعوا ولايات المغرب لبعض أبنائهم أحيانا ، ولبعض كبار رجالهم أحيانا أخرى ، ثم إن كثيراً منهم جمعوا لوال واحد « زمام ولايات المغرب » أو دواوين خراجها أو بريدها أو ضياع أمير المؤمنين فيها[١] .

---

(١) جهشيارى ١٠١ بشأن البريد ، نفسه ص ٢٢٧ بشأن الخراج .

جمعت ولايات المغرب — أولَ ما جمعت — أيام قيام الدولة لعبد الله بن علي صاحب النصر على مروان بالزاب ، وكان من معه من القواد مثل أخيه صالح ابن علي ومثل القائد أبي عون تحت إمرته ، ولـكن هـذا الجمع كان ضرورة حربية ، ولم يكن فيه ما يدل على ربط خاص بين ولايات المغرب .

وجمعت ولايات المغرب بعد ذلك للرشيد في عهد أبيه المهدي سنة ١٦٣[١] ، وهو الجمع الذي يؤرخ بدء ظهور الشرق الأدنى في الإسلام ، ودام هذا الجمع ست سنين إلى وفاة المهدي ، ولعله دام كذلك أيام الخليفة الهادي ، وقد ولي الرشيد في هذه المدة مع المغرب آذربيجان وأرمينية ، وأضيف إليه كاتب خراج وكاتب رسائل ليعيناه على ما ولي من الأعمال[٢] .

ثم جمع الرشيد ولاية العهد والعراق والمغرب لابنه الأمين ، وجعل المشرق من حد همذان إلى آخر المشرق للمأمون ، وجعل لابنه الثالث ما بينهما من إقليم الجزيرة والعواصم والثغور[٣] ، ويكاد القارئ للعهود التي كتبها الرشيد بين أبنائه أو التي أرسلها إلى « الآفاق » يوقن بأن الرشيد أراد تقسيم الدولة حين شرط على

---

(١) لا نظن أن الرشـيد كان في ١٦٣ قادراً على إدارة ما ولي ؛ فإنه لم يكن سنتئذ يتجاوز الثالثة عشرة كما يستفاد من طبري ج ١٠ ص ١١٢ سنة ١٩٣ ، وإنما كان يدبر أمره يحيي بن خالد بن برمك الذي كان له بمثابة الحاضن ، انظر طبري ج ١٠ ص ٢١ سنة ١٦٩ .

(٢) طبري ج ٩ ص ٣٤٥ سـنة ١٦٣ ، نفسه ج ١٠ ص ٢١ سنة ١٦٩ ، نفسه ج ١٠ ص ٣٤ سنة ١٧٠ .

(٣) رواية الطبري ج ١٠ ص ٧٢ سنة ١٨٦ ، تضيف إلى الأمين الشام والعراق ولا تذكر مصر ، ولـكنا نجد مصر غير مضافة لأحد من الثلاثة ، وهي أحرى أن تضاف إلى الأمين ، وقد تدارك هذا النقص ابن الأثير ج ٥ ص ١١٢ سنة ١٨٦ ، فأضاف مصر إلى الأمين ؛ أما ما يضاف للمأمون فلا خلاف عليه ؛ أما ما يضاف إلى القاسم فهو الجزيرة والثغور وقد أضافت له بعض المصادر الشام بدل الجزيرة مثل أبي حنيفة الدينوري في الأخبار الطوال ط . بغداد ص ٣٢٩ ، وسبب هذا التردد في نظرنا أن من يلي الثغور يلي معها ما يدخل في شمالي الشام من إقليم العواصم ، ويؤيد هذا التعليل أن ابن الأثير ج ٥ ص ١٣٧ سنة ١٩٣ ، أضاف للقاسم قنسرين وهي جند من أجناد الشام .

ولى العهد لأخويه ألا يعزلهم وألا ينقصهم مما ولوا شيئاً ، وبعض روايات الطبرى يذكر أن ذلك كان قسمه ، وبعضها يحكى أن بعض العامة قال إنه — يعنى الرشيد — « لما قسم الأرض بين أولاده الثلاثة أحكم أمر الملك » ، وأن بعضهم الآخر قال : « قد ألقى بينهم بأسهم » ، ونحن نوقن أن الرشيد لم يرد مخالفة النظر الفقهى ولا كسر وحدة السلطان الذى لايتجزأ ، ولكن الواقع أن الوثيقة المكتوبة المروية فى الطبرى تذكر الجعل ، وليس بين الجعل والقسمة إلا خطوة يسيرة .

ثم جمع المأمون المغرب لطاهر بن الحسين مرة ثم لعبد الله بن طاهر ثم لأخيه المعتصم مرة ثالثة .

تولى طاهر بن الحسين « الموصل والجزيرة والشام والمغرب » وحارب نصر ابن شبث الثائر بالثغور [١] ، واستقر فى أثناء ولايته بالرقة منذ ولى سنة ١٩٩ إلى سنة ٢٠٤ ، خمس سنين ، ولكنه ظل عاجزاً مكتوف اليدين كالمحجور عليه ملقى فى ركن من أركان الأرض ، ثم خلفه فى ولاية المغرب ابنه عبد الله بن طاهر ، وكانت الظروف قد تغيرت فأتيح للابن أن يكون نشيطا حيث كان أبوه ساكناً ، واستقر عبد الله بالرقة مثل أبيه طاهر إلى أن انتصر على الثائر ثم دعته الثورات إلى أقاليم المغرب من الشام ومصر ، وظل فى ولاية المغرب تسع سنين إلى أن خلفه المعتصم أخو الخليفة المأمون سنة ٢١٣ على الشام ومصر والعباس بن المأمون على الجزيرة والثغور والعواصم [٢] .

---

(١) طبرى ج ١٠ ص ٢٢٦ سنة ١٩٨ ، نفسه ج ١٠ ص ٢٦٧/٨ سنة ٢٠٩ عن الثغور ؛ نفسه ج ١٠ ص ٢٧٣ سنة ٢١٠ عن مصر ، نفسه ج ١٠ ص ٢٧٥ سنة ٢١٠ ، نفسه ج ١٠ ص ٢٧٦ سنة ٢١١ ، نفسه ج ١٠ ص ٢٧٧/٨ .

(٢) طبرى ج ١٠ ص ٢٨٤ سنة ٢١٨ ؛ كما هو ظاهر من أوامر الرشيد إليهما ، انظر كذلك ج ١٠ ص ٢٩٢ سنة ٢١٨ ، نفسه ج ١٠ ص٢٨١ سنة ٢١٥/١٦/١٧ ، =

وهكذا ظل المغرب ولاية واحدة أكثر خلافة المأمون ، ولم ينفصل عنه إقليم الجزيرة والثغور إلا لأنه تقوم عن العالم الإسلامى بمهمة خاصة طبعته بطابع خاص فأصبح إقليما مجاهداً وتحكم الجهاد فى مصائره ، ولهذا أفرده المأمون عن ولاية المغرب كما أفرده الرشيد من قبل .

ثم جمعت ولايات المغرب كذلك فى أيام الخليفة المتوكل لولى عهده المنتصر حين عهد إليـه وإلى أخويه المعتز والمؤيد من بعده ، ضم المتوكل إلى المنتصر « إفريقية والمغرب كله من عريش مصر إلى حيث بلغ سلطانه من المغرب » وجند قنسرين والعواصم والثغور الشامية والجزيرة ، كما ضم إليه بعض أقاليم العراق وبعض أقاليم الشرق والشمال[١] ، ونلاحظ أولا أن الشام نفسها لم تعط لوالى المغرب الذى هو ولى العهد ، وإنما أعطيت لأخيه المعتز خليفة ولى العهد ، وأن سلطان والى المغرب محيط بالشام من كل جهة إحاطة جعلت إخراجه من اختصاص والى المغرب خالياً من المعنى والأهمية ، ونلاحظ من ناحية أخرى أن النص الذى يذكر ما ضم لولى العهد المنتصر والى المغرب نص فى غاية من الطرافة لأنه يذكر إفريقية إلى جانب المغرب ، ويدل على أن كلا منهما إقليم مستقل ، ولأنه أراد ذكر المغرب واستثناء الشام منه فقال المغرب وحدده « من عريش مصر » ليخرج الشام ، ثم حدد المغرب من ناحية الغرب وذلك بعد ورود لفظ إفريقية كأن هذا اللفظ أقصر من لفظ المغرب .

ثم هناك ملاحظة أخرى جديرة بأن تحتل مكانا ممتازاً ، ذلك أن والى المغرب اتخذ لنفسه شارات خاصة ، كان اسمه يذكر على الأعلام والمطارد —

نفسه ج ١٠ ص ٢٨٠ سنة ٢١٤ لترى من كل ذلك أن المعتصم كان يلى فعلا ولاية المغرب ويمارس الإدارة بها .

(١) طبرى ج ١١ ص ٣٨ سنة ٢٣٥ ، نفسه ج ١١ ص ٧٩ سنة ٢٤٨ .

وهى الرماح فيما أظن لأنى لم أجد اللفظ فى القاموس — وكانت توسم باسمه دواب الجند من شاكريه ورابطه[1] ؛ هذا إلى ذكر والى المغرب فى الخطبة وفى الكتب التى ترسل إلى الآفاق ، وفى كل هذا ما يشعر بأن والى المغرب أصبح شخصية إدارية مستقرة لها مستلزماتها من الشارات وأن ولاية المغرب قد اكتسبت من هذه الشخصية الإدارية المستكملة شيئاً جديداً من الوحدة .

ثم جمعت ولايات المغرب كذلك أيام الخليفة المعتمد لابنه وولى عهده المفوض ، كما جمع المشرق للموفق أخى الخليفة[2] ، ويلاحظ أن والى المغرب كان هذه المرة « حدثا لم يكمل » كما كان الرشيد من قبل أيام ولايته المغرب ، فأقام الخليفة مع ابنه قائداً كبيراً من قواد الترك هو موسى بن بغا ، فكان هذا القائد يتولى عن والى المغرب سلطانه ، ومعنى هذا أن الولاية لم تنشأ لكى يتولاها ولى العهد بنفسه ، ولكن لتنسب إليه فقط ، ولهذا المعنى خطره العظيم فى عصر ضعفت فيه الخلافة وتحكم فيها الأتراك ، هذا الخطر هو أن المغرب لم يعد ولاية تشريفية لايتولاها إلا ولى العهد وإنما أصبح ولاية يطمع فيها ذوو المطامع من الأتراك كما كانوا يطمعون فى السيطرة على الخلافة ، ولم يكن مستحيلاً أن تنتقل هذه الولاية إلى الأتراك الذين كانوا يبيحون لأنفسهم كل المطامع ، ولم يكن لولاية المغرب من القداسة ما كان للخلافة وما كان يرفعها عن متناول الأتراك ، كان التحول ممكناً . وقد تحقق حين قامت بمصر شخصية كشخصية ابن طولون استطاعت أن تعطى للمغرب شخصيته الحقيقية المستقلة عن الخلافة المحتفظة بالوحدة النظرية التى تشمل العالم الإسلامى كله ، وهكذا كان ابن طولون صورة جديدة من والى المغرب الذى برق فى الجو أيام قيام الدولة العباسية ثم ظهر فى

---

(١) طبرى ج ١١ ص ٧٩ سنة ٢٤٨ .

(٢) طبرى ج ١١ ص ٢٣٦ سنة ٢٦٢ .

أيام المهدى ، ونما بعد ذلك إلى أن استكمل شخصيته أيام المتوكل ، وإلى أن تحول إلى حاكم متغلب أيام المعتمد وابن طولون .

٣

واختصاص ولى العهد الأول بالقسم الغربى من المشرق يدفعنا إلى أن نفطن إلى أهمية هـذا المغرب الذى تصرفنا أحداث المشرق الصاخبة عنه ، وإلى أن نعتقد أنه كان أهم شأنا وأمس بكيان الدولة من المشرق ، لأننا نتصور أن يجرى الأمر فى الولايات على ما كان يجرى عليه فى ترتيب الجلوس بحضرة الخليفة ، فقد كان ولى العهد الأول يجلس على يمين الخليفة ، وكان ولى العهد الثانى يجلس على يساره ، ولا نتصور أن يلى ولى العهد المغرب دائماً وأن يكون المشرق فى نفس الوقت أهم وأعظم .

ومع هذا فإنا لا نجد أحداً من المؤرخين جعل للمغرب فى هذا العصر شأنا أهم ولا وجوداً أمس بكيان الدولة من المشرق ولا مكانا ممتازاً ، ولعل السبب فى ذلك أن الأحداث السياسية الجليلة إنما وقعت بالمشرق من الدعوة العباسية وقيام الشعوبية الخراسانية وظهور العناصر التركية ، وإذن لابد من أن نقرر أولوية المغرب وأن نتبين أهميته ومكانته التى جعلته النصيب الأوفى الممتاز المخصوص بولى العهد .

أما مصر وهى نواة المغرب ومحور الارتكاز فيـه ، فإن لامانس يرى أن أهميتها فى العصر الأموى « إنما هى أهمية اقتصادية فحسب ، فهى تنتج الحبوب وتصنع البردى وتدفع الضرائب » كما يرى أن « ساسة هذا الوقت لم يقدروا فيها إلا هذه الاعتبارات الواقعية[1] » ، وأظن أن لامانس لم يرد قصر هذا الحـكم

Lam mens : Scécle des Omeyyades P. 308, Beyroufhe 1930 (١)

على العهد الأموى ، فإن مصر العباسية لم تزل تدفع الضرائب وتنتج الحبوب ولم تزل كذلك تصنع البردى[١] ، وأظن أن لامانس تبع حرفية النصوص التى تذكر مصر ولم يرد أن يفهم غير ما فهم ، وأعتقد أنا أن مصر كانت ممتازة المكانة ، كان اسمها يتردد على ألسنة الساسة فى كل فتنة ، فكان على بن أبى طالب ، فى أثناء نزاعه مع معاوية ، يعرف قيمة مصر ؛ ويؤثر عنه أنه قال « إن مصر أعظم من الشام أكثر خيراً وخير أهلا ، تغلبوا على مصر ، فإن بقاء مصر فى أيديكم عز لكم وكبت لعدوكم[٢] » ، وكذلك كان رأى العلويين بعد أكثر من قرن ، فإن الناس أشاروا على محمد النفس الزكيـة حين ثار على العباسيين أن « الرأى أن تسير بمن معك — من الحجاز — حتى تأتى مصر ، فوالله لايردك راد ، فتقاتل الرجل — يعنى المنصور — بمثل سلاحه » لأنك إنما تقاتل العراق « أشد بلاد الله رجلا وأكثرها مالا وسلاحا[٣] » .

الواقع إذن أن نظرة لا مانس نظرة ضيقة ، وأننا لا نستطيع أن نهمل أهمية مصر من الناحية الحربية ، فان البلاد فى رأى السياسة كانت ذات رجال وسلاح ، ويؤيد ذلك أن رابطة الاسكندرية كانت تبلغ المائة ألف فى أواخر أيام الأمويين كما يقول ابن عبد الحكم[٤] ، والروابط فى مصر كثيرة قائمة فى دمياط ورشيد والفسطاط والحدود الجنوبية ، ونحن نجيب الذين يستشهدون بأوراق البردى على أن الإدارة المصرية على عهد العرب الأولين ، كانت تركز عنايتها فى جباية الأموال ، بأن هذه الأوراق نفسها تثبت أن الجزء الأكبر من هذه الأموال كان يصرف على الحملات الدورية . البرية والبحرية ، وعلى

---

(١) جهشيارى ص ١٣٨ ، كانت مصر صاحبة احتكار هذه الصناعة أيام المنصور .
(٢) طبرى ج ٦ ص ٦١ سنة ٣٨ .
(٣) طبرى ج ٩ ص ٢١٨ سنة ١٤٥ .
(٤) ابن عبد الحكم ط . أمريكا ص ٢٣٧ .

الأرستقراطية العربية العسكرية التى تقوم بأعمال حربية مستمرة ، وتلك الأوراق تثبت أيضاً أن الإدارة كانت تعنى بما يلزم لصناعة السفن الحربية من مسامير وسلاسل ، كما كانت تعنى بمؤونة النوتية والمهاجرين المحاربين فى البر والبحر ، وبما يجل عن ذلك ، مما يقتضيه المجهود الحربى[١] ، وليس من شك فى أن مصر عرفت فى ذلك العهد نشاطا حربيا وافراً لم تعهده من قبل فى العصر البيزنطى كله ، وإذن فلا ينبغى أن نخدع عن أهمية مصر بما سادها من هدوء ، فإن مصدر هذا الهدوء أن أكثرية العرب النازلين بمصر كانوا عنفاً موالين للدولة الأموية ، وإذا أردنا أن نرد لمصر حقها فإنما يجب أن نضعها فى منزلة فوق منزلة العراق ، كان العراق موئل معارضة ومعول هدم ، وكانت مصر مهد التأييد ، ونصيراً على البناء ، وما يصدق على مصر الأموية ، يصدق على مصر العباسية ، وإن قل ولاؤها للعباسيين .

أما الشام ، فقد كانت مركزاً عمرانيا كبيراً فى عهد خلفائها الأمويين ، لا يشك أحد فى ذلك وإن عزت الأدلة ، ولا شك أن انتقال مركز الدولة إلى العراق قد نال من تلك المكانة العمرانية ؛ ولكن الشام ظلت بلاداً جليلة الأهمية من الناحية الحربية ، وكانت فى عهد العباسيين ، كما كانت فى عهد الأمويين ، حصن الإسلام الأمامى بسواحلها وثغورها ، كانت مدن الساحل بها محصنة مشحونة بالجند ، وكان بعضها مهيئاً لصناعة السفن ، وكانت حدودها البرية مملوءة بالحصون المشحونة بالروابط ، وقد رم المنصور كثيراً من هذه الحصون ، وقد كان الرشيد يحب الإقامة فى الرقة رغبة فى الغزو بثغور الشام ، وقد قضى المأمون السنين الثلاث الأخيرة من خلافته بالشام وخاصة بمصر ، ولقد أراد المتوكل أن ينتقل عن العراق إلى دمشق ، حين أحس بوطأة الأتراك

(١) انظر مقالتنا عن صاحب الكورة فى عدد السنة الماضية .

فلم يتم له ذلك لسبب من الأسباب ، ومن قبل أراد الأمين فى ساعة الضيق أن يحيى العصبية العربية الشامية الحربية ، وأقره على ما أراد وزيره الفضل بن الربيع ، وعمه الشيخ صالح بن على ، الذى كان يقول عن عرب الشام « هؤلاء أناس قد حنكتهم الشدائد وعركتهم الأيام »[١] .

وأيا ما تكن أهمية مصر والشام من الوجهة الحربية ، فإن الخلافة قد اعتبرت ثغور الشام ثغورها الأولى ، ولو جاز لها أن تهمل المغرب لما استجازت هى أن تهمل ثغوره ، ولما جاز لها ذلك .

ثم إن الخلفاء كانوا يحسون أن المغرب أولى لهم وأيسر مؤونة ، ولعله كان كذلك أسهل طاعة ، فقد كان المغرب يمتاز حقا بسهولة الطاعة ، وهى ميزة كل ما انتقل من البلاد من يد الروم إلى يد العرب ، وأنه لا مفر من أن نلاحظ أن البلاد التى شملتها السيادة الرومية كانت أيسر فتحا وأسهل طاعة ، إذا استثنينا فتح الشام . وأظهر ما نلاحظ ذلك فى أفريقية ، فإن الجزء التونسى الذى صقلته بيزنطة كان سهل الفتح سهل الطاعة ، على حين كان أجزاء إفريقية الأخرى أقوى معارضة ، وأقدر على العصيان ، وكانت تلك الميزة ذات قيمة لدولة كالدولة العباسية نهضت فى مشرقها حركة شعوبية على حد التعبير العربى القديم أو قومية كما نقول نحن الآن .

والمغرب كله من مصر وشام وعواصم منسجم الأجزاء بحكم ماضيه المشترك وتقاليده المتقاربة ، فقد جمعه الروم والرومان واليونان من قبلهم تحت سلطانهم بضعة قرون وصبغوه بصبغة يونانية ظاهرة ، كان من نتائجها التقريب بين أجزائه ، ثم إن هذا المغرب اجتاز محنة الفتح العربى الأولى ، وقاسى منها

---

(١) طبرى ج ١٠ ص ١٦١ سنة ١٩٦ ، « أهل الشام قوم قد ضرستهم الحرب وأدبتهم الشدائد » ، هذا هو صحة النص .

ما قاسى ، ثم أصبح موئل العروبة ، وصارت تلك الصبغة تبدو فيه ، بحكم الظروف السياسـية العامة ، وقد أحس الخلفاء بهذه الروح فاتجه حنينهم إلى المغرب قبل أن تسوده روح المعارضة سيادة تامة على يد الفاطميين ، والمغرب كله من ناحية أخرى منسجم الأجزاء من الناحية الجغرافية .

***

ولعل من فائدة هذا الاستقصاء : أن نفهم فهما دقيقاً لفظ المغرب الذى ترده النصوص ، وأن ندرك ظاهرة من ظواهر انفصال الأطراف فى نشأتها ، وأن نصل هذه البوادر بالحالة السياسية التى قامت فيما بعد وأن نشرح بها بعض التصرفات السياسية والإدارية ، وأن نفطن إلى أهمية المغرب فى العالم الإسلامى فى العصور الأولى ، وأن نشاهد فى ظل لفظ المغرب ميلاد الشرق الأدنى الحديث فى الإسلام .

م . ع شعيرة

بحث فى اشتقاق «حروف العلة»

لقد كان من نتائج تحليل علماء « الفوناتيك » للأصوات اللغوية أن قسموها إلى قسمين رئيسيين سموا الأول منهما Consonants والثانى Vowels ، أو كما يسميهما بعض المحدثين فى مصر أصواتاً ساكنة وأصوات اللين .

وأساس هذا التقسيم عندهم الطبيعة الصوتية لكل من القسمين . فالصفة التى تجمع بين كل أصوات اللين « Vowels » هى أنه عند النطق بها يندفع الهواء من الرئتين فيحرك الوترين الصوتيين فى الحنجرة — كما هو الحال مع كل الأصوات المجهورة — ثم يمرّ فى الحلق والفم فى ممر ليس فيه حوائل كما يحدث عند النطق بالجيم مثلا ، ولا يضيق هذا الممر فيحدث الصوتُ نوعاً من الصفير أو الحفيف كما هو الحال عند النطق بالسين أو الفاء مثلا .

فصفة الجهر ليست مما تختص به أصوات اللين ، بل يشترك فيها معها معظم الأصوات الساكنة « Consonants » . وإنما الذى تختص به أصوات اللين هو كيفية مرور الهواء فى الحلق والفم والحالة التى يكون عليها مجرى النفس عند النطق . هذه هى الصفة المشتركة بين جميع أصوات اللين والتى ميزتها كل التمييز عن الأصوات الساكنة التى إما أن يعترض مجراها حوائل — تكون دائماً عند مخرج الصوت — أو يضيق عنده هـذا المجرى ، فنسمع ذلك النوع من الصفير أو الحفيف . فالجيم القاهرية مثلا صوت مجهور ككل أصوات اللين ، ولكن عند النطق ، ينحبس مجرى النفس عند المخرج وهو أقصى الفم ثم يفتح المجرى فجأة فنسمع نوعاً من الانفجار جعل علماء مخارج الحروف من العرب

يسمون أمثال الجيم من الأصوات « حروف الشدة » كالدال والكاف والقاف والباء والتاء . ولكن الفاء وأمثالها يضيق مجرى النفس عند النطق بها فيحدث الهواء عند مروره فى مخرج الصوت نوعا من الصفير أو الحفيف يختلف تبعاً لضيق مجرى النفس .

ولسنا نعنى بالصفير هنا ما قصده علماء مخارج الحروف من العرب حين قصروا الصفير على « السين والصاد والزاى » ، ولكننا نعنى ما هو أعمّ ، فكل احتكاك للنفس فى ممر ضيق يسمع له صوت يسمى عندنا صفيراً أو حفيفاً . فالفاء عند النطق بها تحدث ذلك الذى نسميه صفيراً أو حفيفاً ، وكذلك الذال والثاء ... الخ .

وترتب على اختلاف كيفية مرور الهواء فى حالتى النطق بالأصوات الساكنة وأصوات اللين أن علماء الفوناتيك لاحظوا أن الأصوات الساكنة على العموم أقل وضوحا فى السمع من أصوات اللين . فأصوات اللين تسمع من مسافة عندها قد تخفى الأصوات الساكنة أو يخطأ فى تمييزها . فالفتحة مثلا تسمع بوضوح من مسافة أبعد كثيراً مما تسمع عندها الفاء .

ولهذا عدّ الأساس الذى بنى عليه التفرقة بين الأصوات الساكنة وأصوات اللين أساساً صوتياً ، وهو نسبة وضوح الصوت فى السمع . ففى الحديث بين شخصين بعدت بينهما المسافة قد يخطئ أحدهما سماع صوت ساكن ، ولكنه يندر أن يخطئ سماع صوت لين ، وكذلك الحال فى الحديث بالتليفون .

وليست كل أصوات اللين ذات نسبة واحدة فى الوضوح السمعى ، بل منها الأوضح ، كما أن الأصوات الساكنة ليست جميعها ذات نسبة واحدة فيه ، بل منها الأوضح أيضاً ولهذا عدّ الفرق فى الوضوح السمعى بين الأصوات الساكنة وأصوات اللين مبرراً كافياً لتقسيم الأصوات اللغوية إلى هذين القسمين الرئيسيين .

هذا إذا نطق بالأصوات منفردة، أمّا عند النطق بها في كلمات أو جمل، فهناك عوامل أخرى تزيد أو تنقص من ذلك الوضوح السمعي كطول الصوت وكونه منبوراً أو خالياً من النبر والنغمة الكلامية. فالصوت المنبور أكثر وضوحا في السمع من ذلك الذي خلا من النبر.

والوضوح السمعي الذي بنى عليه التفرقة بين الأصوات الساكنة وأصوات اللين هو تلك الصفة الطبيعية في الصوت لا المكتسبة من طول أو نبرة. فصوت اللين أوضح بطبعه من الصوت الساكن، والصوت المجهور أوضح بطبعه من المهموس وهكذا.

ومن النتائج التي حققها علماء الفوناتيك أن اللام والميم والنون أكثر الأصوات الساكنة وضوحا وأقربها إلى طبيعة الأصوات اللينة. ولذا يميل بعضهم إلى تسميتها «أشباه أصوات اللين». ومن الممكن أن تعدّ حلقة وسطى بين الأصوات الساكنة وأصوات اللين: ففيها من صفات الأولى أن مجرى النفس معها تعترضه حوائل في حالة اللام والنون وينحبس عند الشفتين في حالة الميم. وفيها أيضاً من صفات أصوات اللين أنها لا يكاد يسمع لها أي نوع من الحفيف. وترتب على شبهها بأصوات اللين أن كانت بطبعها أوضح الأصوات الساكنة.

وأصوات اللين مع أنها عنصر رئيسي في اللغات، ومع أنها أكثر شيوعا فيها لم يعن بها المتقدمون من علماء العربية، فقد كانت الإشارة إليها دائماً سطحية لا على أنها من بنية الكلمات بل كعرض يعرض لها ولا يكوّن منها إلا شطراً فرعياً. وليست العربية وحدها هي التي أهمل في بحثها أصوات اللين بل شاركتها في هذا أخواتها السامية. ولعلّ الذي دعا إلى هذا الانحراف أن الكتابة السامية منذ القدم عنيت فقط بالأصوات الساكنة فرمزت لها برموز، ثم جاء عهد عليها أحسّ الكتاب بأهمية أصوات اللين الطويلة كالواو والياء الممدودتين فكتبوها

فى بعض النقوش والنصوص القديمة ، وظلت الحال هكذا حتى وضعت أصوات اللين القصيرة « الحركات » فى العصور الإسلامية . فالكتابة التى ليست إلا وسيلة ناقصة للتعبير عن الأصوات اللغوية صرفت القدماء عن أهمية أصوات اللين فلم يرمز لها برموز فى صلب الكلمات كما هو الحال فى الفصيلة الهندية — الأوربية .

وهنا يحسن أن أشير إلى ما ذكره ابن جنى فى كتابه « سر صناعة الأعراب » حين عرض لأصوات اللين التى سماها القدماء حركات قال « اعلم أن الحركات أبعاض لحروف المد واللين وهى الألف والواو والياء . فكما أن هذه الحروف ثلاثة ، فكذلك الحركات ثلاث وهى الفتحة والكسرة والضمة . وقد كان متقدمو النحاة رحمهم الله تعالى يسمون الفتحة الألف الصغيرة والكسرة الياء الصغيرة والضمة الواو الصغيرة . وقد كانوا فى ذلك على طريقة مستقيمة ، ألا ترى أن الألف والياء والواو اللواتى هنّ حروف توام كوامل قد تجدهن فى بعض الأحوال أطول وأتم منهن فى بعض ، وذلك إذا وقعت بعدهن الهمزة والحرف المدغم نحو يشاء و دابة ، وهنّ فى كلا الموضعين يسمين حروفا كوامل ؛ فإذا جاز ذلك فليست تسمية الحركات حروفا صغاراً بأبعد فى القياس منه . ويدلك على أن الحركات أبعاض لهذه الحروف أنك متى أشبعت واحدة منهن حدث بعدها الحرف الذى هى بعضه ، إلا أن هذه الحروف التى يحدث لإشباع الحركات لا يكن إلا سواكن لأنهن مدات والمدات لا يحركن أبداً » .

فما سماه القدماء حركات أو حروف مد ولين ليست فى الحقيقة إلا أصوات لين بالمعنى العلمىّ الحديث الذى شرحته آنفاً أى Vowels . فالحركات أصوات لين قصيرة وحروف المدّ أصوات لين طويلة .

وهناك بين الأصوات الساكنة صوتان اختصا بصفات خاصة ميزتهما عن غيرهما وهما الياء والواو . ففى تكوين الياء بدأت أعضاء النطق بمخرج الكسرة

ثم انتقلت بسرعة إلى مخرج الفتحة ، ومثل هذه العملية ينتج الياء التى لها خصائص الأصوات الساكنة لأنه يسمع عند النطق بها نوع من الصفير أو الحفيف وإن كان ضعيفاً جداً . ولها خصائص أصوات اللين لأنها ليست فى الحقيقة إلا نتيجة الانتقال بين صوتى لين . وكذلك الواو بدأت أعضاء النطق معها بمخرج الضمة ، ثم انتقلت بسرعة إلى مخرج الفتحة .

ولهذا سميت الياء والواو فى نحو « ولد يسر عور دلو » أنصاف أصوات اللين .

ويعنينا هنا استعمال الياء والواو كأصوات ساكنة فى اللغات السامية عامة والعربية خاصة . ولكنى سأغفل الإشارة إلى استعمالها فى الأسماء الجامدة والحروف التى لا نستطيع أن نميز فيها بصفة قاطعة أصول الكلمة والزائد فيها . أما الأفعال والمشتق من الأسماء ففى غالب الأحيان يستطيع اللغوىّ أن يؤكد أصولها وأن يميز زوائدها . وباستقراء صيغ الأفعال والأسماء المشتقة لا نكاد نعثر على واو أو ياء ليست أصلا من أصول الكلمة . ففى جميع صيغ الأفعال لا نعثر على الواو التى هى من الأصوات الساكنة ، وليست أصلا من أصول الكلمة إلا فى تلك الصيغة التى يسميها الصرفيون القدماء « افعوعل ، افعوّل » ، وهى صيغة لا ندرى لها أصلا ، ولم ترو لنا مستعملة ، لا فى القرآن الكريم ، ولا فى شعر جاهلى ، ولا أعرف لها نصا عربيا قديماً ، فهى فى رأيى فى عداد الأسماء الجامدة .

أما الأسماء المشتقة ، فقد خلت جميعها من واو أو ياء ، ليستا أصلا من أصول الكلمة ، إلا صيغة « فواعل » فى جمع التكسير التى اختصت بجمع اسم الفاعل أمثال « دوافع ، موانع » . ولكن جموع التكسير من العناصر السامية القديمة التى احتفظت لنا بها اللغة العربية ، دون أخواتها السامية . فنحن إذن نجهل الكثير من تاريخها وتطورها .

أنتقل بعد كل هذا الشرح إلى ما أرمى إليه من هذا المقال . وهو بحث عام فى أصول الياء والواو ، ثم كيف يقلب كل منهما إلى صوت لين طويل . وهذا نوع من البحث يمكن أن يسمى الإبدال التاريخى ، وينتمى هذا البحث إلى ذلك الفرع اللغوى الذى يسميه الغربيون Etymology .

وصلنا فيما قررناه آنفاً إلى أن اللام والنون والميم تعدّ من الناحية الصوتية أشباهاً لأصوات اللين ، وإلى أن الواو والياء أنصاف لأصوات اللين . فهل كان كل من الواو والياء فى الأصل السامى القديم أحد الأصوات الثلاثة اللام والنون والميم ؟ هذه هى النظرية التى سأحاول تحقيقها هنا . لقد فطن المتقدمون من علماء العربية إلى نوع من العلاقة بين الواو والياء من ناحية ، والنون والميم من ناحية أخرى . وقد هداهم لهذا حسهم المرهف ولكنهم لجأوا فى تعليل هذه العلاقة إلى الناحية المنطقية التى ستظهر جلياً حين أروى طرفاً من أقوالهم .

فيقول ابن جنى فى كتابه سر صناعة الأعراب « إنهم أدغموا النون فى الميم لاشتراكهما فى الغنة والهوى فى الفم ، ثم إنهم حملوا الواو فى هذا على الميم فأدغموا فيها النون لأن الواو ضارعت الميم بأنهما من الشفة وإن لم تكن النون من الشفة . ثم إنهم حملوا الياء على الواو فى هذا لأنها ضارعتها فى المدّ ، وإن لم تكن معها من الشفة ، فأجازوا إدغام النون فى الياء » .

ويقول فى موضع آخر « إن للنون شبهاً بحروف اللين قويا لأشياء منها الغنة التى فى النون كاللين الذى فى حروف اللين ، ومنها اجتماعهما فى الزيادة معهن ومعاقبتها لهن فى الموضع الواحد من المثال الواحد ، وكذلك حذفت النون فى لم يك الحق كما حذفوهن — أى حروف اللين — كذلك فى نحو غزا القوم ، وجعلوها أيضاً فى الرفع نحو يقومان ويقومون » .

وجاء فى المقتضب للمبرد « تضارع النون الواو والياء لأنها تزاد فى موضع

زيادتهما . وتـكون النون علامة إعراب وتبدل من الألف وتبدل الألف منها نحو رأيت زيداً ، ففى الوقف تبدل النون ألفاً » .

فنحن إذن نرى أن بعضاً من علماء العربية المتقدمين قد أحسّ ببعض ما نحس به ، وإن أخطأ تفسيره فعمد إلى المنطق يفسر به الظواهر اللغوية .

الواو والياء كانتا فى الأصل إذن أحد الأصوات الثلاثة اللام والنون والميم . وقد أدت عوامل التطور اللغوىّ إلى هذا الانقلاب .

إننا حين نستعرض عوامل التطور اللغوى على ما بهـا من تشعب نستطيع أن نتبين أن أكثرها تأثيراً فى تطور الأصوات بصفة عامة نظريتا السهولة والشيوع ، وهما اللتان سنحاول تطبيقهما على الظاهرة التى نحن بصددها .

أما نظرية السهولة ، فتلك التى تنادى بأن الإنسان فى نطقـه يميل إلى تلمس الأصوات السهلة التى لا تحتاج إلى جهد عضلى فيبدّل مع الأيام بأصوات لغته الصـعبة نظائرها السهلة . وممن أيدوا هذه النظرية Curtius Uhitney . ويعزز هذه النظرية أن الإنسان فى جميع أحواله يميل عادة إلى الناحية السهلة التى لا تـكلفه عناء ولا مشقة . ومما لا شك فيه أن الواو والياء من الناحية الصوتية أسهل من اللام والنون والميم . ولـكن الفرق بينهما ليس مما يحتاج إلى جهد عضلى كبير ، والذى يمكن أن يكون قد برّر الانتقال من النطق باللام أو النون أو الميم إلى النطق بالواو أو الياء ليس عنصر السهولة وحده ، وإنما يضاف إليه أثر شيوع هذه الأصوات فى اللغة العربية . ونظرية الشيوع التى نادى بها Vilhelm Thomsen تقرر أن الأصوات التى يشيع تداولها فى الاستعمال وكذلك الصيغ التى يكثر ورودها فى الـكلام تكون أكثر تعرضاً للتطور اللغوىّ من غيرها .

وقد كان القدماء من علماء العربية . يحسون بصحة هذه النظرية ، وإن

لم يحاولوا تطبيقها فى تفسير كثير من الظواهر اللغوية ، ولكنهم كانوا يشيرون إلى الفكرة فى ثنايا كتبهم ، ولا سيما فى حديثهم عن الترخيم فى النداء ، فابن يعيش يقول ما معناه : إن الترخيم من خصائص النداء ، لأن النداء كثير فى كلامهم والكلمة إذا شاع استعمالها كانت عرضة للاختصار أكثر من غيرها .

وممن آمن كل الإيمان بهذه النظرية وطبقها على اللغة الصينية G. K. Ziph فى كتابه :

Selected Studies of the Principle of Relative Frequency in Language.

فالصوت اللغوى إذا شاع استعماله فى الكلام كان عرضة لظواهر لغوية نسميها حيناً إبدالا ، وحيناً آخر إدغاما ، وقد يتعرض للسقوط من الكلام .

ولتطبيق نظرية الشيوع على اللام والميم والنون . علينا أن نبيّن نسبة تداولها أو شيوعها فى اللغة العربية . لقد حصرت عدد كل منها فى عشرات من صفحات القرآن الكريم الذى لا شك أنه يمثل أصدق الأساليب العربية ، وقد اتخذت هذه الصفحات كنماذج يقاس عليها ، ثم استعنت بأهل الرياضة فأجروا لى تلك العملية الرياضية التى تستخدم فى علم الإحصاء ، وفى كثير من العلوم الحديثة لتغنينا عن استقراء جميع أفراد الأصوات الساكنة فى القرآن الكريم التى تزيد على ثلثمائة ألف من الأصوات . وقد كانت النتيجة التى وصلت إليها أن نسبة شيوع اللام ١٢٧ مرة فى كل ألف من الأصوات الساكنة . والميم ١٢٤ مرة ، والنون ١١٢ مرة . فى حين أن صوتا كالطاء يتكرر ثلاث مرات فقط فى كل ألف من الأصوات .

فاللام والميم والنون ، تكون مجموعة من الأصوات الساكنة هى أكثرها شيوعا فى اللغة العربية . ولا يبعد أن تكون هذه الحقيقة فى كل اللغات السامية .

فمن النظرات الخاطفة أثناء قراءتى فى العبرية والسريانية أستطيع أن أتنبأ بهذه النتيجة .

وشيوع اللام فى اللغة العربية ، يفسر لنا ظاهرة إدغامها فى معظم الأصوات الساكنة حين تكون أداة تعريف . وكتب القراءات والنحو مملوءة بالظواهر اللغوية لإدغام اللام فى كثير من الأصوات الساكنة . ويقول المبرد فى «المقتضب» حين يعرض للكلام على اللام : «واللام تدغم إذا كانت للمعرفة فى ١٣ حرفا ، لا يجوز فى اللام معهن الإدغام ، فإن كانت اللام غير لام المعرفة جاز إدغامها فى جميع ذلك ، وكان فى بعض أحسن منه فى بعض» .

وتدغم النون أيضاً فى كثير من الأصوات الساكنة . وقد أفرد لأحكامها أبواب فى كتب القراءات ، فهى تظهر حيناً ، وتخفى حيناً آخر ، وتقلب وتدغم ، ولكل مواضعه ، مما فصلته كتب القراءات . والنون عرضة أيضاً للسقوط من الكلام من نحو : لم نك نطعم المسكين . ونون التنوين تسقط فى الوقف والإضافة والتعريف بأل . وهكذا من الظواهر اللغوية ، التى تعرض للنون فى اللغة العربية .

وربما كان إدغام النون فى اللغة العبرية ، أكثر منه فى العربية . فالمستشرقون يكادون يجمعون على أن أداة التعريف العبرية هى : «هَنْ» فى الأصل ، وتدغم نون هذه الأداة فى أوائل الأسماء فتشدد لهذا إلا إذا كانت أوائل الأسماء من أصوات الحلق ، مما هو معروف فى قواعد اللغة العبرية . بل لقد أفردت اللغة العبرية الأفعال التى فاؤها نون ، فعولجت فيها علاجا خاصا يشبه أحيانا علاج العربية للفعل المثالى ، فتحذف فاؤه فى صيغة الأمر . وتدغم فى عين الكلمة فى صيغة المضارع وغير ذلك من الأحكام التى فصلتها قواعد اللغة العبرية .

أما الميم فربما كانت الظواهر اللغوية التى تعرض لها أقل من أختيها اللام والنون . ولكن هذا لا يمنعنا من ضمها إلى تلك المجموعة من الأصوات التى شاع استعمالها ، والتى اشتركت فى صفات صوتية مميزة لها عن غيرها من الأصوات الساكنة .

نخلص من كل هذا الشرح إلى أن الطور الأول للظاهرة التى نحاول تفسيرها هو تحوّل كل من اللام والنون والميم إلى ياء أو واو . ولسنا نعنى أن كل لام أو نون أو ميم قد تحولت إلى ياء أو واو ، لأن معنى هـذا أن اللغة يجب أن تكون خالية من اللامات والنونات والميمات ، وهو ما يخالف الواقع . فهناك عوامل خاصة ، وظروف لغوية خاصـة وجدت فى بعض الـكلمات دون البعض الآخر ، وفى بعض البيئات دون البعض ، مما أدى إلى حدوث ذلك التغير فى بعض الـكلمات فقط ، وأدّى إلى بقاء اللام والنون والميم فى كثير من الـكلمات . وتلك العوامل الخاصة كما أشرت آنفا ، يمكن أن تلخص فى كون الصوت منبوراً أو خاليا من النبر وفى النغمة الـكلامية ، وغير ذلك من عوامل خاصة نجهلها الآن لبعد العهد بيننا وبين ذلك العصر الذى تم فيه هـذا الانقلاب الصوتى .

فالأفعال المعتلة ، وما اشتق منها كلمات قديمة بعيدة فى القدم ، ولذا اشترك غالبها بين جميع اللغات السامية . فالغالبية العظمى من الأفعال المعتلة فى اللغة العبرية كما رويت لنا فى العهد القديم لها نظائر عربية .

وإن نظرة عجلى فى المعاجم العربية والعبرية ، مكنتنى من جمع عشرات من الأفعال المعتلة المشتركة بين اللغتين ، ويضيق المقام هنا عن ذكرها .

وقد يتساءل المرء بعد هذا : هل رويت لنا آثار فى اللغة العربية تؤيد ما نذهب إليه من أن الواو والياء كانتا فى الأصل لامًا أو نونا أو ميما ؟ وللإجابة

عن هذا يجب البحث والتنقيب فى المطولات من المعاجم العربية عن ألفاظ اشترك معناها ، ولم يختلف لفظها إلا فى أنا نجد مكان الياء أو الواو منها لاما أو نونا أو ميما .

وأنا كفيل لمن يريدون البحث والتنقيب فى قواميسنا على ضوء هذه النظرية ، بأنهم سيعثرون على مئات من أمثال تلك الكلمات . وإنى فى نظرة عجلى عثرت فى قاموس المحيط على ما يقرب من مائتى كلمة تؤيد ما أذهب إليه . وليس من المعقول أن اشتراك المعنى بين هذه الكلمات مجرد مصادفة فهى من الكثرة بحيث تدع اللغوى يفكر فى سر هذا الاشتراك ، ويحاول الكشف عنه . وسأكتفى هنا بذكر بعض من الأمثلة التى عثرت عليها :

(١) وشر : الخشبة بالميشار ، إذا نشرها بالمنشار . (٢) الوقص : العيب والنقص (٣) اللكز : الوكز (٤) وعكه : كوعده ، دكه وفى التراب معكه . (٥) الضنْك : الضيق . (٦) الدانق : الأحمق . داق ، دوقا ، حمُق (٧) العيس : النوق ، والعنْس : الناقة . (٨) جلخ السيل الوادى : كمنع ملأه . جاخ السيل الوادى : اقتلع أجرافه . (٩) غطلت السماء : أطبق دجنها ؛ والليل التبست ظلمته . غطا الليل : أظلم . (١٠) فصى الشىء من الشىء ، يفصيه : فصله . (١١) رخم الكلامُ : لان وسهل . والرُخامى (بالضم) : الريح اللينة . الرخو : اللين . والرُخاء (بالضم) : الريح اللينة . (١٢) دجا الليل : أظلم . والدجن : الظلمة .

ولا تقتصر هذه الظاهرة على اللغة العربية ، بل الباحث المدقق فى كلمات اللغات السامية الأخرى سيعثر على أمثال هذه الكلمات التى سقتها هنا . فحرف المضارعة الدال على الغيبة فى اللغة السريانية هو النون فى حين أنه الياء فى باقى

اللغات السامية . وقد كان هذا موضع جدل بين المستشرقين حين حاول كل منهم تفسيره .

ولقد استطعت بنظرة سريعة فى القواميس العبرية أن أعثر على كثير من أمثلة عبرية كالتى عثرت عليها فى المعاجم العربية أسوق هنا بعضا منها :

(١) נסך = יסך بمعنى صب .

(٢) נצב = יצב وكل منهما تعنى انتصب .

(٣) נקע = יקע وكلاهما يعنى وقع .

(٤) נקש = יקש بمعنى نصب شركا .

الطور الثانى لظاهرة الإعلال فى اللغات السامية — هو أن كلا من الواو والياء المحدثة من لام أو نون أو ميم قلبت فى بعض الصيغ إلى صوت لين طويل فتحة طويلة أو كسرة طويلة أو ضمة طويلة .

هذا هو الطور الذى عنيت به كتب القدماء من الصرفيين وقد ألفت فيه مؤلفات ضخمة . ولم يخل علاج المتقدمين لهذا الطور من التعسف فى كثير من الأحيان . فواجب اللغوى الحديث أن يعرضه عرضا جديدا وأن يفسره تفسيرا علمياً مبنيا على طبيعة اللغة . ولن أحاول هنا أن أعالج هذا الطور فى كل الصيغ ، فمثل هذا يحتاج إلى بحث أوفى ومجال أوسع ، ولكنى سأعرض المراحل التى مرت على الفعل الماضى الثلاثى عرضا جديدا أقرب إلى طبيعة اللغة ليكون عرضى هذا نموذجا يوضح ما أرمى إليه . وسأستعين فيه بطرف من أقوال بعض المتقدمين من النحاة . فمن ذلك قول ابن يعيش على تصريف ابن جنى « وقد أبدلوا الألف من الواو والياء مع سكونهما وفتح ما قبلهما وذلك قليل غير مطرد قالوا وجل ياجل » . ولولا قوله قليل غير مطرد لوافق كلامه أحدث الآراء فى علم الأصوات .

ويقول ابن جنى فى كتابه سر صناعة الأعراب « على أن من العرب من

يقلب فى بعض الأحوال الواو والياء الساكنتين ألفين للفتحة قبلهما وقيل فى آية أصلها أية » .

وفى رأيى أنه لا بد من سكون الواو أو الياء لينتج ذلك الصوت الذى يسميه الغربيون Diphthng . وتحول هذا الصوت إلى صوت لين خالص أمر معترف به بينهم تؤيده المقارنة بين العربية وأخواتها السامية . بل بينها و بين لهجاتها الحديثة أيضا . فمن ذلك « أوْ » فى العربية صارت אוֹ فى العبرية . وفى لهجة الكلام عندنا نقول فى « بيْت بيت ، وحوْض ، حُوض وهكذا مما هو شائع معروف لا يحتاج فى الحقيقة إلى ضرب كثير من المثل .

وسكون الواو أو الياء فى الفعل الماضى الثلاثى كان بسقوط الفتحة القصيرة أو الكسرة القصيرة من عين الفعل ، أو سقوط الفتحة القصيرة من لامه . أما فاء الفعل الماضى الثلاثى فلم يطرأ عليها أى نوع من التغير فى هذا الطور ، وقد رويت لنا دون أن يصيبها تحول إلى صوت لين مثل ولد يسر . فاقتصرت ظاهرة الإعلال فى الماضى الثلاثى على عين الفعل ولامه .

والذى يؤيد ما أذهب إليه من أن سقوط صوت اللين القصير من عين الفعل أو لامه شرط أساسىّ فى انقلاب الواو أو الياء إلى صوت لين طويل ، قول ابن يعيش على تصريف ابن جنى قال : « واعلم أن الواو والياء لا يقلبان إلا بعد إيهانهما بالسكون ولا يلزم على ذلك باب سوط وشيخ لأنه بنى على السكون أصلا ، فلو رمت قلب الواو والياء فى قوَم و بيَع وهما متحركتان لا حتمتا بالحركة ولم يقلبا »

هـذا كلام جيد حسن ولا بد إذن قبل انقلاب الواو والياء أن يصبحا ساكنتين لينتج من كل منهما ذلك الصوت الذى يسمى Diphthng والذى كثيرا ما يقلب إلى صوت لين خالص .

وسقوط صوت اللين القصير من لام الفعل لم ينكره المتقدمون ولم يشيروا إلى

عدم قياسه ، ولكنهم فى سقوطه من عين الفعل ميزوا الفتحة على أختيها الكسرة والضمة ، فيقول ابن يعيش على تصريف ابن جنى « فإسكان المفتوح ضرورة وإسكان المضموم والمكسور لغة » . وقد كان المتقدمون على طريقة مستقيمة فى تمييز الفتحة على الضمة والكسرة لأن الفتحة من الناحية الصوتية أكثر وضوحا فى السمع من أختيها ، وتحتاج للنطق بها زمنا أطول فهى أملأ منهما من الناحية الصوتية وأكثر قوة فى الكلام . ولا شك أن الصوت إذا كان أكثر قوة فى الكلام قلّ سقوطه منه ، ولهذا قل سقوط أختيها من الكلام . وليس يبرر هذا أن نعدّ سقوط الفتحة شاذا كما تفيد عبارة القدماء .

وسقوط صوت اللين القصير من عين الفعل الماضى الثلاثى أو لامه دعت إليه طبيعة نسج اللغة العربية التى تؤثر المقاطع الساكنة على المتحركة . وقد قال القدماء باستحالة أربع متحركات فى الكلمة الواحدة وكراهته فيما هو كالكلمة . وأضيف على قولهم هذا أنه يندر توالى ثلاث متحركات فى نسج الكلمة العربية ؛ فإذا وجدت فاللسان العربى يؤثر إسقاط الثانية أو الثالثة منها

وقبل أن أختم مقالى هذا أحب أن أشير إلى ظاهرة يجب أن تسترعى انتباه اللغويين وهى العلاقة بين الفعل الأجوف والناقص ، وبين ما اتحدت العين واللام فيه . وقد تحدث سيبويه عن هذا حديثاً قصيراً جداً فى باب سماه : « باب ما شذ فأبدل مكان اللام الياء لكراهية التضعيف وليس بمطرد » ثم ضرب أمثلة لهذا كتسريت ، وتظنيت ، وتقصيت . وقد أشير إلى هذا أيضا فى أمالى ابن الشجرى ، حين قال : « وأما ما حذفوا منه وعوضوا فنحو تظننت ، قالوا : تظنيت ، فعوضوا من النون الياء » . ثم ضرب أمثلة هى : « تتلعّى من اللعاعة ، وتسرّيت من السرّ . وتقضّى من التقضض ، ولا أملاه ، بدلا من أمللـه ، ودسّاها من دسسها ، ويتمطى ، من يتمطط » .

والحقيقة أن الأمر أكبر من تلك الإشارات التى لاتقنع الباحث المدقق . وإن نظرة سريعة فى قاموس المحيط ساعدتنى على جمع عشرات من أمثلة ، فيها معتل العين أو اللام يشترك فى المعنى مع فعل مضعف من نفس المادة . ولا أشك فى أن هناك عشرات أخرى يمكن العثور عليها . كما أنى عثرت على كثير من هذا النوع من الأمثلة فى اللغة العبرية مما يجعلنى أرجح شيوع هذه الظاهرة فى اللغات السامية . ويظهر أن الأصل فى كل هذه الأمثلة هو التضعيف ثم سهل مع تطور الزمن بالاستعاضة عن أحد الحرفين المدغمين بالياء أو الواو لخفتهما . ولهذا ما يبرره من الناحية الصوتية . وأسوق هنا بعضا من الأمثلة فى العربية والعبرية :

(١) الطحّ البسط . طحا كسعى بسط (٢) المحّ صفرة البيض والماح صفرة البيض (٣) الجبّ والجوب القطع (٤) عسّ طاف بالليل . والعوس الطوفان بالليل (٥) زحّه نحاه عن موضعه . زاح يزيح بعد وذهب وأزحته .

أمثلة عبرية :

(١)	צרר	=	צור	بمعنى ربط .
(٢)	משש	=	מוש	بمعنى لمس .
(٣)	דמם	=	דמה	بمعنى سكت وسكن .
(٤)	זכך	=	זכה	بمعنى طهر .

يمكننى الآن أن ألخص هذا المقال فى كلمات وهى : للبحث عن الأصل الاشتقاقى لفعل معتل ينظر أولا فى نظير له مضعف . هذا فى معتل العين واللام فقط أو يبحث عن نظير له مهموز سهلت همزته . فإذا لم يكن بين هذين فالأصل الاشتقاقى لحروف العلة يجب أن يكون اللام أو النون أو الميم .

ابراهيم أنيس

الاسكـــــندرية

تأسيسها و بعض مظاهر الحضارة فيها فى عصر البطالمة

إن المدن التى أسسها الإسكندر الأكبر فى طول امبراطوريته الواسعة كثيرة تعد بالعشرات ، ولـكن لم يقدر لواحدة منها أن تشهد مثل ذلك المستقبل الباهر والشهرة العظيمة طوال الأجيال التالية مثل تلك المدينة التى ابتناها فى مصر ، أو إن شئت فقل على تخوم مصر "Ad Aegyptum" كما تصورها الإغريق والرومان ناتئة على ساحل البحر المتوسط ، وقد حملت اسم مؤسسها العظيم وخلدت ذكراه على مر السنين وكر الأعوام ؛ وقليل من المدن لقى من التمجيد والتفخيم مثل ما لقيته مدينة الإسكندرية القديمة ، فـكان من الأحاديث التى تلوكها الألسن أن يتمدح الناس بذكرها ويحرقون لها بخور المدح ، ويحتفون بعظمتها ونخامتها بقصد تخليد ذكراها ؛ وليست لدينا معلومات وثيقة عما كانت عليه الحال فيها فى القرن الثالث قبل الميلاد عند ما كان العمل فى تأسيسها قائماً على قدم وساق ، ولـكن الظروف التى أحاطت بتأسيسها ، والطريقة التى بنيت بهـا ، وسلطان ملوكها من البطالمة الذين اتخذوها عاصمة امبراطوريتهم ، وحبهم للعظمة والفخامة والتبذير والإسراف ، ووصف بعض الأعياد والحفلات العامة التى كان يقيمها بطلميوس الثانى (فيلادلفوس) ، كل هـذه تثبت أن المدينة منذ نشأتها تقريباً كانت بحالها التى وجدت عليها فيما بعد فى عهد الإمبراطور أغسطس عند ما زارها فى سـنة ٢٤ ق . م . إسترابون الجغرافى ، وأطنب فى وصف معالمها

وأبنيتها[١] ، ولم يكن السائحون من الأجانب إذ ذاك ، يستطيعون إخفاء شعور الإعجاب والتقدير عند زيارتهم لمدينة الإسكندرية التى كانت تبهر أبصارهم مبانيها ومناظرها الخلابة وسعة رقعتها واستقامة شوارعها المتقاطعة فى زوايا قائمة ، والبوائك والأعمدة التى أقيمت على جوانبها والقصور الملكية والمبانى العامة الملحقة بها ، والنوادى الثقافية والملاعب والساحات العامة والمنشآت التى أقيمت بالميناء تغدو فيه السفن وتروح فى كثرة لا عهد للناس بها من قبل — كل هذه الأمور وغيرها من سائر محاسن المدينة تصدى لوصفها الكتاب الأقدمون ، فأضفوا على المدينة القديمة حلة من البهاء والحسن .

تأسيسها

ولقد جاء تأسيس الإسكندرية نتيجة طبيعية لحملة الإسكندر على الشرق إذ غزت بلاد الإغريق وعلى رأسها مقدونيا دولة الفرس بآسيا كيما تفرض عليها عاداتها ودينها ولغتها ، و بمجرد أن أصبحت الثقافة والحضارة الهيلينية غير محصورة فى نطاق حوض بحر إيجه ، وفى تلك المستعمرات والمهاجر التى نزح إليها الإغريق على شواطىء البحر المتوسط : شرقه وغربه ، وأخذت فى التغلغل فى بلاد الشرق البعيد لم تعد أثينا قادرة على حمل هذا اللواء ، وأخذ الناس يتطلعون فى هذا العهد الجديد إلى عاصمة للعالم الجديد ، و بفضل ما قام به « المشاة الثقال[٢] » من الإغريق والفيالق من المقدونين من أعمال البطولة استطاعوا اجتياز ممالك فسيحة ووصلوا إلى بلاد الهند وشواطىء السند والبنجاب ، فهل كان يُنتظر أن تغير تجارة الفرس و بلاد العرب والقوافل الليبية والمراكب الفينيقية خط سيرها وتتجه نحو

(١) سترابون الجغرافى الكتاب السابع عشر فصول ٦ — ١٢ (أو ٧٩١ — ٧٩٦) وسوف نعرض لهذه الفصول فيما بعد بشىء من الإفاضة .

(٢) هم الرجّالة الذين يحملون أسلحتهم ومتاعهم ويحاربون فى الأراضى المنبسطة .

الخليج السارونى ميممة نحو ميناء بيريه (Piraeus) مرفأ أثينا ؟ وهل كان هذا الميناء الذى كان يسع الأسطول اليونانى بالأمس ، يكفى لـكى تلتقى فيه تلك الشعوب النائية التى قدر لها أن تصبح الولايات الرئيسية فى مملـكة عالمية أزمع الإسكندر تكوينها ؟ كان الإسكندر ، فى القيام بمهمة فتح بلاد الشرق ، يعتبر نفسه ملـكا شرقياً وخليفة للملوك العظام فى دولة الفرس ، وكان ينوى أن يجمع تحت لوائه وسلطانه أثينا وبابل و بلاد اليونان الخاضعة له وآسيا التى «تأغرقت» ؛ فيَلُمّ شمل الجميع ويربطهم برباط وثيق يدينون له بالولاء والطاعة ، فهل وجد الإسكندر أنه من الضرورى أن يؤسس مدينة يكون موقعها الفذ وسيلة لتحقيق هذا الاتحاد المنشود ، فاختار الإسكندرية للقيام بهذا الدور ؟ وهل كان وقوع الإسكندرية فى وسط البحر الأبيض الهيلينى ، وفى مركز وسيط ، وعلى مسافة متساوية تقريباً من بلاد الإغريق وآسيا الصغرى وسورية من الاعتبارات التى استهوته فأقدم على إنشاء تلك المدينة ، التى كانت متصلة عن طريق البحر وبحيرة مريوط والنهر بتجارة ذات شقين ، فمن الشمال امتدت تجارتها إلى البحر الأدرياتى والبحر الأسود ومن الجنوب كانت تتصل عن طريق النيل وخليج العرب والبحر الأحمر بمجاهل أفريقية و بلاد آسيا فكانت إذاً ميناء لـكل التجارة فى امبراطوريته المستقبلة ، أم أن الإسكندر ظن أنه بتأسيسه الاسكندرية يكون قد ضمن أن تكون مؤسسته الجديدة لا تنتمى لأى شعب ولا لأى مملـكة ولا ينشأ عن قيامها استفزاز لغيرة مدن أخرى مناهضة ، وفوق ذلك فإن المستعمرين الجدد الآتين من أقاصى البلاد المختلفة كانوا يلتقون فيها ويختلطون ثم لا يلبثون بعد قليل أن يصبحوا عنصرا واحدا وتصبح المدينة فى الوقت نفسه مركزا ، وملتقى لثلاث قارات وموطنا لـكل الشعوب ؟

وقد يحار الإنسان فى الإجابة عن تلك الأسئلة وأمثالها مما قد يعرض له ،

وكلها تدور حول معرفة الدوافع التى حفزت الإسكندر إلى تأسيس مدينة الإسكندرية فى تلك البقعة المختارة بالذات وبيان المقاصد والأغراض التى كانت تدور بخلده وتعرف المركز الذى أزمع تخصيصه لمؤسسته هذه فى مجموع أفكاره ومشروعاته — كل هذه الأمور أخذها الإسكندر معه إلى قبره حيث بقيت سراً مكنوناً يحار الإنسان فى اجتلاء حقيقته ؛ وفى الحق قد يضطر الإنسان إلى الاعتماد على حقائق جاءت فى المصادر الأصلية كبطلميوس بن لاجوس وأريان (Arrian) وديودور الصقلى (Diodorus Siculus) وإسترابون (Strabo) وبلوتارك (Plutarch) بقصد مغاير تماماً لما رمى إليه كتابها الأصليون ؛ ومع ذلك فكيف يمكن تحرى الدقة فى تعيين المقاصد والدوافع التى كانت تحرك شخصية تاريخية عظيمة كشخصية الإسكندر التى لنا بها معرفة وثيقة مما كتب وصنف عنه وهل نستطيع أن نقرر أكان هو نفسه مدركا تمام الإدراك مدى نتائج ما يعمله ؟

ومهما يكن من شىء فإن مِنْ بين أعمال الإسكندر التى يجب أن نعنى بها دائماً ونخصها ببحوثنا التاريخية تأسيس الإسكندرية وما أحاط بهذا التأسيس من ظروف وملابسات . وقد يضطرنا المقام إلى أن نستطرد قليلاً فنذكر شيئاً عن الظروف التى أحاطت بتأسيس الإسكندرية متوخين فى ذلك الاختصار .

فى خريف عام ٣٣٢ ق . م . دخل الإسكندر مصر من الشرق وقد يمم وجهه شطرها بعد أن تم له الاستيلاء على سورية وفينيقية وفلسطين كى لا يترك خلفه بلداً لم يخضعه فلم يلق فى مصر أية مقاومة ، فمن الفرما التى كان أسطوله قد سبقه إليها[١] ، زحف براً على رأس جزء من جيشه حتى وصل إلى ممفيس ماراً فى طريقه بهليوبوليس ؛ بينما ركب النصف الآخر من جيشه متن النيل[٢] . وقد

---

(١) Arrian III, I, 1 .

(٢) Arrian III, I, 3s (وهى رواية تعوزها الدقة) ؛ Curtius IV, 7, 3 .

دخل الإسكندر ممفيس يقود جيشه المنتصر وقد أثلج صدور رجاله هزيمة الملك الفارسى العظيم دارا الثالث فى موقعة إسوس (Issus) بآسيا الصغرى ، التى كانت تبشر ببدء تقويض صرح المملكة الفارسية المتداعية الأركان ؛ واستيلاؤهم على مدينة صور (Tyre) التى أتعبتهم واضطرتهم أن يضربوا عليها الحصار ؛ وكان قد انقضى بضع سنوات منذ استرد الفرس مصر وكانت قد استقلت مدة قرن ولم يجد الإسكندر أية صعوبة فى إخضاع البلاد له ، بل عده المصريون مُخلِّصاً لهم من حكم الفرس ، فتوج ملكاً على مصر فى ممفيس ، وكان بتقديمه القرابين لآلهة البلاد المحلية وإقامته المباريات فى الألعاب الرياضية والفنون والشعر والموسيقى على الطريقة الإغريقيـة قد خرج للناس فى ثوب العامل على توثيق الروابط بين الشرق والغرب ، ثم قضى فصل الشتاء فى مصر .

أما ماحصل خلال هذه الفترة وترتيب الحوادث التى وقعت فيها فالمصـادر الأصلية غير متفقة بشأنه ، ففريق يمثـله كيرتيوس (Curtius) وديودور (Diodorus) وچاستن (Justin) [(١)] يقول إن الإسكندر ذهب مباشرة إلى واحة آمون بسيوه ، ولم يؤسس مدينـة الإسكندرية إلا بعد عودته ، ولـكن الفريق الآخر الذى لقيت روايته كثيراً من التصديق والرواج ، ويمثله « أريان » وكل الـكتّاب الذين اتخـذوا رواية بطلميوس بن لاجوس أساساً لهم فيما ذكروه [(٢)] ، يقول إن الإسكندر ركب فرع النيل الغربى وهو الفرع الـكانوبى حتى بلغ مصبه فى كانوبس (Canopus) وقام برحـلة فى بحيرة مريوط ، ثم وصل إلى قرية صغيرة تسمى راقوده (Rhakotis) بالقرب من ساحل مصر

---

(١) Curtius IV, 8, 1. ; Diodorus X VII, 52,1; Justin XI, 11, 3 ; Schwartz Pauly Wissowa (وهى دائرة المعارف الألمانية) II, p. 916 .

(٢) Arrian III, 1. 5 .

الشمالى ، كان يسكنها صيادو الأسماك . وفى هذه البقعة أسس مدينته قبل البدء فى القيام برحلته عبر الصحراء لزيارة معبد آمون حيث قوبل من كهنته وسدنته بالإجلال والتعظيم ، ونودى به ابناً للآله زيوس آمون[١] (Zeus Ammon)· ولقد استطاع بعض علماء الآثار أن يتعرفوا بقايا مبان لميناء قديم مكان راقوده ولكن بعضاً آخر ينكر عليهم هذا ، ومهما يكن من شىء فإن ما كان يسترعى نظر الزائر لهذه القرية فى القرن الرابع قبل الميلاد قليل ، وكل ما هنالك شاطىء رملى منخفض ، تقع على مقربة منه جزيرة صغيرة ، وتقوم على ذلك الشاطىء قرية صغيرة لا أهمية لها يسكنها جماعة فقيرة من صيادى الأسماك ، وليس فى هذا كله أية دلالة على ما كانت تخبؤه الأقدار من عظمة لمدينة الاسكندرية المستقبلة ، ومباهج الحياة فيها — على هذا المكان وقع اختيار الإسكندر الذى قدّر رسالته لنشر الثقافة والحضارة الهيلينية فى بلاد الشرق ، فقرر أن يؤسس مدينته عليه ، وقد صارت الإسكندرية من أعظم مدن العالم ، ويرجع هذا عند بعض المؤرخين إلى ذكاء مؤسسها الذى كان من أفذاذ رجالات التاريخ ، ولكن فريقاً من المؤرخين الذين يولعون بالجدل والنقد يقولون إن أهمية مؤسسة الإسكندر كانت نتيجة أسباب بعيدة كل البعد عن تقدير الإسكندر وذكائه ، ولاشك أن حقيقة الأمر هى وسط بين هذين الرأيين المتطرفين اللذين سوف نعرض لهما بشىء من التفصيل ، إذ أنه على الرغم مما عرف عن الإسكندر من اندفاع وتهور ومضاء خارق للعادة فإنه كان يتصف أحيانا بالمقدرة على إصدار الأحكام فى هدوء وروية وصفاء ذهن بدرجة لم

---

(١) Ptolemy Son of Lagus in Hopfners' Fontes Historiae Religionis Aegyptiacae vol. I. 62. واقتبسه أريان (Arrian, Exped III, 3, 5) فوصف رحلة الإسكندر إلى واحة آمون .

يجاره فيها إلا قليل من السياسيين . ويمكن أن نقول بحق إن الاسكندر عندما اختار هذا الموقع لمدينته الجديدة كانت تحدوه عدة أسباب ، وربما كان متأثراً كما هو المعتقد حديثاً (١) بما وجده من تشابه بين هذا الموقع وموقع مدينة صور التي كان يحاصرها بالأمس القريب ، والتي أراد لمنشأته الجديدة أن تبلغ ما بلغته صور من الأهمية التجارية والبحرية ، على أن الإسكندرية كانت ذات مزايا حقيقية لها قيمتها .

ولقد اتفقت جميع المصادر — على رغم اختلافها في ذكر التفاصيل — في القول بأن شرف اختيار هذه البقعة ، التي أسس فيها الإسكندر مدينتـه ، يرجع إلى الملك الشاب نفسه ، ومن الممكن أن يكون في هذا الرأي بعض المبالغة ، ولكن حتى في هذه الحالة فإن الإسكندر هو الذي أذن بهذا الاختيار وباركه ، إذ كان الغرض من تلك المؤسسة الجـديدة خدمة مشروعاته الواسعة المدى ، ولكن هؤلاء المؤلفين لا يكشفون لنا النقاب عن السبب الحقيقي الذي اختير من أجله هذا الموقع ذاته ، وإنما عُنوا بذكر الروايات التي قد يكون من الشائق بالنسبة للمشتغلين بتسجيـل الأساطير وأحاديث الخرافة أن نذكر على سبيل المثال رواية منها ، على أنها لا تخدم الحقائق التاريخية في شيء . قالت تلك الرواية إن الذي أوحى إلى الإسكندر مشروعه هذا هو تذكره لبضعة أبيات جاءت في ملحمة الأوديسا لهوميروس ، أو بالأحرى رؤية هوميروس نفسه في حلم (٢) . وهكذا اختلط الأمر وأصبح مشوبا بأحاديث الخرافة المتواترة ، فأشكل على الناس تفهم الحقيقة وسط هذه الأحاديث ، وحقيقة الأمر أنه لما

---

(١) B. A. Van Groningen, "A Propos de la fondation d'Alexndrie", Raccolta Lumbroso, Aegyptus Serie 1925 pp. 200—211.

(٢) بلوتارك — حياة الإسكندر فصل ٢٦ .

كان الاسكندر قد رغب فى زيارة تر واده عند ما وصل إلى آسيا الصغرى ، فإنه كسائح قد شعر بجاذبية ورغبة دفينة تجذب السائح نحوَ زيارة مكان آخر خلد ذكره فى تلك الملحمة الخالدة .

وصف استرابون لموقع الاسكندرية

ولقد اقتصر الكتاب الأقدمون على مجرد القول بصلاحية الموقع وملاءمته لتأسيس مدينة جديدة فقال أريان[١] « إن هذا الموقع بدا للإسكندر جميلا جداً ليؤسس عليه مدينة قد تصبح ذات مستقبل باهر سعيد » وذكر كيرتيوس[٢] (Curtius) « ولما فكر الإسكندر فى طبيعة المكان ... قرر أن يؤسس عليه مدينة جديدة » ؛ ولكن استرابون لم ينهج نهج هؤلاء فيقتصر على ذكر صلاحية الموقع وملاءمته ، وإنما بذل مجهوداً فى التوسع فى هذا الرأى وتبريره ، ولذلك آثرنا أن نقتبس منه وصفاً تفصيليا لهذا الموقع (وطبوغرافيته) ومعالم المدينة نورده فيما يلى[٣] .

« ولما كانت الإسكندرية وما يجاورها تمثل أكبر جزء فى وصفنا ، بل أهمه ، فسوف نبدأ به ، وشاطىء البحر ، إذاً ، من الفرما حتى مصب الفرع الكانوبى للنيل ، إذا أبحر الانسان نحو الغرب ، يبلغ نحو ثلثمائة وألف ستاديات[٤] وهو يكوّن كما قلنا قاعدة الدلتا ، وتبلغ المسافة من هناك حتى جزيرة فاروس خمسين ومائة ستاديات أخرى ، وفاروس هذه جزيرة مستطيلة الشكل وقريبة جداً من البر الأصلى ، وتكوّن معه ميناءً ذا مدخلين ،

---

(١) Arrian III, 1, 5 .

(٢) Curtius IV,8,1 : "Contemplatus loci naturam statuerat urbem novam condere" .

(٣) استرابون الكتاب السابع عشر فصل ٦ — ٨ أو قسم ٧٩١ — ٧٩٣ .

(٤) مفرده ستاديوم Stadium وهو عبارة عن فرسخ أو ٦٠٦ أقدام إنجليزية .

لأن شاطئ البحر عبارة عن خليج إذ أن به رأسين ناتئين فى البحر ، وبين هذين (الرأسين) تقع الجزيرة التى تسد الخليج لامتدادها طولا فى موازاة الشاطئ ومن بين طرفى جزيرة فاروس يقع الطرف الشرقى أقرب ما يكون إلى شاطئ القارة ثم إلى ذلك الرأس الواقع فى تجاهه (ويسمى ذلك الرأس لوخياس = Lochias) ، وبذلك يصير مدخل الميناء ضيقاً وبالإضافة إلى ضيق ذلك الممر الواقع بينهما توجد أيضاً صخور تغطى المياه بعضها ، بينما يبرز بعضها الآخر فوق سطح المياه ويضاعف هذا فى كل الأوقات فى تلاطم الأمواج التى تتكسر عليها من عرض البحر ، وكذلك كان طرف الجزيرة نفسه صخرة تتكسر عليها أمواج البحر من كل جانب ، وقد أقيم عليها برج شيد بطريقة عجيبة من الرخام الأبيض وبه طبقات كثيرة ويحمل نفس اسم الجزيرة[1] ، ولقد قدمه سستراتوس الكنيدى (Sostratus) صديق الملوك قرباناً من أجل سلامة البحارة كما تدل

---

(١) ذلك البرج هو المنار المشهور وهو إحدى عجائب الدنيا وقيل إن نفقات بنائه بلغت ثمانمائة تالنتات (انظر بلينى (Pliny) ٦ ، ١٨) ، ولقد تباينت الأقوال بشأن بانى هذا المنار فقال يوسبيوس (Eusebius, Chron. ad Olymp. 124. 1.) إن هذا المنار بنى فى عصر فيلادلفوس ، ولكن سويداس (Suidas) ذكر أنه بنى فى أول عهد الملك بيروس (Pyrrhus) أى ٢٩٩ ق.م. فى عهد الملك بطلميوس سوتر ، وبحسب ما جاء فى يوسيفوس Josephus, Bell. Jud. 4. 10. 5 كان هذا المنار يرى على مسافة ثلثمائة ستاديات من عرض البحر ، وقيل إن علوه كان يبلغ ستة وثلثمائة قامة (فى كل قامة ستة أقدام) Epiphanes, Steph. Byz—Pharos ، ويقال إنه كان يرى على مسافة ثلثمائة ميل — انظر الترميم الذى تصوره Thierch فى كتاب تاريخ العالم القديم جزء أول ص ٣٦٩ للعالم Rostovtzeff وكذلك A. M. da Zogheb. Etudes sur l'Ancienne Alexandrie 1910 . وقد جاء فى الجزء الثالث من النسخة الخطية من ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة فى الرحلة إلى مكة وطيبة لمحب الدين بن رشيد صفحة ٢٠ سطر ٩ — ١٥ وصف رائع لهذا المنار : «ومن عجائب الاسكندرية منارها الذى يعجز عنه الوصف ، ويحار فيه الواصف ، وضخامته من داخل أكثر مما هى فى خارجه ، وهو من عجائب المصنوعات وغرائب المزيات ؛ قاس أحد أصحابنا جانبه البحرى ماية ونيفاً على عشرين قدماً ؛ وذكر لى بعض أصحاب أنه أخذ ارتفاعه بالاسطرلاب فالفى القاعدة ستين قامة ومائتين» .

الـكتابة المنقوشة عليه(١) ؛ لأنه لما كان شاطئ البحر خالياً من الموانى ومنخفضاً من كلا الجانبين و به صخور ومناطق ضحلة كان البحارة الآتون من عرض البحر إلى هناك فى حاجة إلى علامة عاليـة تبدو واضحة للعيان كيما تساعدهم على تبين طريقهم بدقة نحو مدخل الميناء ، وليس من العسير عبور المدخل الغربى أيضاً ولو أنه لايتطلب من الجهد والحرص مثلما يتطلبه المدخل الآخر وهو يكون بالمثل ميناء ثانياً يحمل اسم يونوستوس(٢) (Eunostos) وموقعه تجاه الميناء المحفور (أى من صنع يد الإنسان) والمغلق(٣) ، والميناء الذى يقع مدخله إلى جانب برج فاروس السابق الذكر هو الميناء العظيم ؛ بينما هذان الميناءان يقعان فى أعمق فجوة (من الشاطئ) على طول امتداد هذا الميناء العظيم ولا يفصلهما عنه سوى جسر يسمى هيبتا ستاديوم(٤) (Heptastadium) . ويكون هذا الجسر سدا ممتدا من البر الأصلى إلى الجزء الغربى من الجزيرة (أى فاروس)

(١) تلك هى العبارة الواردة عليـه « سستراتوس من كنيدوس بن دكسيفانيس (Dexiphanes) من أجل البحارة إلى الإلهين المخلصين (Divine Saviours) » ولقد أثارت هذه الجملة خلافا إذ أنه ورد ببعض النسخ من جغرافية سترابون هذه العبارة التى حفظها لوشيان (Lucian, How to write History فصل ٦٢) ، ولـكن يبدو من الواضح أنها إضافة على هامش نص استرابون الأصلى .

(٢) أى « ميناء العود السعيد » أو « السلام » وربما سمى هذا الميناء كذلك نسبة إلى يونوستوس Eunostos ملك سولى (Soli) فى قبرص وهو زوج ابنـه بطلميوس سوتر ولعل ما أوحى بهذه الفكرة هو أن ميناء يونوستوس كان آمناً يوصل إلى بر السلام إذا قرن بالميناء الشرقى .

(٣) ويعرف هـذا الميناء باسم Cibotus أى الصندوق وكان محصناً وتصل بينه وبين بحيرة مريوط ترعة ، ولايزال فى الوقت الحاضر شكل هذا الميناء وحجمه محل خلاف لأن موقعه سد وأصبح محله يدخل الآن ضمن نطاق الرصيف المعروف بالهيتاستاديوم (Heptastadium)

(٤) جسر الهبتاستاديوم هو لسان ممتد فى عرض البحر مده البطالمة بين الشاطئ وجزيرة فاروس ، وترجع هـذه التسمية اليونانية (هيبتا = سبعة + ستاديوم = فرسخ طوله ٦٠٦ أقدام) إلى طوله البالغ سبعة ستاديات أو سبعة فرسخ . ولقد اتسع كثيراً بما أضيف إليه على توالى الزمان من رواسب طمية وغرينية وركام وأنقاض من المدينة القديمة حتى أصبح اتساعه يبلغ الآن ميلا ويكون جزءاً كبيراً من موقع مدينة الإسكندرية فى الوقت الحاضر .

ولا يترك سوى مضيقين موصلين إلى ميناء يونوستوس (العود السعيد) وقد أقيم على هذين المضيقين قنطرتان ، ومع ذلك لم يستخدم جسر الهيبتا ستاديوم فقط قنطرة توصل إلى الجزيرة ، ولكن استخدم لحمل المياه إلى فاروس على الأقل عندما كانت هذه مأهولة بالسكان ، ولكنها فى الوقت الحاضر أصبحت مخربة بفعل قيصر المؤله[1] فى حربه ضد السكندريين لأنها كانت ضالعة مع الملوك ومع ذلك فيسكن عدد قليل من البحارة بالقرب من البرج ؛ أما الميناء الكبير فبالإضافة إلى إحكام غلقه بكل من الجسر وبعمل الطبيعة فإن عمقه بالقرب من الشاطئ يبلغ درجة تكفى لرسو أكبر السفن بالقرب من المرسى ؛ وفوق ذلك فهو مقسم إلى بضعة موانٍ ؛ ولما كان ملوك مصر السابقون قانعين بما توافر لديهم (من خيرات) وفى غير حاجة إلى الواردات الأجنبية على الإطلاق ، وكانوا منحازين ضد كل من جاب البحار وبخاصة ضد الإغريق (لأن الأخيرين كانوا محبين للسلب نظراً لندرة الأرض عندهم وطامعين فى أرض الغير) فقد أقاموا حرساً فى ذلك المكان وأمروا رجاله بأن يصدوا كل من اقترب منه وأعطوهم مكاناً لسكناهم وهو المسمى براقودة (Rhacotis) وهو الآن يمثل الجزء الواقع من مدينة الإسكندرية تجاه ترسانة السفن وكان إذ ذاك قرية ، كما أعطوا الأجزاء المحيطة بتلك القرية رعاة كانوا قادرين كذلك على صد الأجانب عن دخول البلاد — ولما زار الإسكندر هذه البقعة وشاهد مزايا (Eukairia) هذا الموقع صمم على بناء المدينة على الميناء[2] وكعلامة

(١) هو يوليوس قيصر المؤله (Divus Caesar) الذى حضر إلى الإسكندرية بعد هزيمته لمنافسه بمبى فى فرساليا وفرار الأخير إلى مصر حيث لقى حتفه ، واشتبك مع أهلها فى حرب عرفت بحرب الاسكندرية (Bellum Alexandrinum) جاء فى سرده لحوادثها وصف رائع لبعض معالم المدينة وما كانت عليه حالها سنة ٤٨ ق . م ووصف لخلق أهلها ونشاطهم وبراعتهم .

(٢) اقتبس كثيرون من المؤرخين الحديثين هذه الجملة وأخذوا يناقشونها مدللين على وقوع الاختيار من جانب الإسكندر بعد روية وتقدير لمزايا هذا الموقع الجغرافى الفذ . انظر مقال Van Gromningen عن تأسيس الاسكندرية فى مجلة Raccolta Lumbroso سنة ١٩٢٥ .

تنم عن حسن الطالع الذى لازم المدينة منذ ذلك الوقت ، روى الكتاب واقعة حدثت عن تخطيط أساس المدينة فإنه لما كان المهندسون قائمين على تخطيط موقع السور بالطباشير حدث أن نفد الطباشير ، وعند حضور الملك جلب موظفوه وأعوانه جزءاً من دقيق الشعير الذى كان قد أعد لحاجة العمال واستعانوا بهذه المادة فى تخطيط معظم الشوارع كذلك ، ويقولون إن هذه الواقعة قد فسرت على أنها فأل حسن (١) .

ومزايا موقع المدينة مختلفة الأنواع لأن الموقع أولا تتكسر عليه مياه بحرين فمن الشمال مياه ما يسمى بالبحر المصرى ، وفى الجنوب مياه بحيرة « ماريا » التى تسمى أيضاً مريوط ، وتملأ هذه البحيرة بوساطة قنوات كثيرة ممتدة من النيل من أعلى [أى من الجنوب] ومن كلا الجانبين ، وكانت الواردات الآتية بوساطة القنوات أعظم بكثير من تلك الواردات الآتية عن طريق البحر ، وعلى ذلك كان الميناء المطل على البحيرة أغنى فى الحقيقة من الميناء الواقع على البحر ، وهنا (أى فى الميناء البحرى) كانت الصادرات الخارجة من الإسكندرية أيضاً أكثر من الواردات إليها ، ويستطيع المرء أن يتحقق من ذلك متى وُجد فى الإسكندرية ورأى المراكب التجارية عند وصولها ورحيلها ، ولاحظ مبلغ ثقل حمولتها أو خفتها عند غدواتها إلى هناك أو روحاتها منها ؛ وبالإضافة إلى القيمة العظيمة لتلك البضائع التى كانت ترسو من كلا الجانبين على الميناء البحرى والميناء الواقع

---

(١) لقد ذكر الكثيرون هذه القصة المشهورة عن النقص فى الطباشير اللازم لتخطيط حدود مدينته الجديدة ثم استخدامه الدقيق المخصص للأغذية والمؤن فرواها بلوتارك — حياة الاسكندر (٢٦) ورواها أريان (Arrian III, 2, 1—2) وكيرتيوس (Curtius IIV, 8, 6) وأميانوس مارسيلينوس (Ammianus Marcellinus, XXII, 16. 7.) . ولقد روى بلوتارك أن شتى أنواع الطيور تجمعت كالسحب وهبطت على دقيق الشعير الذى استعمل فى تخطيط هذه المنطقة وأخذت تأكله حتى أتت عليه فلما شاهد الاسكندر ذلك تملكه الخوف والذعر وتطير من هذه النذر ولكن العرافين طمنوه وأكدوا له أن الفأل حسن إذ أن دقيق الشعير دليل على وفرة الغذاء وكثرة الخيرات .

على البحيرة ، فإن جودة الهواء أيضاً لأمر جدير بالذكر ، وينجم هذا أيضاً عن أن المياه تكتنف المدينة من كلا الجانبين ولانتظام موعد فيضان النيل ، وجو المدن الأخرى الواقعة على بحيرات ثقيـل وخانق فى أثناء حرارة الصيف ، لأن البحيرات فى ذلك الفصل تتحول إلى مستنقعات على حافات هذه المدن بسبب التبخر الناجم عن أشعة الشمس ، فعندما يتصاعد مثل هذا القدر من الرطوبة المحملة بالأوساخ يصبح الهواء المستنشق فاسداً وتتسبب عنه أمراض وبائية . بينما الحال فى الإسكندرية [على غير ذلك] إذ أنه عند حلول فصل الصيف يفيض النيل فيملأ البحيرة أيضاً ، ولا يترك أى مواد وخمة قد ينجم عنها إفساد الأبخرة المتصاعدة ؛ وفى ذلك الوقت أيضاً تهب الرياح الأتيسية[1] (Etesian) من الشمال ، آتية من بحر شاسع : فكان من أثر ذلك أن السكندريين يقضون أوقاتهم فى فصل الصيف وهم فى أسعد الأحوال وأهنئها » .

***

ذلك هو الشق الأول من وصف استرابون للموقع الذى وقع عليـه اختيار الإسكندر وهو وصف رائع ينم ، ولاشك ، عن رغبة فى تحرى الدقة ومعرفة وثيقة ببعض الظروف التى أحاطت بالإسكندر ، ومع ذلك قد جاء هـذا الوصف خلواً من ذكر الأسباب الحقيقية التى حدت بالإسكندر لاختيار هذا الموقع بالذات واقتصر على ذكر المزايا التى لخصها وضمنها فى كلمة المزايا (Eukairia) فقال أولا : إن هناك ميناء طبيعياً مكونا من وجود جزيرة فاروس على مقربة من الشاطئ الذى كان شكله على هيئة خليج . ولـكن يجب ألا نقع فى الخطأ ويضللنا ذلك الوصف الذى كتبه ذلك الجغرافى الذى لم يصف لنا الحالة التى كان عليها هذا

---

(١) وهى الرياح الشمالية التى تهب على مصر وقد سماها استرابون بالأتيسية أى السنوية وهى تهب من الشمال الغربى طوال فصل الصيف .

المـكان فى الوقت الذى أتى فيه الإسكندر ، وإنما وصفه بعد انقضاء ثلاثة قرون عليه وكان فيها عرضة لتغيرات وتطورات كثيرة فأدخلت عليه بعض التحسينات التى تطلبتها أحوال التجارة وظروف المكان الحربية والضرورات «الاستراتيجية» وإنه لمن العبث أن نوجه اللوم إلى استرابون لأنه اقتصر فى وصفه على الحالة التى كان عليها المـكان فى عصره ولم يذكر لنا شيئاً عن وصف الموقع كما كان يبدو للإسكندر وحالته من حيث صلاحيته لإنشاء ميناء . ثم أخذ استرابون بعد ذلك يُذَكرنا بأن المدينة تقع بين بحرين وسوف نرى بعد قليل أن هذه لم تكن ميزة حقيقية ، وإنما كانت تكتنفها الصعاب وتعوقها طرق المواصلات البرية والنهرية حتى يتحقق اتصالها المباشر بنهر النيل[1] ، وأخيراً أخذ استرابون يمتدح موقع المدينة الصحى وهواءها النقى العليل واعتدال مناخها ، ولم يفته أن يصر على ذكر حقيقة هامة ، وهى أن فيضان النيل لايثير فى بحيرة مريوط انبعاث تلك الأبخرة العفنة التى يتسبب عنها أضرار كثيرة فى أثناء فصل الصيف[2] ، ولـكن الإسكندر لم يحضر إلى مصر إلا فى شهر نوفمبر ، ولربما صمم على تأسيس مدينته فى شهر يناير أى فى صميم فصل الشتاء ، والنتيجة الطبيعية لذلك أن هذا الأمر لم يكن هو الذى استرعى انتباهه ، وإنما تحققت هذه المزايا كلها على مدى الزمان .

الاسكندر واختيار موقع الاسكندرية

ولقد اتبع العلماء الحديثون ، الذين تصدوا لمعالجة تاريخ الإسكندرية ، مَثَل أسلافهم فقصروا همهم على ذكر هذا الاختيار ووصفه بأنه تدبير حكيم من جانب

---

(١) مقال فان جرونتجن فى مجلة Raccolta Lumbroso صفحة ٢٠٥ .

(٢) استرابون ٧٩٣ ؛ ولقد امتدح الـكثيرون جودة المناخ فى هذه المدينة وبالغوا فى ذلك إلى حد كبير انظر بلوتارك — الاسكندر ٢٦ ، ديودور الصقلى الـكتاب السابع عشر ، فصل ٥٢ ، ١ ؛ ثم Ammianus Marcellinus, XXII, 16, 7 .

الإسكندر من غير أن يحاولوا تفسيره . وهناك آخرون انبروا لذكر آراء مختلفة يجب أن نتقبلها بحذر شديد بعد تمحيصها — على أن هناك معضلة أشكل على الناس حلها وهى مع ذلك جديرة بأن نحاول تلمس السبيل إلى حلها . فنى أثناء فصل الشتاء الذى قضاه الإسكندر فى مصر متجولا فى أنحاء البلاد أكان قد صمم منذ البدء على تأسيس مدينته ؟ أم أن فكرة تأسيس هذه المدينة خطرت بباله فجأة وهو فى المنطقة ذاتها من غير سابق تدبير ؟ وعلى الرغم من أن هذا السؤال لم يخطر ببال الكثيرين فإنه مع ذلك يستحق أن يطرح على بساط البحث لأنه يساعد على إدراك ما كان يجول بخاطر الإسكندر . ويبدو أن نية الإسكندر فى هذا الشأن لم تكن واضحة محدودة المعالم ، وقد يفيد فى اجتلاء هذا الأمر تذكر تلك القصة المشهورة التى ذكرها استرابون[١] عن النقص فى الطباشير اللازم فى تخطيط البلدان واللجوء فى تخطيط حدود مدينته إلى استخدام الدقيق المخصص لمئونة العمال ، ويستطيع المرء أن يسوق الدليل على أن ملكا يروم تأسيس مدينة فى هذا الموقع كان لابد أن يستصحب معه كل ما يحتاج إليه فى تنفيذ مشروعه هذا — وهو الأمر الذى لم يفعله الإسكندر .

***

وهناك حجج أشد قوة وأكثر جدية نسوقها للتدليل على وجود عنصر فجائى فى تصميم الإسكندر . كانت مصر محرومة من الموانى البحرية لدرجة أنها كانت فى حاجة ماسة لمعالجة هذا النقص بطريقة عاجلة ، ومما لا جدال فيه أن جميع الموانى المصرية كانت فى المقام الأول موانى نهرية ، ولكن ميناء الفرما (Pelusium) فى شرق الدلتا وكانوبوس (Canopus) على مصب فرع النيل الغربى كانا بلدين تجاريين متمتعين بسمعة وشهرة فى كل مكان : بل إن الميناء الأول آوى

(١) Arrian III, 2, 1—2 ; Curtius IV, 8, 6 .

أسطول الإسكندر ، وفيما عدا ذلك لم يطرأ على الحالة العامة أى تغير كان يتطلب تغييراً مماثلا[١] — وكانت أسهل الطرق للعمل على توثيق العلاقات بين مصر وعالم البحر المتوسط هى توسيع إحدى الموانى الموجودة فى مصر من قبل و إدارتها بطريقة تكفل حسن الاستفادة منها وتتفق مع المبادئ والأساليب التى كانت تنطوى عليها المهارة الفنية عند الإغريق — وكان الطريق الذى سلكه الإسكندر إلى مصر هو طريق الشاطئ المهجور من الشرق حتى الفرما ثم ركب فرع النيل حتى ممفيس ، ومنها قفل راجعاً فى أحد أفرع النيل الأخرى حتى مصبه الغربى فى كانوبوس ليؤسس فى الحال مدينة تقع على مسافة بضع كيلومترات إلى الغرب منها ، وعلى ذلك فهو لم يشاهد من كل الشاطئ الشمالى لمصر سوى جزء قليل الأهمية كان يقوم فيه من قبل ميناءان بحريان ، فإذا كان ينتوى البحث بطريقة جدية عن أصلح مكان لتأسيس مدينة جديدة فإن الواجب كان يقضى عليه أن يزور الشاطئ كله و يفحص المصابّ المختلفة لنهر النيل ليختار أصلح موقع يؤسس عليه مدينته ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك ، وما يدرينا ؟ فلعله كلف مهندسين من قبله كفوه مئونة هذا العمل ، فقاموا بهذه المهمة ورفعوا تقاريرهم إلى الملك . ولم يكن الرأى العام الإغريقى يجهل مصر وأحوالها التى وصفها لهم المؤرخ هيرودوت فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد وصفاً رائعاً لايزال إلى أيامنا هذه ذا متعة وروعة وفيه طرافة . وكان الإغريق ، فيما نعلم ، مشغوفين دائماً بسماع القصص التى تروى عن مصر ، تواقين إلى المزيد من معرفة

---

(١) K. Lehmann - Hartleben, Die antiken Hafenanlagen des Mittelmeeres, 1923 p. 27. وهو كتاب يتناول البحث فى تأسيس الموانى فى حوض البحر المتوسط جاء فيه عن تأسيس الإسكندرية هذه صفحة ٢٧ أن البقعة الواقعة غربى الدلتا كان مقدراً لها أن تظل منعزلة وعديمة الاتصال بالعالم الخارجى لبعدها عن مصب النيل وكان مصيرها أن تبقى على هذا الحال طالما كانت يُعْوزها ميناء طبيعى بحرى خاص بها .

أحوالها الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية والدينية . بل إن أبواب مصر كانت مفتوحة خلال القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد للسائحين الأجانب الذين كانت وسـائل زيارة المعابد ومشاهدة معالم البلاد وآثارها ومدنها ميسرة لهم بدون إقامة أية عراقيل أو التعرض لخطر إثارة أى اعتراضات يكون مصدرها تعصبا دينيا — فمصر إذاً لم تكن بلداً غريباً على المقدونين ، وسواحلها الشمالية بل الشرقية كانت معروفة لديهم ونيلها ومَصَابه فى متناولهم ، فهل مع كل هذا يجوز القول بأن تأسيس الإسكندرية يرجع إلى تصميم فجائى ؟

وفى الحق كان هناك أمر آخر ألهَم الإسكندر فقام فى التوة والساعة بتنفيذ ما جال بخاطره ، فما هو يا تُرى هذا الأمر ؟ قد نستطيع تلمسه وتبينه من مجموع تلك الأحاسيس والمشاعر التى سيطرت عليه وهُو واقف على الساحل يقلب البصر فى مزايا ذلك الموقع الذى أجمع الـكتاب على أنه بدا له فذاً ، وقد ساعدتنا الحوادث التى وقعت فيما بعد على تفسير ذلك الأمر — ويؤكد الـكتاب الأقدمون أن الإسكندر أعجب بالمزايا العظيمة ، التى كانت عليها حالة ذلك الموقع ، والمستقبل الباهر الذى كان ينتظره كمركز وسيط للتجارة . واستنبط الإنسان مما صادفته المدينة من تقدم ومما تمتعت به من نجاح لا مثيل له فى حياتها المستقبلة أن كل ذلك كان فى الحسبان واضحاً جلياً فى ذهن مؤسسها ، وكان له اعتبار فى تقديره وقت أن أمر بتخطيطها[١] ، وفى الحق أن انقضاء ثلاثة وعشرين قرناً قد برهن على صحة هذا الاختيار وحسنه وصدق فراسة صاحبه ، ولـكن الإسكندر كان فى بدء هـذه القرون الطويلة لا يملك لنفسه شيئاً ولا يعرف ما تخفيه الأقدار ؛

---

(١) Holm, Griech Gesch. III, 380: « ولقد رأى (الاسكندر) فى هذه البقعة مكانا بدت له صلاحيته لتأسيس مدينة عظيمة » وجاء فى مؤلف آخر العبارة الآتية : إن الاسكندر « كشف عن هذا الموقع بقوة أولى البصيرة العارفين بما تخفيه الأقدار » .

وعلى ذلك يجب أن نستبعد من ذهننا الصورة التى كانت عليها هذه المدينة بعد اتساعها وتقدمها ، ونحاول تصور حالة ذلك المكان وقت وصول ذلك الملك المقدونى الشاب — ولم تكن تلك البقعة صحراء جرداء وإنما كانت تقوم عليها قرية متواضعة ضمت فى الحال إلى المدينة الحديثة النشأة — ولسنا نعرف سوى القليل جداً عن قرية راقودة هذه[1] ، ولكن من المحتمل أن تلك القرية لم تكن ذات أهمية وبخاصة من ناحية العلاقات الدولية ولم تكن فى تنافس شديد مع كانوبوس . وفى رأى العالم « فان جرونتجن »[2] إن وجود تلك القرية لا يفسر تصميم الإسكندر الذى لم ترق فى نظره فكرة إدخال تحسينات على راقودة وتوسيع مينائها . ولعل هناك سبباً آخر له طابع سياسى : فراقودة قرية ليس لها تاريخ يذكر ولا مجد تالد ، وإذاً فلا يخشى أن تصطدم المؤسسة الهيلينية الجديدة التى تقوم على أنقاضها بأى تقاليد أو نظم موروثة فيها ؛ بل يُرجى لها تقدم فى ظل الحضارة والثقافة الهيلينية غير هيابة أو وجلة من وطأة تقاليد وطنية قديمة .

ولقد قيل فى معرض الكلام عن اختيار موقع الإسكندرية إن إحدى الميزات الكبرى التى كانت لهذا الموقع أن الرواسب النهرية التى كان يحملها نهر النيل إلى مصبه كان ينقلها نحو الشرق تيار بحرى آت من الاتجاه المضاد ، وقد لاحظ مهندسو الإغريق أن الموانى الواقعة عند مصابّ الأنهار كانت مهددة بأن تسد بالعوائق والرواسب والكثبان الرملية ، وأنه كان من الأفضل أن تنقل هذه الموانى قليلا إلى الشرق أو إلى الغرب ، ذلك إلى أن نظام التيارات المائية فى شرق البحر المتوسط يعرض الموانى الساحلية ثمة لأن تسد بالرواسب . أما

---

(١) انظر فى دائرة المعارف الألمانية "Pauly Wissowa" مقالا للعالم بورشارت (Burchardt) عن راقودة .

(٢) فان جرونتجن فى مجلة Raccolta Lumbroso سنة ١٩٢٥ ص ٢٠٥ .

الإسكندرية فلا تعتريها هذه الشائبة . ومن المحتمل أن يكون اليونانيون الساكنون فى نقراطيس قد أطلعوا الإسكندر على هذه الحقيقة — وكان إنشاء الموانى العظيمة المعروفة فى العصور الهيلينية لايتم إلا بعد القيام بأعمال كثيرة واسعة النطاق ، ولكن تكوين الساحل الشمالى الغربى لمصر ووجود جزيرة فاروس على مقربة من الشاطئ ربما أثار فى نفس الإسكندر فكرة القيام بهذه الأعمال بل سهل تنفيذها ، وكان وجود بحيرة مريوط خلف هذا الموقع واتصالها بالنيل قد أتاح فرصة وجود ميناء عذب المياه سهل الاتصال من كلا جانبى البحر والنهر .

كل هذه حجج أثارها بعض الكتاب لتبرير اختيار الإسكندر لهذا الموقع ولكن انبرى علماء آخرون فى مقدمتهم العالم الألمانى (ڤلكن U. Wilcken) وقالوا إن هذه حجج ليست ذات قيمة على الإطلاق ويمكن تفنيدها بسهولة[١] فوجود تيار بحرى لم يكن من الأمور التى تلاحظ فجأة ، ومن الناحية الأخرى فإن الشخص الذى كان يتقدم باقتراح بناء ميناء فى ذلك العصر كان يفضل موقعاً بجوار مصب نهر ، ولكن هذا لايفسر السبب الذى كان يُعرض من أجله مثل هذا الاقتراح . وفوق ذلك فإنه فى الحالة التى نحن بصددها كان وجود جزائر وصخور على مقربة من سطح الماء فى حوضى ميناء الإسكندرية[٢] من الأمور التى قد تجعل المرء يصرف النظر عن مشروع قائم بدلا من أن يؤيد اقتراحا كان لايزال فى دور التمهيد — وهناك صعوبة أخرى لابد أنها عرضت لأولى الأمر

(١) يبدو أن هذا الرأى راق لدى المؤرخ ڤلكن فى كتابه Wilcken, Grundzüge p. 14 No. 3 وفى مقاله الممتع وعنوانه Alexander und die Hell. Wirtschaft, Schmollers' Jahrbuch 1921, p. 356. وكذلك لدى العالم « ڤان جرونتجن » فى مجلة Raccolta Lumbroso سنة ١٩٢٥ صفحة ٢٠٥ .

(٢) انظر سترابون الكتاب السابع عشر قسم (٧٩١) .

وهى أن المواصلات بين البحر المتوسط والنيل ، وبمعنى آخر طرق المواصلات المستخدمة حلقات اتصال بين التجارة الوطنية والتجارة الخارجية بقيت دائماً أمراً معقداً جداً فى الإسكندرية بل وأكثر من ذلك أن الميناء الرئيسى هو وحده الذى كان له اتصال مباشر بالنهر ويربطه به طرق مواصلات مباشرة[١] ، ومالم يلجأ المرء إلى وسائل النقل البحرى ، وهى طرق كانت دائماً فى حالة رديئة وباهظة التكاليف فإنه كان يجد لزاماً عليه أول الأمر أن يعبر جسر الهيبتاستاديوم بوساطة إحدى القنوات المعدة لهذا الغرض ، ثم يمر بعد ذلك بميناء كيبوتوس (Kibotos) ، ثم بقناة حتى يصل إلى بحيرة مريوط ومنها يصل فى النهاية إلى النهر بوساطة سلسلة من القنوات ، وعلى ذلك فإن تلك الميزة التى تمدح بها الكتاب وقالوا إن موقع الإسكندرية اختص بها وهى وقوعها « بين بحرين » ليست فى الواقع ميزة واضحة[٢] ؛ بينما كان موقع كانوبوس من حيث سهولة مواصلاته المباشرة بالنهر ووفرتها يفضل بكثير موقع الإسكندرية — وهناك صعوبة يجب ألا نغفل ذكرها ، بل نقدر لها حسابا فى تصميم الإسكندر ، وهى أنه لم يكن يوجد فى ذلك الموقع ما يمكن أن يسمى بميناء طبيعى ، لأن الأمر كان يتطلب القيام بأعمال ومنشآت عظيمة على نطاق واسع حقا ، كيما يُعد الإسكندر أو بالأحرى ينشىء ميناء صناعياً : فمن أرصفة ممتدة على طول الشاطىء والجزيرة ، إلى إقامة الحواجز والسدود التى تصلح لمد رأس لوخياس ، إلى ربط عدة جزر وصخور بفاروس ، وإقامة المنار على طرفها الشرقى ، وإلى إنشاء ما كان يسمى بالميناء الصغير (Limén Kleistos) الذى كان الدفاع عنه من السهولة بدرجة

---

(١) Lehmann - Hartleben, Op. Cit. p. 133 .

(٢) ذلك هو رأى المؤرخ « فان جرونتجن » فى مقاله ص ٢٠٥ حيث قال : "l'avantage de la situation d'Alexandrie « entre deux mers » n'esl donc pas três réel "

كافية . وكان الجسر الهائل الشهير « بالهيبتاستاديوم » هو العمـل الرئيسى ، والعنصر الأساسى فى ميناء الإسـكندرية الصناعى الذى أثار اهتمام النـاس ودهشتهم لضخامته وطوله البالغ أكثر من مائتين وألف متر(١) .

وإذا ضربنا صفحاً عن كل تلك الملاحظات ، وتسرب إلينا الشك فى أنها هى الدافع للإسكندر فى تأسيس الإسكندرية ، أصبح فى اعتقادنا أن نتيجة واحدة هى الماثلة ، وهى أنه من الخطأ أن نعتقد أن الحالة الطبيعية لذلك المكان كانت تدعو أو تشجع على تأسيس مدينة كان مقدراً لها أن تصبح مركزاً للتجارة العالمية ، وإذن جاز لنا أن نقلب البصر باحثين عن حافز آخر ، فلابد أن هناك عاملاً آخر ذا طابع خاص دفع بالإسكندر فى هذا الاتجاه ، فأغفـل الصعوبات ، وأقدم على الإذن بتنفيذ هذا المشروع الهائل ، فما هو يا ترى ؟

تشابه موقعى صور والاسكندرية

عادت فجأة إلى ذهن الإسكندر صورة ربما أبعدتها عن فـكره حوادث الأشهر السابقة فأيقظت فيه بعض الذكريات الحديثة العهد ، وصادفت هوى ورغبة من نفسه ، وفى الحقيقـة عند ما وصل الإسكندر ، بعد القيام بجولة فى بحيرة مريوط طاف فيها بسواحلها ، إلى نقطة من الشاطىء حيث كانت جزيرة فاروس تستلفت نظر الرائى ، بدا له أنه أصبح يتمثل صورة ذهنية حديثة العهد ، وأن هذا المنظر يذكره بحوادث الأمس القريب ، فأصبح يرى جزيرة أخرى أتاحت له الظروف أن يرابط فيها مدة أطول مما كان ينتظر ، وفى خلالها وقف على أحوالها بدرجة أكبر مما كانت تصبو نفسه إليها — تلك هى مدينة صور (Tyre) العتيـدة التى عطلته وأوقفت تقدمه إلى الجنوب مدة سبعة أشهر كان

---

(١) Lehmann Hartleben, op. cit. p. 132 .

خلالها دائب التفكير فيها من الشاطىء الأسيوى المقابل ، وهى رابضة فى عرض البحر تتحدى جيشه وأسطوله ، ولكى يتغلب عليها كان مضطراً أن يبنى جسراً يربطها بالقارة . وعندئذ رأى أنه نجم عن ذلك تكوين حوضين واسعين ، وأنه لم تعد صور تلك المدينة التى كانت منعزلة فى جزيرة قابعة فيها لأسباب الطمأنينة ، وإنما غدت — وقد ارتبطت بشاطىء القارة بجسر — ذات ميناء مثالى من النوع الذى كان يفضله الإغريق — ولا شك أن كل تلك الاحتمالات قد خطرت بباله ، وبدت له سهولة التحقيق فى تلك البقعة التى حط فيها رحاله[١] ، ويكفى أن نلقى نظرة عابرة على مصور للبلدين — صور والإسكندرية — لنتحقق من صحة هذا الزعم ، فالجسر الذى يربط مدينة صور القديمة المنعزلة فى جزيرة متاخمة للساحل بالقارة يشبه نظيره الذى يربط شاطىء الإسكندرية بجزيرة فاروس ، بل إن هناك وجه شبه رائع بين الحالتين ، فيمثل جسر الهيبتاستاديوم نظيره الذى بناه الإسكندر ليهاجم منه مدينة صور القديمة المعتصمة بأسوارها متحدية حصار الإسكندر مدة سبعة أشهر طوال . ولا يوجد أى اختلاف بين الحالتين إلا فى التفاصيل . ففى حالة صور كان الجزء الواقع على الشاطىء الأسيوى ضاحية مأهولة بالسكان ذات أهمية كبيرة ، ثم كان هناك حى ثان شامل لكل الجزيرة ، ويربط بين الاثنين جسر يفصل حوضين صناعيين كبيرين . وفى حالة الإسكندرية كان الجزء الواقع على ساحل القارة هو الجزء الرئيسى . ويظهر أن الإسكندر ، وهو واقف على حافة الشاطىء الإفريقى وهو أشبه بالشريط (Tainia) الذى يفصل بحيرة مريوط عن البحر ، أخذ يقلب البصر من حوله فكان يرى أمامه جزيرة فاروس ، وهى أول جزيرة

---

(١) انظر مقال العالم « فان جرووننجن » فى مجلة Raccolta Lumbroso سنة ١٩٢٥ صفحة (٢٠٦) .

وقع عليها نظره بعد جزيرة صور ، فتصور أنه واقف أمام صور مرة أخرى يرقبها من الشاطىء الفينيقى وهى رابضــة تتحداه ، فالتفت إلى من حوله وكأنما هو يبتدرهم بقوله « هنا صور أخرى » !! ذلك هو مبلغ تصورنا لما كان يدور بخلده. ولاشك أن هذا الشبه القريب بين حال صور وموقع فاروس فى عرض البحر وعلى مقربة من الشاطىء هو الذى استرعى نظره ووجهه إلى السبيل الذى اتخذه وذلك هو الأمر الأول الذى جعل الإسكندر يؤسس مدينته فى هـذا الموقع الذى أعاد إلى ذكراه تلك العاصمة الفينيقيـة الشهيرة التى كان يحاصرها بالأمس القريب .

ولـكن هذا الشبه وحده لا يكفى ، فمن الواضح أنه كان هناك أمر آخر أبعد من ذلك ، لأننا نـكون مسيئين إلى ذكاء الإسكندر ومتجنين عليه إذا قلنا إن مثل هذه الفكرة وحدها ، وهى ذكرى صور والتشابه بين موقعها وموقع فاروس ، هى التى جعلته يسلك هذا السبيل وأوحت إليه باتخاذ قراره . فالأمر الذى كان يمثل بالضبط عظمة الإسكندر وقوة روحه ونفسه الوثابة هو أنه كان قد توافر له بالإضافة إلى خياله الإنشائى الفذ ذكاء خارق للعادة استطاع به أن يكون منطقيا فى تفكيره ، يحسب لكل أمر حسابه فى تقديره ، ولكل فـكرة مقدماتها ونتائجها الطبيعية المنطقية ، ولم يكن من عادته أن يفـكر فى مشروع أو يقدم على تنفيذه إذا لم يضمن لنفسه جنى الثمار من ورائه ، أو لم يكن قد رسم لنفسه من ورائه غاية معلومة محدودة يرمى إلى تحقيقها ، فلابد أن الأمر كان كذلك فى حالة تأسيس الإسكندرية . ولقد برهن الإسكندر على أنه كان فى آرائه يرمى بدرجة كافيـة إلى التعميم والشمول لا إلى القصر والتحديد . وإمبراطوريته كانت ذات طابع عالمى ، وكانت شئون السياسـة وخطط الفن الحربى والتجارة من الأمور التى تعنيه فى الصميم ، ولها اعتبارات هامة فى نظره ،

وإذا كانت المسائل الاقتصادية موضع عناية ملك قديم كالإسكندر فلا عجب فى ذلك لأنه عاش فى عصر اتجهت فيه عناية الإغريق إلى الشئون الاقتصادية بتنمية موارد البلاد التى نزحوا إليها[١].

وفى مقال رائع للعالم ڤلكن (Wilcken) عن « الاسكندر الأكبر والحياة الاقتصادية الهيلينية »[٢] صور المؤلف الإسكندر أحد عظام الكاشفين فى تاريخ العالم ، وكان الإسكندر فى هذا المعنى إغريقيا صميما ، إذ صحب فتوحه فى آسيا الغربية ومصر استعمار واستيطان على نطاق واسع كان الغرض منه بالتأكيد اقتصاديا كما كان حربيا . وكان هذا الغرض الاقتصادى واضحا تماما فى رأس الإسكندر ، فلا عجب أن صحب غزوه لتلك البلاد تغلغل اقتصادى واستغلال مادى لتلك المساحات الشاسعة التى فتحها الإغريق والمقدونيون . ولقد طُبع هذا الاستغلال بطابع الدقة ، نظرا لما عرف عن أولئك الغزاة من المهارة والتفوق فى شتى الميادين السلمية فوق تفوقهم فى الميادين الحربية . وعلى ذلك تميز عصر الاستعمار المقدونى الإغريقى فى عهد الإسكندر وأخلافه باستغلال تجارى واقتصادى من طابع جديد تضمن تغلغل ألوف مؤلفة من المقدونين والإغريق ومن هم على شاكلتهم إلى داخل البلاد المفتوحة ، وتسربهم إلى داخل تلك المهاجر زرافات ووحدانا . وقد هيأت الحكومات المقدونية القائمة السبل أمامهم للاستفادة من مهاراتهم الفنية ، وخبرتهم الواسعة فى إدارة الأعمال ، ومقدرتهم على استغلال تلك المساحات الشاسعة من الأراضى الخاضعة استغلالا اقتصاديا منظما — ولقد توافرت لدى الإغريق خبرة خاصة بفن بناء السفن ، فلما غزا

(١) W. Westermann, Greek Exploitation of Egypt, Political Science Quarterly 1925, vol. XL .

(٢) U. Wilcken, "Alexander der Grosse und die Hellenistiche Wirtschaft" in Schmollers' Jahrbuch vol. 45, (1921) p. 357 .

الإسكندر غرب آسيا الصغرى وساحلي الشام وفلسطين أصبح فى حوزته أهم المراكز لبناء السفن والصناعات المتصلة بها فى العالم المتحضر إذ ذاك . ولقد ساعد ذلك الإشراف الذى آل إلى أيدى المقدونيين وكاد يكون كاملا على كل مراكز بناء السفن فى تلك المنطقة على إحكام ذلك الاستغلال المقدونى الاغريقى المنظم فى غرب آسيا ومصر و بلاد شرق البحر المتوسط فى الثلث الأخير من القرن الرابع والقرن الثالث — وفوق ذلك فلقد توافر لدى الإغريق قُبيل فتوح الإسكندر تقدم فنى فى بناء الموانى أكسبهم ميزة فى ذلك العصر . فالموانى المحصنة وغير المحصنة قد بنيت وفق نماذج إغريقية و بفضلها استطاع أهل صور تحدى الإسكندر مدة سبعة أشهر — ومما لا شك فيه أن المهندسين الإغريق فى أيام الإسكندر أُوتوا حظاً عظيما من الشهرة ومركزا رفيعا من التفوق فى مهنتهم من حيث الفن النظرى والتطبيق العملى ، فكان الأنموذج الذى ابتدعه المهندس العالمى هيبوداموس الميليطى (Hippodamus) الذى اشتهر بفن تخطيط البُلدان مسيطرا فى العالم القديم ، اقتبسه الجميع مدة أجيال . وكانت مشروعات المدن العديدة التى أمر الإسكندر بتخطيطها فى المستعمرات معتمدة فى أساسها على النظم المرعية فى تخطيط هيبوداموس هذا للبلدان . و يبدو هذا واضحا جليا فى حالة الإسكندرية ، وكان دينوكراتيس المقدونى (Deinocrates) الذى يرجع إليه الفضل فيما تم من مقاييس وتخطيط لمدينة الإسكندرية أحد هؤلاء المهندسين الذين كانوا يعملون وفق الخطة التى ابتدعها هيبوداموس — ولا شك أن بناء ميناء الإسكندرية كان فى ضمن الخطة الأصلية لبناء مدينة الإسكندرية كما وضعها دينوكراتيس . ومع هذا المهندس جاء ذكر زميل له يسمى كراتيس (Crates) من أهل أولينثوس (Olynthus) كان يلقب بالمهندس المختص بعمل النفق والسراديب (Taphrorychos) وكان مكلفاً العمل فى ميناء مدينة الإسكندرية . ويمكننا

أن ننسب إليه القيام بوضع تلك الشبكة من مجارى المياه والصهاريج تحت سطح الأرض فى مدينة الإسكندرية لحمل المياه العذبة إليها فى الزمن القديم[1] من أحد أفرع النيل .

تلكم هى بعض مزايا الخبرة والمهارة الفنية والمقدرة على القيام بالأعمال والمنشآت والرغبة فى البحث والإقبال على عمل التجارب التى توافرت لإغريق ومقدونيى هذا العصر الذين تغلغلوا فى آسيا الغربية ومصر فى أعقاب حملة الإسكندر تؤيدهم الحكومات المقدونية المتعاقبة — وبمثل ذلك الروح المنطوى على التفوق فى المشروعات والقدرة على تنظيم الأعمال هبط الإسكندر على مصر بخيله ورجله تحدوه رغبة أكيدة فى استغلال البلاد استغلالا اقتصاديا . وقد توافر لديه عدد كبير من الخبراء والاقتصاديين كانوا يخترعون له فى إبراز مشروعاته إلى الوجود .

وهناك اعتبار آخر كان له قيمته فى تقدير الإسكندر — ذلك هو القيمة الحربية والموقع « الاستراتيجى » الذى كان لمدينة الإسكندرية . ويمكننا أن نقول بوجه عام أن الإسكندر كان ينوى أن تمثل الإسكندرية نفس الدور الذى مثلته صور ولاشك أنها كانت قادرة على تمثيله . فالإسكندر كان إذ ذاك سيداً على كل الساحل الشرقى للبحر المتوسط والممالك المطلة عليه ولم يكن ذلك الفاتح الغازى ، الذى خاض غمار حروب من عدة سنين ، قد وصل إلى غايته وضالته المنشودة بعد ، فلابد أن يكون بالطبيعة قد فكر فى المزايا « الاستراتيجية » لميناء حصين مؤسس على الشاطئ المصرى وكان الإسكندر يدرك تمام الإدراك أن من يمتلك الإسكندرية على هذا الشاطئ الإفريقى تصبح مصر ولا شك فى قبضة يديه بل تؤول إليه السيطرة على شرق البحر المتوسط كما ضمن الفرس

---

(١) دائرة المعارف الألمانية Pauly Wissowa Real. Encycl. جزء أول صفحة (١٣٨٢) .

بامتلاك صور السيطرة عليه من قبل — لم يغب هذا الاعتبار عن الإسكندر وإنما فهمه جيداً كما كان يفهمه الفرس من قبله والرومان من بعده[١] — وعلى ذلك كان فى تقدير الإسكندر لمؤسسته الجديدة أهمية لم يكن فى ميسور نقراطيس (Naucratis) القديمة — وهى المركز التجارى البحت — أن تحققها[٢] .

وإن فى إصرار كثير من العلماء على أنه كان لهذه المؤسسة الحديثة أهمية حربية شىء كثير من الصدق ، ولـكن يأتى فى المقام الثانى بعد ذلك مباشرة الأهمية التجارية ، والدلائل على ذلك كثيرة ، منها أن الإسكندر لم يحاك أنموذجه مراعياً الدقة فى إخراج صورة الإسكندرية على نسق « صور » باتخاذه من جزيرة فاروس الحى الرئيسى فى مدينته ، وإنما جعل الحى الرئيسى على شاطئ القارة الإفريقية ، ثم إن الاتساع الذى كان عليه حوضا الميناء كان يفوق الحد المعروف فى ذلك العصر ، ثم آخر الأمر كان اتساع رقعة المدينة نفسها من الأمور الدالة على نيات الإسكندر التى كانت تنطوى على أنه لم يكن يقصد أن يجعل من مدينته هذه مجرد حصن وميناء حربى وإنما أرادها سوقاً عالمية . لقد خرّب صور لأنها قاومته ولربما جد فى الأمر بعـد سنين قليلة ما جعله يندم على فعلته تلك وانتقامه من صور على هذا الوجه العنيف . ومهما يكن من أمر فإنه من الجلى أن أهمية الإسكندرية التجارية كانت أحد المقاصد التى كانت تدور بخلد مؤسسها وهـذه هى الحقيقة فى الفـكرة التى قال بهـا أرسطاليس الزائف[٣] وهى أن الإسكندر أمر بأن « تبنى مدينته بالقرب من فاروس وأن يجعل السوق

---

(١) لم تخف أهمية الإسكندرية وموقعها الحصين على الرومان فى حرب الإسكندرية Bellum Alexandrinum المنسـوبة إلى يوليوس قيصر أو بالأحرى هرتيوس (Hirtius) فى الفصل السادس والعشرين ؛ (Tacitus, Annals, II, 59) .

(٢) M. E. Cavaignac, Hist. de l'Antiq. III p. 432 .

(٣) Pseudo-Aristotles, Oecon. II, 33 .

(emporium) بها أعظم من السوق الواقعة على كانوبوس » . أما « جستن »(١) (Justin) وهو أحد الكتاب الناقدين للاسكندر غير المشفقين عليه ، فلقد ذكر رأيه فى تأسيس الإسكندرية فى عبارة تنم عن سوء القصد نحو الإسكندر بقوله : « إن الإسكندر بعد عودته من واحة آمون أسس الإسكندرية وأمر بأن تكون مستعمرة المقدونيين هذه عاصمة لمصر » ولكن من الصعب تصديق القول بأن الإسكندر قصد أن يسىء إلى الشعب المصرى ، الذى أحسن استقباله وتلقاه بالترحاب ، بإصدار أمره بأن تكون مستعمرة المقدونيين عاصمة لمصر . وزيادة على ذلك فليس من الدقة فى شىء أن نتحدث عن وجود مستعمرة المقدونيين فى الإسكندرية ، ولعله من الخطر أن نعترف بأن الإسكندر بادئ ذى بدء قد رغب فى أن تحل الإسكندرية كعاصمة محل ممفيس القديمة التى بقيت مدة قرون بعد ذلك العاصمة الحقيقية لمصر المصرية(٢) .

وعلى ذلك يمكننا أن نقول بحق إن عوامل مجتمعة صاحبت هذا الاختيار فهناك من ناحية عواملُ ذات طابع اقتصادى ، ومن ناحية أخرى عوامل ودوافع ذات صبغة حربية وسياسية . وتلك العوامل مجتمعة هى التى حسمت الموقف وجعلت الإسكندر يقدم فى غير تردد على إصدار أمره بإنشاء مدينة الإسكندرية التى أصبحت مركزاً للتجارة يربط مصر بالعالم الإغريقى وأفقاً تشرئب إليه أعناق سكان مصر قاطبة وحلقة اتصال بينهم و بين عالم البحر المتوسط المتحضر ، فكانت تلك المدينة تستخدم ميناء لنقل المتاجر فى جنوب شرقى البحر المتوسط

---

(١) Justin, XI, 11, 13 (Reversus ab Hammone Alexandream Condidit et. Coloniam Macedonum Caput esse Aegypti jubet).

(٢) بيورى — تاريخ اليونان صفحة ٧٧٢ — ٧٧٣ حيث يقول إن القصد من إنشاء الإسكندرية لم يكن حلولها محل ممفيس كعاصمة للبلاد المصرية بل قصد مؤسسها الأول أن تحل محل صور كمركز تجارى فى غرب آسيا وشرق البحر المتوسط .

ويأتى فى المقام الثانى أنها أصبحت مدينة قوية يسهل الاتصال بها والوصول إليها ، فوق أنها مكنت الإسكندر من فرض سلطانه ونفوذه على مصر التى كان يعرف جيداً مبلغ ما بها من ثروة وما فى بطنها من خيرات وكنوز ، فعمل على ربط مصر برباط وثيق ببقية أمبراطوريته التى أرادها أن تكون وحدة كاملة ، وهذا يجعلنا ننظر إلى تأسيس الإسكندرية على أنه حلقة فى نطاق واسع شامل لمجموع آمال الإسكندر وأطماعه . وهناك اتفاق فى الرأى بأن سياسة الإسكندر كانت فى تطور وأن أفكاره كانت تتسع بنسبة اتساع فتوحه وامتداد أفق آماله ، وكان تحقيق مشروعاته هذه يخلق أفكاراً جديدة أوسع مدى وأبعد أفقاً وأعمق أثراً (١) .

وإن خطة الإسكندر ، التى كان ينتوى تنفيذها غداة حصار صور ، لتثبت أنه كان يعتبر نفسه من قبل سيداً على مملكة الفرس (٢) ولكن تأسيس مدينة على نطاق واسع على الشاطىء الأفريقى ، قدر لها أن تسهل طرق المواصلات بين البلاد المصرية والعالم الهيلينى وان تتركز فيها التجارة البحرية ، يتيح لنا أن نستخلص نتيجة شائقة هى أن الأسكندر كان يعتبر دائماً أن البحر المتوسط هو النطاق الطبيعى لأمبراطوريته والمجال الحيوى لها ، وما العالم الأيجى والهيلينى إلا القلب النابض والسر فى وجود هذه الأمبراطورية ، فلما توغل فيما بعد فى قلب مملكة دارا أخذ يحسب حساب اتساع هذه الفتوح ومطالبها وحاجاتها الضرورية ، وعندئذ أخذ يدرك أن أهمية البحر المتوسط لم تعد أساسية بالنسبة له ، فهناك المحيط الهندى الذى أصبح يمثل دوراً لا يقل أهمية عن دور البحر المتوسط

---

(١) مقال فان جرونجن (Raccolta Lumbroso) سنة ١٩٢٥ سلسلة مجلة "Aegyptus" صفحة (٢١٠) .

(٢) Arrian II, 17; Kaerst p. 374 n. I .

بالنسبة لذلك الجزء الآخر من أمبراطوريته — وعلى مضى الزمان أصبحت بابل القديمة هي المركز الأدارى والأقتصادى فى مُلك الأسكندر الشاسع المترامى الأطراف، بينما لم تصبح بلاد الأغريق سوى ولاية متطرفة واقعة على حافة الحدود الغربية لمملكته، ولما أخذ الإسكندر يدرك حقيقة الأمر ويتبين الموقف من جميع نواحيه لابد أن تكون أفكاره عن مدينته المصرية أخذت فى التغيير وبدأت آراؤه إزاءها فى التعديل لأنه وجد أن أهميتها بالنسبة له قلت كثيراً عن ذى قبل، وهكذا قيل[١] إن أراءه قد تغيرت فى سنيه الأخيرة وانه لو عُمِّر لأعاد صور سيرتها الأولى، فلو قدر له أن يعمر أطول مما كان لكى يصقل مشروعاته ويشكلها بشكلها الأخير لفضل على الإسكندرية مدينة أخرى تكون مركزاً تلتقى عنده شرايين الطرق التجارية، وقضى الأمر ولم تعد مصر التى — كانت غرابتها دائماً عقبه كأداء فى سبيل اليونانيين — الدولة التى كانت الظروف الطبيعية تتطلب منها القيام بدور هام عظيم فى مجموع العلاقات الدولية وإنما أصبحت فينيقيا الدولة ذات الموقع المثالى من وجهة النظر التى كان الإسكندر يحرص على تحقيقها فى سنيه الأخيرة بعد أن دالت دولة الفرس، فكانت هذه الدولة الفينيقية تؤدى رسالتها هذه مدى أجيال طويلة وحلقة اتصال دائم بين وادى الفرات والعالم الغربى؛ وفى الحقيقة كان فى وفاة مؤسس الإسكندرية ضمان لمستقبل تلك المدينة فى التفوق وبلوغ المنزلة الممتازة، ومهما يكن إدراك الإسكندر وطموحه الى توحيد الشرق والغرب فإنه إلى سنة ٣٣١ ق . م . كان لا يزال ملكا على مقدونيا وقائداً أعلى لبلاد اليونان وبطلا لأوربا، ناصراً لها على آسيا، ولكن كلما اتسعت آفاق فتوحه شرقاً، أخذ يشعر بأنه أصبح خليفة الملك الفارسى العظيم، وأن بلاد

(١) فان جرونتجن المقال السابق ص ٢١٠ ؛ بيل (Bell) مجلة الآثار المصرية عدد ١٣ سنة ١٩٢٧ ص ١٧٢ — ١٧٣ .

اليونان ومقدونيا أصبحتا جزءاً صغيراً من أملاكه الواسعة ، وعلى ذلك ظهر له أن ميناء يتصل مباشرة بأملاكه الأسيوية يكون أنفع له من ميناء بعيد كالإسكندرية ، ولكن الحمى القاتلة التى أصابته فيما بين النهرين (Mesopotamia) أخرجت تقرير ذلك المصير من يده ، ولما مات فى سنة ٣٢٣ ق . م . كانت المدينة الجديدة لا يزال مقدراً لها أن تخلف صور فى التفوق التجارى فى شرق البحر المتوسط

ولم يكن من المستحيل على الإسكندر ، الذى اشتهر بالفطنة وثاقب الرأى والغيرة الشديدة أن يمحو الفوارق التى كانت توجد بين الامم المختلفة فى مملكته الشاسعة وأن يجعل منها مجموعة واحدة يتمثل فيها الانسجام والاتساق التام وأن يعيد إلى صور أهميتها ومجدها القديم ، وعلى ذلك كان الأمل فى أن يتحقق لمدينة الاسكندرية المصرية النجاح الكامل مشوبا بالمخاوف وتنتابه المخاطر متى استقر الاسكندر فى بابل واتخذها مقراً لملكه ، بينما كان الأمل فى أن يتحقق النجاح التام لمدينة الفرما التى ثبتت أهميتها الحربية من قبل[١] أو لميناء أخرى على البحر الأحمر . أقوى وأشد — وإذا تساءل الإنسان عما هو سر النجاح العظيم الذى صادفته هذه المدينة على الرغم من كل هذه الامور فلا يكفى أن نقول مع بوسنياس (Pausanias)[٢] « إنه ذلك الحظ السعيد (Tyche) الذى حبا السكان أنفسهم وخصهم برعايته » بل نستطيع أن نجمل القول فننسب ذلك التقدم العظيم الذى صادفته الاسكندرية إلى فشل مشروعات الإسكندر فى سنيه الأخيرة فكان فى موت الاسكندر الفجائى خلاصاً للمدينة ، فلم تتحقق فكرة إمبراطورية واحدة عظيمة شاملة للعالم المتحضر ، يكون مركزها وعاصمتها بابل ، وأصبحت الولايات المختلفة ممالك مستقلة ، كانت مصر إحداها وتمثل وحدة لا تتجزأ وتحتل مركزاً

(١) Arrian III, 5, 3

(٢) Pausanias, VIII, 33, 3 ; Van Groningen, Raccolta Lumbroso p. 211

ممتازاً ، وقد توافرت لها ثروة طبيعية لا تنفد ، استغلها ملوك مستنيرون هم البطالمة الذين أوتوا قسطاً عظيماً من الفطنة والذكاء فيسروا السبل وعملوا على تحسين أحوال البلاد الاقتصادية ، فكانت المدينة الجديدة التى اتخذت مقراً للحكم أول من أفاد من هذه النهضة الاقتصادية التى عمت أرجاء البلاد ، وأخيراً بقى البحر المتوسط مثلما كان من قبل مركزاً لحضارة هيلينيه أوربية ، وبقى الفرس أمة شرقية تماماً ، وبذلك ضاعت الفرصة على فينيقيا وظهر أن للمزايا التى تستطيع أن تقدمها قليلة القيمة محدودة النفع ، وأخذت الإسكندرية تسير قدماً بخطى واسعة الى مستقبل باهر وحظ وافر دون أن يعترضها منافس خطر تخشى جانبه أو تقيم له وزناً ، وأخذت تتدفق إليها المتاجر من كل صوب ويفد إليها الغادون والرائحون ، وقد هبطوا إليها ملبين نداء ملوكها البطالمة الأولين وقد حملوا فى جعبهم آمالا عريضة وأفكاراً جديدة وخبرة واسعة بأساليب الفن الحديث فى عالم الاقتصاد والحرب ، فكانوا لملوكها العون ونعم العون ، ولمصر مصدر النشاط والقوة الفعالة فى نهضتها فانتشروا فى ربوع مصر تحدوهم رغبة أكيدة فى الإفادة والنفع ولكن لم يتحول أفقهم فى هذا أو ذاك عن الإسكندرية التى كانت أعناقهم مشرئبة إليها دائماً ، وقد اتجهوا إليها بقلوبهم وحجوا إليها فى الأعياد والمواسم وذكرى ميلاد الملوك وتوليهم الملك[1] فكانت المدينة تفيض عليهم من بهجتها وزخرفها ومسراتها وحبورها ونضرتها — تلك هى الاسكندرية التى لم تتخلف قط عما قدر لها فقد استقر فيها إذ ذاك أناس على جانب كبير من النشاط أشربوا روح التجديد وتميزوا بمقدرة تجارية خاصة وكانت هذه المدينة تشرف على بلد خصوبته مضرب الأمثال ويسكنه شعب نشيط ويتصل بالطرق

---

(١) وهذه الحفلات مثل Ptolemaea ، Arsinoeia ، Pentaeteris وكانت الأخيرة تعقد مرة كل أربع سنوات .

التى تؤدى الى البحر الأحمر والممالك التى تنتج التوابل ، وله ميناء أصبح ، بعد إتمام الأعمال الضرورية ، يساوى أفضل الموانىء فى العالم القديم ، وقد كتب لهذه المدينة أن تكون العاصمة التجارية للشرق ، و يظهر أن الاسكندر لم يكن ينوى أن يجعل مؤسسته عاصمة البلاد ، وربما أقام ممثله فى ممفيس وحكم منها البلاد ولم يحدث موت الاسكندر أى تغيير عاجل فى هذا الشأن .

* * *

و بموت الإسكندر انهار ذلك البناء الشامخ الذى تعب فى إقامته وتداعت أركانه ، ومع ذلك فإن النبوءات التى تنبأت بعظمة الإسكندرية المستقبلة لم يثبت خطؤها و بطلانها ، و إذا كانت الإسكندرية عجزت عن أن تصل الى تحقيق سيطرتها وسلطانها على العالم القديم [1] فإن مزايا موقعها الفذ بقيت ، وفوق ذلك فقد ساعد على تقدمها لحد كبير سلطان البطالمه وقوتهم و كذلك ضعف الممالك المجاورة ، فكانت طبيعة المدينة وقوة البطالمة تحميها ضد كل أصناف العدوان وصروف الحدثان ، ولم يصادف تقدمها السريع مثل تلك الإنقلابات العنيفة التى كانت سبباً فى تخريب آسيا ، ولما عجز جيش بطلميوس الأول عن حماية عاصمته ضد الغزاة من أخلاف الاسكندر وهما برديكاس (Perdiccas) وانتيجونس (Antigonus) قامت الرياح والنيل بالقضاء على أولئك الغزاة وتشتيت شملهم ، ومصر التى يكتنفها البحر المتوسط والبحر الأحمر وتحيط بها الصحراء من الشرق والغرب ، قد أصبحت معدة أحسن إعداد لأن تصير مملكة قوية مهيبة الجانب ، آمنة مطمئنة من غائلة العدوان ، فهى مملكة ذات حدود طبيعية يكاد يكون العدوان عليها واجتيازها أمراً صعب المنال ، وقديماً سمى الخطيب ايسوكراتيس

(١) بعد الهزيمة التى لحقت بكليوباتره السابقة وانطونيوس فى موقعة أكتيوم سنة ٣٠ ق . م .

(Isocrates) النيل حائطاً خالداً (١) فكانت هذه العوائق الطبيعية تصد العدو الزاحف عليها من الخارج . أما فى داخل حدودها فإن سهولة المواصلات ضمنت طاعة السكان وخضوعهم للحكومة القائمة ، وكان المصريون قد فقدوا تدريجياً تقاليدهم القديمة المتوارثة ، وفوق ذلك فلم يكن لديهم سبب يأسفون معه على ضياع سلطان الفرس على بلادهم .

بطلميوس والى مصر :

تلك هى البلاد التى كانت من نصيب بطلميوس بن لاجوس أحد قواد الاسكندر وكان يبلغ من العمر إذ ذاك نحو أربعين عاماً عند ما اختص بمصر فى توزيع الولايات المخلفة من امبراطورية الاسكندر — وكان بطلميوس هذا حسن التقدير بعيد النظر فقدر ان « عصفوراً فى اليد خير من اثنين على الشجرة » ولم يشأ أن ينازع القواد الآخرين فيمن يتولى نصيب نائب الملك فى حكم الأمبراطورية كلها بل قنع بالاستيلاء على مصر الغنية وعمل على أن ينقل اليها جثة الفاتح العظيم (الاسكندر) ولما ظفر بهذا الحرز الثمين يمم شطر مصر تاركا زملاءه يفضون مشاكلهم وخلافاتهم فى آسيا (٢) ، وكان بطلميوس هذا زعيماً قديراً وسياسياً بارعاً حصيفاً جمع بين الاعتداد بالرأى والدأب فى السعى وبين المداراة ، وكان يسعى لتحقيق غرض واحد فلا يتحول عنه ويظهر صلابة فى العمل على تحقيق بغيته وكان يتخذ سبلاً مختلفة لذلك ويلجأ إلى استعمال القوة واستخدام الحرب فيما لا ينتظر أن يحققه بالطرق الدبلوماسية ، وكان شديد الرغبة دائماً فى تحقيق فتوح ثابتة أكثر من حبه فى

---

(١) Isocrates, Busiris, 12

(٢) انظر تاريخ العالم اليونانى للعالم (Cary) ص١٣ ، وفيه يشرح كيف استطاع بطلميوس بدهائه أن يستولى على رفات الاسكندر غير آبه بما ينجم عن ذلك من مجافاة وتحدى لبرديكاس ، (رستوفتزف Rostovtzeff) Social & Economic History of Hellenistic World, 1940 pp. 261—7 .

التظاهر بالأبهة والاحتفاء بمواكب النصر ، وكان فوق كل ذلك يجمع بين الأناة والصبر فى المسائل الصغيرة وبين الاهتمام بالمسائل الجليلة وعلى ذلك كان ذلك القائد يجمع فى شخصه كل الصفات الضرورية لمؤسس إمبراطورية ،

وفى عصر الغزو المقدونى كانت طبقة المحاربين من المصريين قد أوشكت على التفكك بل ضاعت معالمها ، وبفضل الأساليب السياسية البارعة استطاع بطلميوس أن يستحوذ على الكهنة ويسيطر عليهم ، وفى شتى أرجاء المملكة لم يكن غير شعب خاضع ، وكان يؤيد بطلميوس جيش يبلغ عدده مائتى ألف رجل يتألف أغلبه من الأغريق وفيه يتولى المقدونيون أرفع المناصب ، وقد سيطر هذا الجيش بالتدريج على الشرطة والمحاكم الجنائية وحتى على جزء من الادارة المدنية [1] ، وفوق ذلك فإنه كان فى خدمة بطلميوس جمع غفير من الموظفين الطامعين فى المال والمتزلفين الذين يقدمون للملك فروض الولاء والطاعة ويتمع بطلميوس بإيراد سنوى يقدر بنحو ثلاثة ملايين من الجنيهات [2] أفلم يكن بطلميوس بكل هذا فى مركز يساعده على أن يركز جهوده وموارد بلاده فى الاسكندرية ؟ وبفضل حسن استخدام هذه الموارد ألم يكن فى استطاعته أن يهيئ فى الاسكندرية كل الوسائل والسبل التى تجعل منها مدينة عالمية وعاصمة للشرق كله فتكون قبلة أنظار الاغريق وينشىء فيها من الأبنية والمعاهد والمعابد ما يصبح مضرب الأمثال ، ويحيط نفسه بحاشية من العلماء والسفراء ، فيقيم فيها نهضة علمية مباركة ؟ وفى تلك الظلال الوارفة لهذا الحكم المطلق الهادئ الذى أقامه فى مصر ، ألم يكن واثقا أنه يستطيع أن يعيد بعث الآداب التى كانت فى أيام أخر ثمار الديمقراطية الجامحة الهوجاء فى أثينيا وغيرها من مدن بلاد الإغريق ؟ .

---

(١) Robiou, Memoire sur l'Economie poltique de l'Egypte au temps des Lagides, 1876.

(٢) Robiou, Memoire sur l'Economie etc ; Droysen, Geschichte des Hellenismus i, pp. 44—45

اتخذ بطلميوس الأول مقره أول الأمر فى ممفيس ، حيث دفنت جثة الإسكندر أولا و بعد ذلك نقل بطلميوس عاصمة الملك إلى الإسكندرية ، وليس معروفا على سبيل التحقيق تاريخ ذلك ، ولعله خطا هذه الخطوة بعد تغيير فى اتجاه سياسته ، ولقد انبرى العالم الألمانى (Kornemann) فى مقال رائع[١] ، للتدليل على أن سياسة بطلميوس الأول اعتراها تغيير ، فيظهر أنه فى العهد الأول من ستراتيجيته سار أولا على خطة الاسكندر ونهجه فى تشجيع الاختلاط بين اليونانيين والمصريين ، ثم بدا له فغير هذه السياسة ، وما لبثت سياسة البطالمة الثلاث الأول أن أصبحت تقوم على اعتبار مركز المقدونيين والإغريق إزاء الشعب المصرى كمركز السيد من تابعه ، وهو مبدأ يخالف تماماً السياسة التى نهج عليها الإسكندر ، والتى كانت تنطوى على المزج والتوفيق بين الشعبين[٢] ، فما أصل هذه السياسة المنطوية على السيطرة ومتى حدث هذا التطور والانحراف عن سياسة الإسكندر ؟ التى نعرف تماما أنها كانت تقوم فى مصر على التقرب نحو هذا الشعب الخاضع بطريقة واضحة لا مواربة فيها ، فقال عنها المؤرخ القديم أريان(Arrian) إن الملك الشاب ، بعد دخوله مصر واحتلاله ممفيس، سارع بتقديم القرابين والتضحيات إلى الآلهة المصرية ، وإلى آبيس (Apis) وأنه نظم فى الوقت نفسه ألعاباً رياضية ومباريات و « مهرجانات » موسيقية فى ممفيس اشترك فيها أشهر الفنيين فى العالم الإغريقى ، فكأنه بعمله هذا ، فى رأى العالم الألمانى « فلكن » قد أعلن عن بدء عصر جديد فى مصر ، ولما أمر ذلك الفاتح الغازى بتأسيس المدينة الإغريقية الجديدة وهى الإسكندرية ، حرص على أن

---

(١) E. Kornemann, Die Satrapen politik des ersten Lagiden, Raccolta Lumbroso, Aegyptus 1925, pp. 235—245 .

(٢) الأدلة على ذلك عديدة منها U. Wilcken, Grundzuge I, p. 20 ; W. Schubart Einfuhrung in die Papyruskunde 1918, p 229 ; Schubart, Aegyptenvon Alexander 1922, p. 39 etc .

يبنى فيها كذلك بخلاف المعابد الإغريقية معبداً للإلهة المصرية إيزيس (Isis) وعند مغادرته البلاد لإتمام فتوحه فى آسيا ، وَكِلَ الإشراف على النظم الإدارية فى وادى النيل إلى وطنيين إثنين هما : دولوآسبيس (Doloaspis) ، وبتيسيس (Petisis) والقيادة الحربيــة إلى قواد إغريق ، والإدارة المالية إلى إغريقى محلى من أهل نقراطيس ، وكان يسمى كليومينيس (Cleomenes) ، فلِمَ لم يعمر هذا النظام الثلاثى ؟ هذا سؤال يحار المرء فى الإجابة عنه .

لم يتخذ بطلميوس فى أثناء مدة حكمه ساترابا ، الإسكندرية عاصمة له ، فهو إما أنه كانت لديه عاصمتان هما : ممفيس المصرية ، والإسكندرية الإغريقية ، وإما اتخذ ممفيس وحدها عاصمة ، والأمر الأخير هو الأكثر احتمالا[١] ؛ فمنذ عهد طويل لم تصبح ممفيس مدينة مصرية صميمة ، بل كانت بها عناصر جنسية مختلفة ، وفدت إليها على توالى الزمان من الشرق ، وبالأخص جالية هيلينية ، تسمى هيلينوممفيتاى (Hellenomemphitae) استقرت حول هلينيون (Hellenion) ، وكان لها نظامها الهيلينى الخاص بها ، وكان هذا الطابع الجنسى الخليط ، الذى كان عليه سكان المدينة ، مشجعاً على الاستمرار فى اتباع السياسة التى استنها الإسكندر بينما لم تكن الاسكندرية ، فى عرف الناس إذ ذاك ، داخل حدود مصر ، وإنما واقعة على تخومها "Ad Aegyptum" ، فكان اتخاذ مدينة أجنبية عاصمة للبلاد إذ ذاك أمراً غريباً منطوياً على عدم لياقة ، وهناك حقيقتان جديرتان بالاعتبار تؤيدان الرأى القائل بأن بطلميوس الأول بصفته والياً (سترابا) اختار ممفيس أول الأمر لتكون مركزاً ومقرا للحكم فأولتاهما أن البطالمة كان لا يزال لهم حتى عصر متأخر قصر ملكى فى ممفيس ، ولا بد ان هذا القصر ، كان قد شيد فى أول عهد حكومتهم . وثانيتهما تتضمن أن الجناز الأول للاسكندر ،

---

(١) مقال « كورنمان » عن السياسة الستراپية للبطالمة الأول ص ٣٣٧ .

تم على يدى والى مصر الأول فى هذه العاصمة القديمة ، حيث كان يتوج الفراعنة الأقدمون ، وكان القصد الأول أن يصبح هذا الجناز الذى تمت مراسيمه وفق العادات المقدونية نهائيا[١] ؛ ولما كان بطلميوس بعمله هـذا قد تجاهل رغبة الإسكندر المتوفى فى أن يدفن فى معبد زيوس آمون بواحة سيوه ، واختار له ممفيس كيما تكون مقره الأخير ، فإن فى هذا دلالة كافية على أن بطلميوس كان ينوى أن يكون لهذه المدينة مستقبل عظيم ، فـكما فعل سـيده الإسكندر ببابل ، واختارها عاصمـة لأمبراطوريته الأسيوية ، كذلك كان بطلميوس قد قرر فى نفسه أن تـكون عاصمة الفراعنة (ممفيس) عاصمة استراتيجيته المصرية ، وفى هذا تكريم أيمـا تكريم للوطنية المصرية ، وعلى ذلك استخلص العالم كورنمان من استقرائه الحوادث على هذا النحو ، الرأى القائل بأن سياسة البطالمة الأول فى وادى النيل لم تكن تنطوى على ضمان سيادة مقدونية هيلينية مفروضة على المصريين ، وإنما اتبعوا سياسة تقرب نحوهم ، تضمنت امتزاج العنصرين ، الإغريقى والمصرى ، وفق الخطة التى رسمهـا الإسكندر ، ثم ما لبث بطلميوس الأول أن تحول عن هذه السياسة[٢] ، وأحل محلها مع المصريين سياسة الفاتح مع المهزومين ، وهى السياسة التى احتذاها أخلافه ، وساروا فيها على طريقته إلى أن بدا ضعف ظاهر على ملوك أسرة البطالمة ، فاضطروا أن ينهجوا نهجا آخر ، فقدموا ترضيات وإعفاءات لرعاياهم من المصريين ، ولعل نقل مقر الحـكومة من ممفيس إلى الإسكندرية فى عهد بطلميوس سوتر واتخاذ الإسكندرية عاصمة للمـلك كان العنوان الظاهر الدال على تغير مجرى السياسة القديمة ، ولا بد أن بعيدى النظر من المصريين استطاعوا إدراك كنه ذلك وما يتضمنه من مغزى ، ولقد تلا ذلك اتخاذ إجراءات أخرى ترمى إلى نفس الغاية .

---

(١) مقال « كورنمان » عن السياسة الستراتية للبطالمة الأول صفحة ٢٣٨ .

(٢) مقال « كورنمان » عن السياسة الستراتية للبطالمة الأول صفحة ٢٣٨ .

بطلميوس وعبادة سيرابيس :

ولما كان وجود دين مشترك هو أوثق رباط بين الأجناس والشعوب فى هذه الأزمنة ، فإنه كان ينتظر أن يعتبر الأغريق والمصريون الإسكندرية وطناً لهم لو أنها أصبحت أيضاً وطناً لآلهتهم ، وكان من شأن توحيد العبادتين أن يصبح توحيد الشعبين أمراً هيناً فإذا وجد الشعب المهزوم أن الآلهة الأغريقية قد تحولت ، على الأقل فى الظاهر ، إلى آلهة مصرية فإنه سوف يتقبل بسهوله قوانين غُزاته ولغتهم وأدبهم من غير كبير ريبة ، وفوق ذلك كان الاسكندر قد ضرب المثل بتوحيده فى الاسكندرية عبادة الآلهة الرئيسية فى كلتا المملكتين فأسس معبداً للالهة ايزيس (Isis) فى الاسكندرية لكى يظهر رغبته فى تكوين علاقات الصداقة مع المصريين كما أقام للمعابد للآلهة اليونانية[١] فلما أتى بطلميوس إقتفى أثر هذا المثل وجعل للبلاد معبوداً جديداً هو سيرابيس (Serapis) وقد ظهرت عبادته أولا فى ممفيس ، ملتقى اليونان والمصريين ، وكان هذا الاله الجديد هو الاله الرسمى فى امبراطورية بطلميوس ، ثم أصبح مركز هذه العبادة الرسمى مدينة الاسكندرية حيث أخذت تصطبغ بصفة نهائية بصبغة هيلينية وتوضع لها تقاليد وطقوس هيلينية ، ولقد روى لنا الكاهن المصرى مانيتون السمنودى قصة نقل تمثال الإله سيرابيس الى الاسكندرية بطريقة روائية فقال: — « رأى بطلميوس سوتر (أى المنقذ) فى المنام تمثالا ضخما لبلوتون (Pluto) فى سينوبى (Sinopê) ولم يكن قد رآه من قبل ولم يعرف شكله ، وقد أمره الاله أن يعجل بنقل التمثال إلى الاسكندرية فتحير الملك فى أمره ولم يدر أين يوجد هذا التمثال ولكنه بينما كان يقص هذه الرؤيا على أصدقائه تقدم اليه رجل جاب كثيراً من الأقطار اسمه سوسبيوس (Sosibius) وأخبره إنه رأى فى سينوبى تمثالا ضخما مماثلا لذاك الذى حلم الملك إنه رآه ولذا بعث الملك

(١) M. Cary, History of Greek World p. 372; Arrian Exp. of Alex. III ,1. 5

سوتيليس (Soteles) ، وديونيسيوس (Dionysius) فاستطاع هذان بعد وقت طويل وجهد كبير أن يسرقا التمثال ويعودا به ، ويرجع ما صادفاه من توفيق إلى العناية الالهية ، ولما حُمِل ذلك التمثال إلى مصر ورآه الناس هناك انبرى تيموثيوس (Timotheus) الشارح ، ومانيتون (Manetho) السمنودى وزملاؤهما وقرروا إنه تمثال بلوتون ، وحجتهم فى ذلك وجود كربيروس (Cerberus) [وهو كلب ذو ثلاث رؤوس كان يحرس مدخل العالم السفلى هيديس (Hades)] والأفعى ، وأقنعوا الملك بطلميوس إنه لا يمثل إلهاً آخر غير سيرابيس (Serapis) ، لأنه لم يأت من موطنه الأصلى حاملا اسماً مصرياً وإنما اتخذ اسم بلوتون عند المصريين ألا وهو سيرابيس وذلك بعد إن جاء إلى الاسكندرية »[٢] .

وهكذا قامت عبادة سيرابيس فى الاسكندرية وقصد بهذه العبادة الجديدة أن توثق العلاقات وتؤلف بين الطبقات الحاكمة من الاغريق وبين رعاياهم من المصريين ولقد نظمت عبادة سيرابيس فى مصر نفسها حتى أصبح سيرابيس هو آله الاسكندرية الرئيسى وقد أقيم له معبد عظيم فى الجزء الجنوبى من الاسكندرية

---

(١) قطعة نمرة ٨٠ من ما نيثون — اقتبسها بلوتارك فى مقاله عن إيزيس وأوزوريس فصل ٢٨ — ولقد ذكر كثير من المؤرخين والكتاب القدماء قصة نقل هذا التمثال الضخم لسيرابيس إلى الاسكندرية فى شيء من التفاوت والاختلاف منهم تاسيتوس Tacitus, History الجزء الرابع ، ٨٣ ، ٨٤) ، كلمنت السكندرى (Protrep. IV p. 37.) وكيرلس Cyillus فى (Jul. p. 13) وبلوتارك (De sollert : anim. 36) ولقد اتفق كل من بلوتارك وتاسيتوس فى نسبة نقل هذا التمثال الضخم إلى بطلميوس الأول بينما ينسب كل من كلمنت وكيرلس ذلك إلى بطلميوس الثانى أنظر (Parthy Über Isis und Osiris pp. 213) ولقد انفرد تاسيتوس بالافاضه فى وصف الظروف والملابسات التى تتعلق بنقل هذا التمثال الذى كان يعبد فى سينوبى على البحر الأسود وذكر تلك الأحلام والنذر التى أغرت ملك سينوبى بتسليم ذلك التمثال ، وفى الوقت الذى كان يجب أن يغادر التمثال مكانه وبينما كان يحيط بالمعبد جمع غفير صاخب ثائر يهدد بأن يحول دون نقل التمثال ويمنع ارتكاب هذا الاثم وانتهاك حرمة المعبد وإذا بالتمثال يذهب من تلقاء نفسه إلى ظهر المركب كما لو أن الآلهة نفسها قد اتخذت الاسكندرية مقراً لها فى المستقبل (انظر تاسيتوس جزء رابع ص ٨٤) .

فى الحى القديم المسمى رافوده الذى كان مأهولا بالسكان قبل تأسيس المدينة واستمر دائماً أكثر أحيائها سكانا وأشدها ازدحاماً ، وفيما بعد ذلك أقيم السرابيوم (Serapeum) المشهور الذى كان ضريحاً للإله سيرابيس على مرتفع فى ذلك الموقع الذى كان يقوم فيه من قبل ذلك المعبد المتواضع للاله سيرابيس الجديد الذى ابتدعه البطالمة لتكون عبادته حلقة اتصال بين الإغريق والمصريين ، ولذلك كان من المناسب أن يشيد معبده فى غرب المدينة على مقربة من الحى الوطنى ؛ وأصبح ذلك السلم ذو المائة درجة التى تؤدى إليه وأروقته وأبهاؤه ذات الأعمدة الضخمة وتماثيله ومكتبته الملحقة به من المناظر الخلابة التى بهرت الأبصار وبلغت حداً من الجمال حتى أن أميانوس مارسيلينوس (Ammianus Marcellinus) من مؤرخى القرن الرابع الميلادى قال عنه فى بساطة أن الكلمات لتعجز عن وصفه[١] . وبهذه الطريقة بدأ الامتزاج بين العبادتين الأغريقية والمصرية فى سرابيوم الاسكندرية ؛ وفوق ذلك نقل بطلميوس الثانى (فيلادلفوس) الى الاسكندرية جثة الاسكندر التى احتواها قبر جميل ما لبث أن أصبح مركز عبادة عظيمة يشرف عليها كاهن سنوى ، وبقى أثراً يؤمه الحجاج والزائرون عدة قرون فيما بعد للتبرك به وللوفاء بالنذور .

ولقد أثار تأسيس السرابيوم اهتمام العلماء ، فنسب البعض تأسيسه إلى بطلميوس الأول . وانبرى آخرون فقالوا : إن بطلميوس الثالث هو الذى أنشأه أو أعاد بناءه ، واعتمد هذا الفريق على ما كشف حديثاً من ألواح عشرة ، بعضها ذهبى أو فضى ، والآخر زجاجى كتب عليها باليونانية والهيروغليفية أن الملك بطلميوس بن بطلميوس وارسينوى الإلهين الأخوين وهب [شيد] للاله

---

(١) Ammianus Marcellinus XXII, 16. «his accedunt altis sublata fastigiis templa; inter quae eminet Serapeum nihil orbis terrarum ambitiosius cernat»

سيرابيس [بالهير وغليفية أزور حابى] ضريحا [أى معبداً] وحرما مقدساً — ويقتضى الأخذ بالرأى الأخير تأخير تأسيس السرابيوم إلى النصف الثانى من القرن الثالث . وكان قد انقضى إذ ذاك على حكم البطالمة فى مصر أكثر من ثمانين عاما ، ولكننا إذا قلبنا هذا الرأى وفحصناه على ضوء المعلومات التى جاءت فى ورق البردى الذى كشف فى عشرات السنوات الأخيرة ، وأقوال المؤرخين الأقدمين أيقنا أن العبارة الواردة على هذه الألواح لا تتضمن سوى أن بطلميوس الثالث بنى إضافات فى معبد كان قائما من قبل منذ عهد بطلميوس الأول أو الثانى على أبعد الفروض ، ولا حاجة بنا للتدليل على أن البطالمة قد وجهوا عنايتهم منذ أول الأمر إلى عبادة سيرابيس الذى ابتدعوه ليكون إلها رسميا ، وعنوانا لملكهم الجديد ، ولقد سبق ان أشرنا إلى قول مانيتون بأنه تم فى عهد بطلميوس الأول نقل تمثال ضخم لسيرابيس إلى الإسكندرية ، وفى هذا دلالة ضمنية كافية على قرب تأسيس معبد للإله الجديد يضم هذا التمثال الضخم . وهناك أدلة كثيرة فى النصوص البردية المشهورة ببردى زينون (Zenon Papyri) من عهد بطلميوس الثانى نقتصر على الإشارة إلى بعضها على سبيل المثال لا الحصر ، فجاء بأحدها أن أبولونيوس (Apollonius) وزير مالية بطلميوس الثانى كتب عام ٢٥٦–٢٥٥ ق.م. إلى وكيله فى فيلادلفيا بالفوم يأمره ببناء معبد لسيرابيس مثل نظيره معبد إيزيس ذاكراً له بعض التفصيلات عن الموقع الذى اختاره لإقامة معبد سيرابيس بالنسبة للمعابد الأخرى بفيلادلفيا[١] ، وهذا دليل على عناية الملك بطلميوس الثانى وحكومته بإنشاء سرابيومات فى طول البلاد وعرضها وبخاصة فى تلك القرية النموذجية المسماة فيلادلفيا فى شمال الفيوم ، وهى القرية التى عاصرت تأسيس الإسكندرية ، وجاءت فى نشأتها وتخطيطها وأبنيتها ، على نسق مدينة

---

(١) Papyri Cairo Zenon, 59168 ; Annales XXIV, p. 22 . وذلك منشور فى كتالوج المتحف المصرى ومجلته السنوية .

الإسكندرية[١] — وهناك وثائق أخرى من مجموعة بردى زينون تؤيد انتشار هذه الدعوة بتأسيس سرابيومات على نسق سرابيوم الإسكندرية فى الكثير الغالب ، وذلك فى النصف الأول من القرن الثالث ، فكتب زويلوس (Zoilos) من آسيا الصغرى وأحد عباد سيرابيس إلى أبولونيوس وزير مالية فيلادلفوس فى سنة ٢٥٧ ق . م . ينبئه بأنه رأى فى المنام سيرابيس الذى أمره أن يبنى له معبداً فى المدينة ، ولعلها إحدى مدن آسيا الصغرى ، ولما عصى أمر الإله مرض وأخيراً أزمع على تنفيذ أمر الإله[٢] ، وعلى ضوء هذه المعلومات يمكن أن نقول بحق أن سرابيوم الإسكندرية أسس فى النصف الأخير من حكم بطلميوس الأول ؛ وتم فى عهد بطلميوس الثانى ، ثم أخذ الملوك بعد ذلك يزيدون عليه تخليداً لذكراهم على حد قول إسترابون فى وصفه لمدينة الإسكندرية ، وأنه فى عهد بطلميوس الثانى سادت البلاد المصرية فكرة كانت تلقى تأييداً من الحكومة ترمى إلى تأسيس سرابيومات فى البلدان والقرى ، بل فى عرض الإمبراطورية المصرية على نسق معبد السرابيوم بالإسكدرية[٣] .

***

تخطيط مدينة الإسكندرية

وعندما جعل بطلميوس الأول الاسكندرية قاعدة ملكه ، كانت قد خرجت من طور الارتباك الذى يصاحب عادة المنشآت الجديدة ، ولكن كان

---

(١) P. Viereck, Philadelphia, Morgenland, 1928. pp. 7—26 . حيث نقرأ فى هذه الصفحات وصفا لهذه القرية النموذجية ومساكنها ومعابدها وتخطيط شوارعها وما احتوته منازل عظماء الاسكندرية فى ريف مصر من أبهة فلا غنى لمن يروم تعرف أحوال الاسكندرية القديمة عن الرجوع إلى هذا المؤلف .

(٢) Papyri Cairo Zenon 59034 .

(٣) يكفينا هذا القدر الآن فى دحض فكرة يقول بها بعض المشتغلين بالآثار وسوف نعود لهذا الموضوع فى فرصة قريبة .

يعوزها مع ذلك ، عمل كثير لتحويل تلك الآكام والتلال الرملية والأرض القاحلة وقرية راقوده إلى مدينة هيلينيه عظيمة ، وقد قام المهندس دينوكراتيس (Dinocrates) بتخطيط المدينة على الطريقة المألوفة عند اليونان بشوارعها المستقيمة المتقاطعة فى زوايا قائمة وهو نظام محبب إلى اليونان فى تخطيط المدن والبلدان ، وقد بنيت على رقعة غير فسيحة وهى المكان المحصور بين بحيرة مريوط والميناء البحرى ، وكانت البحيرة متصلة بالنيل وهو متصل بالبحر الأحمر بقناة (أتمها بطلميوس فيلادلفوس) كما كانت البحيرة متصلة كذلك بالميناء وعلى ذلك كانت تستخدم ميناء عذب المياه ، وقد بنى جسر يصل جزيرة فاروس بالساحل وكان يسمى هيبتاستاديوم وبفضل إقامة بعض منشآت وأبنية أخرى على الجانب الشرقى تكوّن ميناء بحرى عظيم هادئ شرقى هذا الجسر ، وفى الغرب منه تكوّن ميناء آخر سمى بميناء السلام وهو الميناء الغربى الوحيد الذى يستعمل حتى الآن ، وكانت المدينة تمتد طولا من الشرق إلى الغرب ويفوق طولها عرضها كثيراً ، ويخترقها من الشرق إلى الغرب شارع عظيم يسمى بالشارع الكانوبى وهو قصبة المدينة وعرضه يزيد على مائة قدم ويقطعه فى وسط المدينة شارع آخر ممتد من الشمال إلى الجنوب وكانت نهايته عند رأس لوخياس وكانت الشوارع موازية لهذين الشارعين فسبعة منها تجرى متوازية فى اتجاه طول المدينة واثنى عشر ممتدة بحسب عرضها وتسمى بأسماء خاصة من أفراد الأسرة المالكة ، وفى نهايتى ذلك الشارع الرئيسى يقوم بابان عظيمان يسمى الشرقى منهما فى العصور المتأخرة باب الشمس ويسمى الغربى باب القمر ، وكان على جانبى هذا الطريق البوائك والعقود ذات أعمدة تحمى المار من قيظ الشمس ويظهر أن بطلميوس الثانى أعاد تسمية شوارع المدينة بطريقة نظامية تكريماً لأخته وهى زوجته المتوفاة ارسينوى الثانية فأطلق اسمها على عدة

شوارع ملقباً إياها بألقاب آلهة اليونانيين بمنحها اللقب الذى تعبد به تلك الآلهة(١) فسمى بعضها شارع أرسينوى الملكة (Basileia) أى أرسينوى فى دور الملكة هيرا (Hera) أوهيرا ملكة السماء ، وسمى آخر أرسينوى الرحيمة وهو لقب استعير من العبادة الخاصة بالإلهة أفروديتى ، وثالثاً شارع أرسينوى الألوسيه (Eleusinia) تشبيهاً لها بالإلهة ديمتر (Demeter) ورابعاً شارع أرسينوى ذات البيت النحاسى (Chalkioikos) لتمثيلها بالإلهة أثينا (Athene) ذات البيت النحاسى حامية وراعية اسبرطه(٢)

ولقد تصدى لطبوغرافية المدينة كثير من الكتاب الأقدمين ، فتناولوا وصف مواقع الأبنية الرئيسية والمعابد والساحات وحلبات السباق التى كان يحتويها هذا المحيط العظيم وكان يشتمل فى الحقيقة على مدينتين هما المدينة الجديدة (Neapolis) التى أسسها الإسكندر والمدينة القديمة راقوده ، فجاء وصف استرابون أوفاها وأجدرها بعنايتنا ، ولذا آثرنا أن نجتزىء منه بقدر لا تخلو ترجمته من فائدة :—

فصل ٨ — « وإن شكل سطح المدينة لهو أشبه بالعباءة الحربية(٣) ، (Chlamys) وجانباها الطويلان هما اللذان تحيط بهما مياه البحرين وطول قطرها نحو ثلاثين ستاديا ، والجانبان القصيران هما البرزخان وسعة كل منهما سبعة أوثمانية ستاديات ، ويضيق عليه البحر من ناحية والبحيرة من الناحية الأخرى ، والمدينة

(١) فى وثيقة مؤرخة فى السنة الرابعة والثلاثين من حكم فيلادلفوس أى سنة ٢٥٢ ق.م. فى مجموعة بردى لندره رقم ٢٢٤٣ (P. London Inv. 2243) Notes on Early Ptolemaic Papyri — An Early Ptolemaic Contract of Loan by Bell, Archiv f. Pap. VII 1924 pp. 17—29

(٢) Journal of Egyptian Archaeology XII, 1926 p. 247; Journal of Egpt. Arch, XIII, 1927, H. Bell p. 171—184. Archiv VII p. 17

(٣) جاء فى بلوتارك (٥ ، ١١) أن شكل المدينة كان أشبه بعباءة حربية مقدونية ، والذى أعد رسم المدينة وتخطيطها دينوكراتيس ولقد تناول تاربل Tarbell مناقشة شكل تلك العباءة الحربية فى مجلة Classical Philology I, 283 .

كلها مقسمة إلى شواوع صالحة لجرى الخيل وجر العربات ، يقطعها شارعان واسعان جداً يبلغ اتساعهما أكثر من بليثروم[١] فى العرض ، ويقطع أحدهما الآخر إلى قسمين فى زوايا قائمة[٢] .

وتحتوى المدينة على أفنية عامة مقدسة [أى معابد] فى أبهى حلة من الجمال ، كما تحتوى أيضاً على القصور الملكية التى تشغل ربع المحيط الملكى للمدينة بل ثلثه ، لأنه لما كان كل ملك من الملوك قد تعود أن يضيف بعض التحسينات إلى المبانى العامة حباً منه فى الظهور بمظهر العظمة ، فكذلك عنى أيضاً بتشييد مبنى له على نفقته الخاصة بالإضافة إلى تلك المنشآت القائمة من قبل فأصبحت الآن وقد حق عليها قول الشاعر[٣] «أقيم فيها مبنى فوق آخر » ، ومع ذلك فجميع مبانيها متصل

---

(١) البليثروم (Plethrum) هو مقياس يونانى طوله ١٠١ قدم إنجليزى وهو سدس إستاديوم .

(٢) جاء فى فيلون (In Flaccum 973 A) أن المدينة كانت مقسمة إلى خمسة أقسام وقد رمز لكل منها بأحد الحروف الهجائية اليونانية فكان بها قسم ألفا (ا) وقسم بيتا (ب) وقسم جاما (ج) وقسم دلتا (د) وقسم إبسيلون (إ) (E) ، وكان قسم بيتا يشتمل فى الغالب على القصور الملكية بما فى ذلك دار الحكمة وقبر الإسكندر وأبنية أخرى كثيرة أما حرف الدلتا فكان هو حى اليهود (Josephus Bell. Jud. 2. 8.) ، ولقد حام الشك حول مواقع الأقسام الثلاثة الأخرى واختلف المؤرخون الأقدمون فى تقدير مقاييس المدينة وأبعادها فقدرها يوسيفوس ٣٠ × ١٠ ستاديات وقدر فيلون اتساعها بعشرة ستاديات وقدر بلينى محيطها بخمسة عشر ميلا وقدر ديودور اتساعها بأربعين ميلا ولعله يقصد طولها — وكان الشارع الطويل الرئيسى فيها يمتد فى خط مستقيم من الباب الكانوبى أو باب الشمس شرقا إلى باب القمر غربا وقد أمكن تعرف موضع جزء منه وهو شارع فؤاد الأول Zogheb, Etudes Sur L'anc. Alex. p. 11 ولكن بوتى Botti يخالفه فى هذا الرأى بقوله إن أهم الشوارع العرضية هو شارع Sema الذى كان يحتوى من اليمين على قبر الإسكندر الأكبر ومن اليسار على دار الحكمة ثم كان يقطع بعد ذلك الطريق الكانوبى ويمر ببناء قيصريوم عن اليمين ومعبد Isis Plousia ، ثم Emporium عن اليسار ثم ينتهى بالرصيف بالميناء البحرى العظيم ومحل المرسى على مقربة من المسلتين . انظر كتاب نيروتسوس بك عن الإسكندرية القديمة وكتاب زغيب ص ١٥

(٣) هو هوميروس فى الأوديسيا ١٧ ، ٢٦٦ عند الإشارة إلى قصر أوديسيوس.

بعضه بالآخر وبالميناء بل و بتلك المبانى الواقعة خارج الميناء[1] ، وتعتبر دار الحكمة (Museum) جزءاً من القصور الملكية و بها طريق عام وفناء مسقوف ومجهز بالمقاعد و بيت كبير[2] تقع فيه صالة المائدة العامة لرجال العلم المشتركين فى دار الحكمة ، ولهذه الجماعة أيضاً أملاك مشتركة ولهم كاهن مشرف على دار الحكمة كان يعينه الملوك فى غابر الزمان ولكنه يعين الآن من قبل قيصر[3] ؛ والسيما[4] (Sema) أيضاً — كما تسمى — جزء من القصور الملكية وتمثل المحيط الذى كان يحتوى على مقابر الملوك وقبر الإسكندر ، لأن بطلميوس بن لاجوس (أى سوتر) استبق برديكاس (Perdiccas) بانتزاعه جثة الإسكندر منه فى أثناء نقله إياها من بابل ، وقد عرج بها شطر مصر تحركه الأطماع والرغبة فى امتلاك هذه البلاد[5] ؛ وفضلا عن ذلك لقى برديكاس حتفه بأن ذبحه

---

(١) أعنى الواقعة على اللسان المعروف برأس لوخياس . انظر الفصل التاسع من وصف استرابون .

(٢) وصف فتروفيوس هذا البناء (Vitruvius, De Architectura 5. 11. 2.) بقوله : تماشى واسعة مسقوفة داخل ثلاث أروقة مجهزة بالمقاعد حيث كان فى استطاعة الفلاسفة والخطباء وجميع من أغرموا بالبحث العلمى أن يشتركوا فى المناقشة والبحث » أما سويداس (Suidas) فيظهر أنه كان يفهم بناء « اكسدرا » (Exedra) على أنه قائم بذاته منفصل عن دار الحكمة بقوله « إنهم يقيمون على مقربة من دار الحكمة وبناء اكسدرا » .

(٣) المقصود بالذات هو الإمبراطور اكتافيوس أغسطس إذ أن استرابون زار مصر فى ٢٤ ق . م . فى أثناء توليه عرش الإمبراطورية .

(٤) السيما هى كناية عن القبر وتقرأ فى بعض الأصول والمخطوطات سوما (Soma) كلمة إغريقية معناها الجسد ولقد جاء فى كالستينيس الزائف Pseudo-Callisthenes « أن بطلميوس بنى قبرا فى ذلك المكان المقدس المسمى « جسد الاسكندر » حيث دفنت جثة الاسكندر » وجاء فى رواية أخرى أنهم يطلقون على ذلك المكان « قبر الاسكندر » وفى رواية ثالثة أن بطلميوس (فيلو باتور) بنى فى وسط المدينة منيا (Mnema) تسمى الأن سيما (Sema) حيث جمع فيها كل أجداده وأمه وكذلك الاسكندر المقدونى » . قاموس Calderini ص ١٤٠ .

(٥) اختلفت الآراء فى ذلك فجاء فى ديودرور الصقلى (١٨ ، ٢٦ — ٢٨) أن فيليب أريدايوس قضى سنتين فى إعداد العدة لنقل جثة الاسكندر وذهب بطلميوس الأول إلى سورية للقائه ومن هناك حمل الجثة إلى مصر لدفنها بينما جاء فى بوسينياس (Pausanias) أن بطلميوس =

الجند عندما هاجمه بطلميوس وضيق عليه الخناق بمحاصرته فى جزيرة فَخلة [١] ، وهكذا قتل برديكاس بأن سدد الجند الذين هاجموه حرابهم الطويلة إلى صدره ، أما الملوك الذين كانوا فى صحبته من [فيليب] أريدايوس (Arrhidaeus) وأطفال الاسكندر وكذلك روكسانا (Rhoxanê) زوج الاسكندر فقد رحلوا الى مقدونيا ، ثم حمل بطلميوس جثة الاسكندر التى ووريت فى التراب فى الاسكندرية حيث لا تزال ترقد فى رمسها إلى الآن — لا فى نفس التابوت الذى كانت فيه من قبل ، لأن التابوت الحالى مصنوع من الزجاج (أولعله من الرخام) [٢] وقد كان ذلك التابوت ، الذى وضع بطلميوس الجثة فيه ، مصنوعاً من الذهب ، ولكن بطلميوس الملقب كوكيس [٣] ، وأيضاً بارايسا كتوس [٤] نهب التابوت الذهبى على أثر حضوره من سورية ثم طرد بعد ذلك فوراً وعلى ذلك لم تكن لغنيمته أى جدوى [٥] .

= الأول دفنها فى ممفيس ثم نقلها إلى الاسكندرية بطلميوس الثانى أما كالسثينيس الزائف فقال : أن المقدونيين صمموا أول الأمر على نقل الجثة إلى مقدونيا ولكنهم لما شاوروا نبوءة زوس فى بابل اتفقوا جميعا على وجوب تولى فيليب بطلميوس ، [لعل المقصود فيليب اريدايوس أو بطلميوس الأول] نقلها من بابل إلى مصر حيث تدفن فى ممفيس ولما نفذ الأمر ونقلت الجثة أشار رئيس الكهنة فى معبد ممفيس بضرورة نقلها بعد ذلك مباشرة إلى الاسكندر ، حيث وضع لها بطلميوس تصميم حرم مقدس يليق فى حجمه وشكل بنائه بعظمة الاسكندر ولما جاء أغسطس إلى الاسكندرية ، رأى الجثة التى نقلت إليه من مرقدها (Suetonius, Augustus, 18 فلم يقتصر أغسطس على رؤية الجثة وإنما لمسها فنجم عن ذلك ، فيما يقال ، أن سقطت قطعة من الأنف » (Dio Cassius 51. 16) .

(١) هاجم برديكاس أول الأمر بطلميوس عند الفرع البلوزى للنيل « فى نقطة لا تبعد كثيرا عن حصن يسمى حائط الجمل » حيث أخفق فى هجومه هناك ثم أعاد الكرة على مقربة من ممفيس حيث اعتصب جنده (ديودور ١٨ ، ٣٣) .

(٢) هو المسمى hyalus وهو حجر شفاف كان يستخدمه المصريون لحفظ مومياتهم ولعله من الرخام المعرق كما هو الحال فى تابوت الاسكندر الذى وجد فى صيدا ونقل إلى المتحف العثمانى فى القسطنطينية الآن . (٣) أى القرمزى .

(٤) المعنى الحرفى لكلمة (Pareisaktos) « من أحضر سرا » لتولى العرش أى المغتصب ولكن المفسرين والشراح يأخذون تلك الكلمة على أن معناها غير الشرعى والمدعى ويعتبرون بطلميوس هذا هو بطلميوس الحادى عشر .

(٥) أى بعد سلبه المقبرة فوراً ، لأن بطلميوس الحادى عشر تولى العرش عام ٨٠ ق.م ولم يطرد أو يخلع عن عرشه ، فيما نعلم ، حتى عام ٥٨ ق . م .

فصل ٩ — وتقع فى مدخل الميناء الكبير على اليد اليمنى جزيرة فاروس وبرجها وتقع على اليسار الصخور وكذلك رأس لوخياس ويقوم عليه قصر ملكى ، ويجد الداخل إلى الميناء على اليسار القصور الملكية الداخلية وقد تلت مبانيها فى سلسلة متصلة بالقصور الملكية الواقعة على رأس لوخياس ، وبها المساكن العديدة ذات الألوان المختلفة والأحراش المقدسة [أى المعابد] ، ويقع الميناء الصناعى فيما يلى هذه الأبنية ، وقد أخفى هذا الميناء عن الرائى وهو ملك خاص بالملوك . وفى تجاه الميناء الصناعى تقع كذلك جزيرة أنتيرودس (Antirrhodes) التى يقوم بها قصر ملكى وبها كذلك ميناء صغير . وسميت كذلك كما لو كانت نظيرة لرودس ، وفى تجاه هذا[١] يقع على الشاطىء المقابل المسرح (Theatron) ثم يليه بوسيديوم (Poseidium) على شكل كوع نانىء من المكان المسمى بالأمبريوم (Emporium) ، ويحتوى على معبد للاله بوسيدون[٢] . ولقد أضاف انطونيوس إلى هذه الثنية جسراً ناتئاً إلى أبعد من هذا فى وسط ميناء وبنى فى نهايته مسكنا ملكيا سماه تيمونيوم[٣] (Timonium) وكان هذا آخر عمل له عندما تخلى عنه أنصاره وأبحر إلى الاسكندرية بعد هزيمته فى أكتيوم واختار لنفسه أن ينحو نحو تيمون وأزمع أن يقضى بقية عمره فى عزلة عن كل هؤلاء الأصدقاء[٤] ، ثم يصل المرء بعد ذلك إلى القيصاريوم (Caesarium) والسوق

(١) أى فى تجاه الميناء الصناعى فى قول وجزيرة انتيرودس فى قول آخر .

(٢) الإله بوسيدون Poseidon هو إله البحر عند الإغريق ويقابله عند الرومان الإله نبتون (Neptune) .

(٣) كان تيمون Timon الأثينى يبغض البشر وكان أنطونيوس يشعر بنفس هذا الشعور عقب هزيمته فى اكتيوم إذ انفض من حوله كثيرون من أتباعه وأنصاره وتنكروا له فأخذ يشعر بأنه أسىء إليه وحق عليه أن يكره البشر (بلوتارك ، انطونيوس فصل ٦٩) .

(٤) قضى أنطونيوس نحبه منتحرا فى سنة ٣٠ ق . م . بالإسكندرية إثر علمه بأن كليوباترة قد انتحرت ثم ظهر له وهو يتضرج فى دمائه أن الملكة لاتزال على قيد الحياة فحمل إليها ثم فاضت روحه وهو بين ذراعيها .

(إمبريوم (Emporium)) ومخازن الاستيداع ، ويلى هذه أحواض السفن [الترسانات] حتى جسر هيبتا ستاديوم ، وهذا القدر هو وصف للميناء الكبير وما يحيط به .

فصل ١٠ [قسم ٧٩٥] — ثم يصل الإنسان فيما يلى الهيبتا ستاديوم إلى ميناء السلام (يونوستوس) ، وفى جنوب الميناء الأخير يجد ميناء صناعياً يسمونه أيضاً كيبوتوس (Cibotus) وبه أيضا أحواض للسفن ، وإذا توغلنا فى الداخل بعد هذا الميناء وجدنا قناة صالحة للملاحة ممتدة حتى بحيرة مريوط ، ولايزال جزء صغير من المدينة باقياً فيما وراء تلك القناة ، ثم يجد الإنسان بعد ذلك ضاحية نكروبوليس (أى مدينة الموتى) وفيها حدائق كثيرة إلى جوار القبور والأماكن المعدة لتحنيط جثث الموتى ، وفى هذا الجانب من القناة يوجد كل من السرابيوم (Serapeum) ومعابد أخرى قديمة قد هجرت تقريباً الآن بسبب تشييد المبانى الجديدة فى نيكوبوليس (Nicopolis)[١] ، فمثلا يوجد مدرج (Amphitheatron) وملعب (Stadium) فى نيكوبوليس حيث يحتفى بإقامة الألعاب مرة كل خمس سنوات ولكن المبانى القديمة قلت أهميتها وأهمل شأنها . ومجمل القول أن مدينة الاسكندرية تزخر بالأبنية العامة والمعابد ؛ ولكن أجمل هذه المبانى جميعاً هو بناء الندوة الرياضية والثقافية (الجمنازيوم Gymnasium) التى كانت تحتوى

---

(١) ونيكوبوليس هى مدينة النصر وهو اسم أطلقه أغسطس على الحى المسمى الآن بولكلى تخليدا لذكرى انتصاره على أنطونيوس — والهيبتا ستاديوم هو السد البالغ فى طوله سبع ستاديات وقد بنى فى صدر عصر البطالمة كما أسلفنا ليربط جزيرة فاروس بالشاطىء الأفريقى وقد اختفت الآن معالم هذا السد القديم تحت طبقات الرواسب وتراكم الأتربة فوقه فنتج عن ذلك لسان عريض يشمل ميدان محمد على وحى المنشيه حتى سراى المحافظة القديمة (كوم الناضورة وحوض الترسانة تقريبا) وبداخل الميناء الغربى المسمى ميناء السلام وهو الميناء الحالى ميناء صناعى صغير مقفل من جميع جهاته ولذا سمى بالصندوق أو « كيبوتوس » .

على دهاليز طويلة امتدت لمسافة طولها أكثر من فرسخ — وفى الوسط [وسط المدينة لا وسط الندوة الثقافية] نجد كلا من المحكمة القضائية (Dikasterion) والحُرم المقدسة وكذلك معبد الإله « پان » أو البانيوم (Paneium) وهو يبدو أشبه بمرتفع من صنع الإنسان على شكل مخروط شجرة الشربين ، وهو يشبه تلا صخريا يوصل إلى قمته طريق حلزونى ، ويستطيع المرء أن يرى المدينة بأكملها من قمته فهى تبدو واقعة فى أسفله وقد أحاطت به من جميع الجوانب ، ويمتد الطريق الواسع الذى يشق المدينة طولا من نكروبوليس ماراً بمبنى الندوة الرياضية والثقافية حتى الباب الكانوبى ؛ ثم يلى ذلك البناء المسمى بحلبة سباق الخيل هيپودروم (Hippodrome) وتمتد الشوارع الأخرى التى تقع فى موازاته حتى القناة الكانوبية[١] ؛ وبعد اختراق مبنى حلبة سباق الخيل يصل الإنسان إلى مدينة النصر (نيكوبوليس) التى تحتوى على مساكن تطل على شاطىء البحر وهى لا تقل فى عددها ومساحتها عن مدينة ، وتبعد مدينة النصر عن الإسكندرية بمقدار ثلاثين فرسخاً[٢] ، ولقد كرم « أغسطس قيصر » هذا المكان لأنه تم له فيه النصر فى معركة على من أتوا لمحاربته من أنطونيوس وأنصاره ، ولما تم له ، فى أول هجوم ، الاستيلاء على المدينة اضطَّر انطونيوس إلى الانتحار كما أكره كليوباتره على التسليم له وهى لا تزال على قيد الحياة ، ولكنها تمكنت بعد فترة قليلة من الانتحار سراً وهى فى السجن بلدغة حية ، وفى رواية أخرى ، باستخدام دهان سام[٣] ، ونجم عن ذلك أن إمبراطورية

(١) النص الأصلى هنا مقتضب فنشأ عن ذلك بعض الغموض وأصبح المفسرون فى شك منه فافترضوا وجود كلمة شوارع (Hodoi) واعتبروا أنها هى الكلمة الطبيعية التى يمكن إضافتها فى هذا المقام .

(٢) يقدر يوسيفوس (Bell. Jud. 4. 11. 5) هذه المسافة بعشرين فرسخا .

(٣) بلوتارك — أنطونيوس ، فصل ٨٦ .

اللاجيدين (Lagidae) التى عمرت سنين طويلة تفككت أوصالها .

فصل ١١ — وذلك أن بطلميوس بن لاجوس خلف الإسكندر ثم أتى فيلادلفوس من بعد بطلميوس ثم تعاقب يورجيتيس (Euergetes) (١) وفيلوباتور ابن أجاثوكليا (٢) ثم أتى من بعده ابيفانيس (Epiphanes) (٣) وتبعه فيلوميتور وكان الابن يخلف دائماً الأب ولكن خلف فيلوميتور أخ له هو يورجيتيس الثانى الذى كان يطلق عليه أيضا فِسْكون (٤) (Physkon) ، ثم خلفه بطلميوس الملقب لاثيروس (٥) (Lathyrus) ، ثم خلف الأخير أوْليتيس (٦) (Auletes) ، عصرنا وهو والد كليوباترا ؛ وعلى ذلك كان جميع الملوك الذين خلفوا بطلميوس الثالث — وقد أفسدتهم حياة الترف والنعيم — سيئى التصرف فى حكم البلاد ، ولكن كان أسوأهم على الإطلاق فى إدارة شؤون البلاد بطلميوس الرابع ، و بطلميوس السابع وآخر البطالمة وهو أوليتيس الذى كان — فضلا عن حياة الفجور — يتدرب على الزمر بالناى على أنغام جوقة المرتلين ، وكان يفاخر بعمله هذا حتى إنه لم يتورع عن تنظيم مباريات فى القصر الملكى كان يتقدم فيها بنفسه للمسابقة مع المتبارين ، وعلى ذلك نفاه السكندريون . ولما كان له ثلاث بنات ، إحداهن وهى الكبرى شرعية فإن السكندريين أعلنوها ملكة عليهم ، ولكن ولديه

---

(١) معنى يورجيتيس « فاعل الخير » .

(٢) يرى البعض أن كلمة ابن لا محل لها هنا ، وافترض وجود كلمة « محب » وترجم العبارة على أنها فيلوباتور محب أجاثوكليا (Agathocleia) .

(٣) معنى إيبفانيس « المتجلى » .

(٤) فسكون : لقب أطلق على بطلميوس السابع ، ومعناه : البدين .

(٥) لاثيروس هو بطلميوس الثامن . وهنا نجد إسترابون يغفل ذكر بطلميوس التاسع (الإسكندر الأول) وبطلميوس العاشر (الإسكندر الثانى) اللذين لم يكن لهما فى الظاهر محل فى الثبت الرسمى للملوك الشرعيين .

(٦) أوليتيس هو بطلميوس الزمار لأنه أغرم باللعب على الناى .

الآخرين — وكانا لا يزالان طفلين — أقصيا إذ ذاك تماما عن تولى الحكم[١]، ولما استقرت على العرش بعث السكندريون فى طلب زوج لها من سورية يُدعى «كيبيوساكتيس»[٢]، وكان يَدَّعى أنه من نسل الملوك السوريين، وبعد انقضاء بضعة أيام من زواجهما، لم تطق الملكة صبراً على جفاء طبعه وتبذله، فتخلصت منه بأن خنقته، وتزوجت بعده من رجل يدّعى كذلك أنه ابن مثريداتيس يوباتور، وهو أركيلاوس (Archelaus). . . . وكان يقضى وقته إذ ذاك مع جابينيوس[٣] (Gabinius) مؤملا أن يصحبه فى حملته على البارثيين (Parthians)، ولكن بعض العملاء أحضروه من غير علم جابينيوس إلى الملكة والتى أعلنته ملكا[٤]. وفى الوقت نفسه كان پمپى العظيم قد استقبل أوليتيس وأكرم وفادته عند وصوله إلى روما، وقدمه إلى السناتو وضمن له الموافقة على إعادته إلى عرشه، بل دبَّر له كذلك قتل معظم المبعوثين البالغ عددهم مائة، وهم الذين كانوا قد قبلوا مهمة العمل ضده فى هذه البعثة، وكان أحد هؤلاء ديون (Dion) الفيلسوف والعضو فى الأكاديمية ورئيس المبعوثين. وعلى ذلك لما أعيد بطلميوس (أوليتيس) إلى عرشه بمساعدة جابينيوس ذبح كلا من أركيلاوس وابنته [برنيق الرابعة]، ولكن لم ينقض وقت طويل على إعادته إلى عرشه حتى

---

(١) كانت كبرى بناته هى برنيق الرابعة (Berenice IV) التى أشركت أمها كليوباتره تريفاينا (Cleopatra Tryphaena) فى الحكم معها مدة عام ٥٨ — ٥٧ ق. م.، ثم انفردت بعد ذلك بالحكم عاما آخر (Dio Cassius 39, 13).

وقد أصبح طفلاه فيما بعد يعرف الأكبر منهما ببطلميوس الثانى عشر والأصغر، ببطلميوس الثالث عشر.

(٢) Cybiosactes لقب معناه تاجر السمك المملح أطلق عليه من قبيل التهكم، ويقول المؤرخ ديوكاسيوس (٣٩، ٥٧) أنه كان أحد السلوقيين.

(٣) هو المتولى وظيفة بروقنصل أو حاكم سورية سنة ٥٧ ق. م.

(٤) لم يحكم البلاد سوى فترة قصيرة قدرها ستة أشهر إذ ذبح فى الموقعة بيد جابينيوس

مات متأثراً بمرضه تاركا من بعده ابنين و بنتين ، وكانت كبراهما كليو باتره[١] وعندئذ أعلن السكندر يون كلا من الابن الأكبر وكليو باترة ملكين عليهم ، ولكن رفقاء الابن أشعلوا نيران الفتنة ، ونفوا كليو باترة التى رحلت مع أختها إلى سورية ، وفى الوقت نفسه كان بمپى العظيم قد حضر فارا من بالايفارسالوس (Palaepharsalus) إلى الفرما وجبل كاسيوس ، فذبحه رجال الملك وحاشيته عن خيانة ، ولكن لما حضر قيصر بعد ذلك قتل الملكَ الغلامَ ، ودعا كليو باترا من منفاها ، ونصَّبها ملكةً على مصر ، وأشرك معها أخاها الثانى فى الحكم على الرغم من صغر سنه ، و بعد مقتل قيصر وموقعة « فلباى » عبر أنطونيوس إلى آسيا ورفع كليوباترا إلى أسمى مراتب الشرف حتى إنه اختارها زوجة له وأنجب منها أبناء وخاض موقعة أكتيوم برفقتها ، ولاذ بالفرار فى صحبتها ، وتبعهما بعد ذلك أغسطس قيصر ، وقضى على كل منهما ، وخلص مصر من سوء ذلك الحكم المشوب بالاستهتار والفجور .

فصل ١٢ — ولقد أصبحت مصر الآن ولاية (رومانية) تدفع جزية عظيمة القدر ، ويحكمها رجال اتصفوا بالحكمة والروية .... وكان أحد الحكام الوطنيين فى المدينة هو المترجم (Exegetes) ، وكان يلبس الملابس الأرجوانية ، و يتمتع بمراتب الشرف التقليدية ، و يتولى الإشراف على مصالح المدينة . وكان هناك موظف آخر كذلك هو المسجل ، وثالث هو القاضى الأكبر ، ورابع هو قائد العسس الليلى ، وكان هؤلاء الحكام ينتمون لعهد الملوك ، ولكن نظراً لسوء إدارة هؤلاء الملوك ، فإن رخاء المدينة ورفاهيتها كانت آخذة فى الاختفاء بسبب حالة العصيان والتمرد السائدة . وعلى أى حال فإن پوليبيوس الذى زار

---

(١) هى كليو باترة السابعة وهى المشهورة انظر Macurdy, Hellenistic Queens pp. 184—223

المدينة قد ساءته أحوالها ، خلال إقامته بها ، فقال إنه كان يسكن المدينة ثلاث طبقات : أولا عنصر الشعب المصرى أو الوطنى ، وهؤلاء كانوا سريعى الغضب وغير ميالين لحياة الحضر . وثانياً طبقة الجند المرتزقة ، وهم جماعة قساة عديدون شديدو البأس والمراس ، (لأنه قد جرت العادة قديما بأن يحتفظ الملوك بجند أجانب تعودوا الحكم بدلا من الطاعة وذلك لما وجدوه فى الملوك من عدم الجدارة والكفاية). وثالثاً عنصر السكندريين الذين لم يظهروا كذلك ميلا واضحاً نحو الحياة المدنية للأسباب نفسها ، ولكنهم مع ذلك كانوا أفضل من أولئك الآخرين (أى الطبقة الأولى) إذ أنهم على الرغم من كونهم شعباً خليطا فإنهم مع ذلك كانوا لا يزالون يونانيي الأصل يحافظون على العادات الإغريقية ، ولكن هذا الجمع الغفير أيضا كان مصيره الفناء على يدى «يورجيتيس فسكون» خاصة، وفى عصره زار بوليبيوس الإسكندرية ، وكان فسكون هذا يلقى معارضة من الأحزاب،وكثيراً ما كان يُعَرِّض الجماهير لعدوان الجند ،وبذلك كان سبباً فى القضاء عن تلك الجماهير . ولما كانت تلك هى الأحوال الجارية فى المدينة فإنه على حد قول بوليبيوس لم يبق فى الحق إلا أن يردد الإنسان مع الشاعر قوله « إن الطريق إلى مصر طويل محفوف بالمخاطر »(١) .

***

ويكفينا هذا القدر من وصف إسترابون للاسكندرية ومينائيها ومعالمها ، وأحوال سكانها ، وهو وصف حرصنا على أن نورده بأكمله حتى تكون لدينا صورة متصلة لما كانت عليه حال هذه المدينة فى الثلث الأخير من القرن الأول قبل الميلاد ، أما فى عهد تاريخها الأول ؛ فقد وصفها ثيوكريتس (Theocritus) شاعر القصر فى عهد بطلميوس الثانى ، والكاتب هيروداس (Herodas) ، وكان

(١) هوميروس — الأوديسيا الكتاب الرابع — سطر ٤٨٣ .

قد انقضى على تأسيس الإسكندرية ستة وثمانون عاما عند نهاية حكم فيلادلفوس، فلابد أن يكون قد اكتمل بناؤها حينئذ . ولقد كتب عنها فى عهد متأخر غير إسترابون كثيرون نذكر منهم : بوليبيوس ويوليوس قيصر اوهرتيوس (Hirtius, Bellum Alexandrinum) وديو كريسيستوم (Dio Chrysostom) وكلمنت السكندرى (Clement) كما وصفها المؤرخون الرومان ، الذين صنفوا تواريخهم فى عهد أغسطس[١] ، وذلك بعد انقضاء زمن طويل على تأسيسها ، ولم تكن قد أصبحت عاصمة للعالم . ومن كل هذه الأوصاف ومن غيرها يستطيع الإنسان أن يكوّن صورة عامة عن معالمها وحدودها وآثارها ، وعن عظمة مبانيها الملكية ؛ ومبانى بلديتها العامة : — عن موانيها وفنارها ، والقصر الملكى ، ودار الحكمة (الأكاديمية أو مجمع العلماء) ، والمكتبة والمنتدى الرياضى والثقافى (Gymnasium) ، ومعاهد المصارعة وما إليها (Palaestrae) والمحكمة (Dikasterion) وقبر الإسكندر (Sema) وحلبة السباق (Stadium)[٢] وصورة ما عن أخلاق أهلها .

سكان الإسكندرية :

ولقد ظهر منذ نشأة الإسكندرية أنها ستكون كالبوتقة تلتقى فيها عناصر مختلفة من شعوب الشرق والغرب ، وبلاد الإغريق ومصر وآسيا ، وممالك لم تكن تُعرف من قبل ؛ وأنها ستقوم بنصيبها فى بناء حضارة جديدة مزيج من ثقافات وحضارات شعوب مختلفة ، وقد وجد فيها اليونان فى أول القرن الثالث قبل الميلاد كل مظاهر المدينة اليونانية (Polis) ومميزاتها ولذلك هرعوا إليها زرافات

---

(١) Scriptores Historiae Augustae.

(٢) بيفان — تاريخ أسرة البطالمة صفحة ٩٠ — ٩٤ ، بريشيا الإسكندرية على تخوم مصر Alexandria ad Aegyptum صفحة ٦٨ .

ووحدانا ، وساعدوا بذلك على تضخم عدد سكانها الذين كانوا إلى حد كبير خليطا عجيبا من شعوب مختلفة ؛ وكان السكان الأحرار فى المدينة وحدة ممتازة ، وكانوا يدعون أنهم جماعة من اليونانيين الحقيقيين ، لهم مصالح مشتركة ونظام اجتماعى هو من خصائص المدينة اليونانية الحرة ، ولكن لم يكن كل السكان اليونان بالإسكندرية منضوين فى كتلة المواطنين الأحرار ، فكان هناك بالطبع المقدونيون الذين لم يكونوا معتبرين فى عصر متأخر فى عداد المواطنين الأحرار ، ولعلهم لم يكونوا فى عدادهم كذلك منذ نشأة الإسكندرية وإنما كانوا الطبقة الخاصة الممتازة من السكان المحتفظين بامتيازاتهم ، وكان اعترافهم بتولية الملك الجديد على البلاد أمراً له خطره وصفته الرسمية الضرورية . أما جمهور الأحرار فكانوا يونانيين ، ولا ريب ، وقد يدخل فى جملتهم عناصر من أجناس غير يونانية اصطبغت صبغة هيلينية ، وكان المؤرخ شوبارت (Schubart) يعتقد أن كتلة الأحرار كانت تشتمل على أقلية من اليونانيين الساكنين فى الإسكندرية ، ولا بد أنه كان يوجد غير هؤلاء الأحرار المستكملى الحقوق المدنية فى وقت متأخر على الأقل جموع غفيرة وجماعات كبيرة من الرجال الذين كانوا يسمون أنفسهم هيلينيين ويتكلمون اللغة اليونانية ويعيشون على النمط الإغريقى ، ولكنهم لا يتمتعون بمزايا الحرية اليونانية ، أى لم يكونوا أحرارا بالمعنى الاصطلاحى الخاص الذى تتضمنه كلمة بوليتيس (Polités) ؛ ومن المحتمل أنهم كانوا إلى حد كبير من دم خليط ، نتيجة زواج مشترك من اليونانيين والمصريات وقع فى الريف خارج مدينة الإسكندرية ، ولكن ذرية هؤلاء الأزواج المختلطين استقرت فى الإسكندرية بعد ذلك . ويمكن المرء أن يفترض بحق أن اليونان جميعا قد خُصوا ببعض المزايا التى تميزهم عن الوطنيين[1] .

---

(١) لمعرفة تلك المميزات ارجع إلى فيلون — Philo, In Flacc. cha. 78 ؛
A. H. M Jones, Cities of Eastern Roman Provinces p.

والراجح أن جماعة الأحرار فى الإسكندرية كانوا مقسمين إلى طبقات ومراتب صغيرة، وإلى قبائل (Phylae) وشعوب (Demoi) وبطون ونخوذ (Phratries) لها عصبياتها، على أنه من الغريب إلى حد كبير أن ذلك النظام لم يكن شاملا لكتلة المواطنين الأحرار[١] كلها، وهناك بردية من هيبه (Hibeh)[٢] يرجع تاريخها إلى الجزء الأول من القرن الثالث تدل على أنه فى إحدى المدن (ولعلها الإسكندرية أو بطلميوسه) كان يوجد خمس قبائل، فى كل قبيلة اثنا عشر حياً أو محلاً خاصاً تنزل فيه البطون ويسمى « ديم » (Deme) ولكل حى أو ديم اثنا عشر نخذاً أو عصبية (Phratries)[٣] ؛ ولابد أن عدد الديمات والعصبيات أو الفخوذ كان يختلف على مضى الزمان لأنه لا يوجد شىء يدل على أنها بقيت بدون تغير طوال حكم البطالمة — ويعتقد كل من العالمين الألمانيين شوبارت وفلكن (U. Wilcken) أن هذه الطبقة الخاصة من المقدونيين، التى تميزت فى الإسكندرية طول حكم البطالمة، كانت تعمل إلى حد كبير فى خدمة الجيش وفى بلاط الملك، وأن أفراد هذه الطبقة كانوا يعدون أنفسهم أشرف وأعلى مقاماً من بقية أهل الإسكندرية الذين كانوا ينتسبون لكتلة الأحرار فيها . ولا بد أن القيادة العليا للجيش والمراكز الرئيسة فى البلاط وفى جماعة الموظفين اللازمين للنظام الإدارى كل أولئك كان مقصوراً على هؤلاء المقدونيين الممتازين . ونجد فى تاريخ مصر الحديثة حالة شبيهة بهذه يمكن أن نستند إليها فى تأييد هذا الاستنباط ؛ فبعد أن انضمت مصر إلى حظيرة الإمبراطورية العثمانية سنة ١٥١٧م . أصبح الأتراك يعتقدون أنهم

---

(١) Jouguet, La Vie Municipale pp, 4 ; Graeca Halensis, Dikaeomata p. 92 ; Glotz, Journal des Savants 1916 p. 23

(٢) آثار هذه القرية على الشاطئ الشرقى للنيل بين بنى سويف والشيخ فضل وتجاه الفش فى مركز الفيس قديما باقليم هيرا قليو بوليس .

(٣) Chrestomathie No. 25 .

أرفع شأناً وأعلى مقاماً من المصريين ، واستمر هذا الشعور يتملكهم مدة ثلاثة قرون كانت الرياسات العليا فى مصر والإشراف على إدارة الحكم فى الأقسام الإدارية مقصورة عليهم وحدهم .

يهود الإسكندرية :

وكان يوجد غير هؤلاء الأحرار المستكملى الحقوق المدنية ، فى وقت متأخر على الأقل ، يونانيون آخرون لا يتمتعون بالحرية المدنية الخاصة بمدينة الإسكندرية كما كان يوجد منذ تأسيس المدينة جالية من اليهود زادت أعدادهم مع توالى الزمن حتى أصبحوا كثرة لها منزلتها وأهميتها(١) ولقد ذكر المؤرخ يوسيفوس أن اليهود كانوا من بين سكان المدينة الأوائل ومن المؤكد أنه قبل منتصف القرن الثالث قبل الميلاد كانت الإسكندرية تضم جالية يهودية كبيرة استقرت فى عهد أحد البطالمة الأول فى حى خُصِّص لهم وكان يعرف بحى الدال (الدلتا)(٢) ، وكان يمتد شرقاً من القصر الملكى ، ولقد أشار الكتاب الحديثون إلى هذا الحى باسم غيتو (Ghetto) ولكن فى استعمال هذا الاصطلاح بعض التضليل لأنه لم تفرض على يهود الإسكندرية قيود السكنى فى حى بذاته و إنما انتشر هؤلاء اليهود فى الأجزاء الأخرى ، تقوم فيها بيعاتهم . ولقد أثير جدل شديد حول مسألة تمتع اليهود بالحرية المدنية فى الإسكندرية فقال يوسيفوس عن قصد أو سوء فهم للحقائق ، إنهم كانوا يتمتعون بهذه الحرية المدنية ونحا «فيلون» هذا النحو أيضاً وتبعهما فى هذا الرأى كثيرون من المحدثين. ولكن من الثابت الآن

---

(١) Bell, Juden und Griechen in römischen Alexndreia, Alte Orient 9, 1926; H. Bell, Anti Semitism in Alexandria, Journal of Roman Studies vol. XXXI, 1941 pp. 1—4

(٢) Josephus, Bell. Jud. II, 495. ، كشفت الحفريات الحديثة التى تقوم بها كلية الآداب عن وجود مقبرة لليهود فى منطقة المستشفى الأميرى فى نطاق حيهم القديم .

أن اليهود ككتلة لم يكونوا من المواطنين الأحرار بالمعنى الاصطلاحى ولو أن بعض أفرادهم كانوا يمنحون من وقت لآخر هذا الامتياز[١]، ومع ذلك فإنهم كانوا يتمتعون ببعض الحقوق التى كانت للأحرار فكانوا يعرفون عادة باسم السكندريين (Alexandreïs) وكانوا يتمتعون ببعض مظاهر هى من صميم الحكم الذاتى بل كانت تفوق من بعض الوجوه المظاهر التى تتمتع بها كتلة الأحرار نفسها، على الأقل فى العصور المتأخرة عندما فقدت مدينة الإسكندرية مجلس المشورة (Boule) — وهكذا كان اليهود خارج نطاق المواطنين الأحرار فكانوا يكونون جزءاً من الجاليات الأجنبية التى كان لها نظامها الخاص بها من مجلس المسنين ومن موظفين مخصوصين و إدارات خاصة بتسجيل العقود لها سجلاتها وكانت تتمتع فوق ذلك بتطبيق قوانينها الخاصة بها فى بعض الأحيان

ومن الجاليات التى كانت بالإسكندرية الفريجيون (Phrygians) وينتسبون إلى ولاية فريجيا بآسيا الصغرى وكانوا يكونون جالية أخرى (Politeuma) ثم الفرس وهم سلالة الذين استوطنوا مصر قبل حكم البطالمة ولم يكن لهم عصبية ولا شوكة ولا كان عنصرهم أساسيا فى المدينة ، ثم يلى هؤلاء جميعاً المصريون وهم من الذين كانوا يسكنون فى قرية راقودة القديمة والذين سكنوا كانوبوس (أبو قير) ، وكان الإسكندر قد أمرهم بالتحول إلى مدينته الجديدة . وكانوا محرومين من التمتع بالحرية المدنية وإن كان بعضهم يحصل على هذه الحرية من وقت لآخر . ولم يكن التزاوج بين اليونانيين والمصريين معترفاً به قانوناً[٢] ولكنه كان يقع كثيراً ، وكان الاختلاط بين الثقافتين واقتباس اليونانيين من عادات المصريين وعقائدهم ودياناتهم أمراً لا مفر منه . وماوافت نهاية القرن الثالث قبل

---

(١) لا يزال بعض العلماء حتى الآن يصرون على تمتع يهود الإسكندرية بالحرية المدنية ولكن الأدلة التى تفند هذا الرأى وتبطله قوية فى رأى العالم هـ. ا. بل . (H. Bell.) .

(٢) A. H. M. Jones Cities of Eastern Rom. Provinces p. 304.

الميلاد حتى كان الشعب السكندرى مؤلفا من أجناس مختلطة ، ولم ينقض وقت طويل حتى أصبح العنصر الغالب من السكان غير يونانى ولا مقدونى وصار خليطاً لا نظام له ، له أشباهه وأمثاله فى مدن الشرق الهيلينى .

دستور المدينة :

أما دستور هذه المدينة فليست لدينا عنه معلومات وثيقة . وإن التفاصيل المتعلقة بكبار الموظفين بها واختصاصاتهم لهى لسوء الحظ غير ميسورة لنا فنحن مضطرون إذاً أن نعمد إلى إعمال الحدس والتخمين كيما نتصور ما كانت عليه الحال إذ ذاك . وليست لدينا معلومات ثابتة محققة نستطيع فى ضوئها أن نفصل فى ذلك الموضوع الشائك الذى أشكل على المؤرخين وهو هل كان لها مجلس شورى (Boulê) وهو العلامة المميزة الدالة على تمتع المدينة بحكومة ذاتية . ومن المؤكد أنه لم يكن بالمدينة مجلس شورى فى عهد الرومان حتى عهد الإمبراطور سبتيميوس سويروس (Septimius Severus) ولكن لا يزال محل خلاف بين المؤرخين أنه كان بالمدينة مجلس شورى فى عهد أغسطس ثم ألغى على يديه . وعلى الجملة فإن أكثر الآراء احتمالا فى هذا الموضوع تتلخص فى أن الإسكندر كان قد منح المدينةُ مجلساً للمشورة ثم حرمها إياه أحد ملوك البطالمة ، ولعل ذلك كان عقب حرب من الحروب الأهلية التى ناصرت فيها مدينة الإسكندرية الفريق الخاسر فكان ذلك نتيجة طبيعية لوقوفها موقف المعادى الضالع مع الفريق الخاسر . ومما لا شك فيه أنه فى عصر فيلادلفوس كان يوجد بها مجلس الأحرار (Ecclesia) يتمتع بسلطة فعليه محدودة كما كان بها مجلس المشورة وهيئة مكونة من ستة من الموظفين العموميين لمباشرة السلطة التنفيذية كان يسمى كل منهم بريتانيس (Prytanis) ولقد ذكر استرابون[١] من بين الموظفين العموميين بالإسكندرية أربع موظفين أولهم هو

(١) إسترابون جغرافية مصر : الكتاب السابع عشر فصل ١٢ (٧٩٧) .
A. H. M. Jones, Cities of Eastern Roman Provinces p. 304

الملقب أكسيجتيس (Exegetes) وهو موظف كبير واسع الاختصاص أشبه برئيس بلدية المدينة أو عمدتها وهو الذى كان يلبس عباءة أرجوانية ويتمتع بألقاب الشرف التقليدية ، وكان هذا الموظف السامى يشرف على مصالح المدينة ويتناول اختصاصه الاحتفاظ بسجل للمواطنين الأحرار وإدارة بلدية الإسكندرية . ثم ذكر إسترابون موظفاً آخر يسمى هيبومنيما توجرافوس (Hypomnematographos) وهو المختص بتسلم المظالم وثالثاً هو قاضى القضاة أرخيديكاست (Archidicast) ورابعا هو الحاكم العسكرى الذى كان يشرف على الأمن ليلا . والموظفون الثلاثة الأخيرون كانوا تابعين للملك أكثر منهم تابعين للبلدية وكان أمر قاضى القضاة هذا إحدى المشاكل المعقدة التى حار فى حلها الكتاب عن هذا العصر اليونانى[١] ثم كان هناك موظفون عموميون عاديون آخرون نذكر منهم جيمناسيارك (Gymnasiarch) أو رئيس المنتدى الثقافى والرياضى ثم يوثينيارك (Eutheniarch) وهو القائم على شؤون التموين ثم كوسميتيس (Cosmetes) وهو رئيس جماعة الشبان الأحرار (Ephebi) وكان تدوين الاسم فى سجل جماعة الشبان الأحرار هو الوسيلة للحصول على الحرية المدنية ، وكان الحصول على شهادة مكتوبة بذلك بمثابة وثيقة قيمة كشهادة الميلاد فى العصور الحديثة . ولقد حفظ لنا التاريخ عدة وثائق من هذا النوع ، ترجع إحداها إلى العهد الرومانى[٢] ، وتشتمل على تاريخ الانضمام إلى جماعة الشبان ، واسم القبيلة والحى .

(يتبع) زكى على

---

(١) بيفان « مصر فى عهد أسرة البطالمة ، صفحة ١٠٢ — ١٠٣ » .

(٢) Wilcken, Chrestomathie, 146 .

دكتور برُّون (Dr. Perron)

والشيخان

محمد عياد الطنطاوى ومحمد عمر التونسى

تقدمة :

آمن محمد على باشا ، منذ تولى عرش مصر بإرادة الشعب ، أنه لا يستطيع أن يرق بهذا البلد إلا إذا نقل الحضارة الأوروبية إلى مصر ، أو بمعنى أصح ، إلا إذا ترجم الحضـارة الأوروبية ؛ وقد استعان فى أول أمره بجماعة من الإيطاليين ، وأرسل بعثاته الأولى إلى إيطاليا ؛ ثم لم يلبث أن تحول عن إيطاليا والإيطاليين إلى فرنسا والفرنسيين[١] ، وكان أول مظهر من مظاهر هذا التحول استعانته بالكولونيل سيف (سليمان باشا الفرنساوى فيما بعد) لتدريب ضباط جيشه الجديد .

وبعد تكوين هـذا الجيش الجديد رأى أنه فى حاجة إلى أطباء أوروبيين للإشراف على صحة ضباطه وجنوده ، فكلف التاجر الفرنسى تورنو (Tourneau) فى سنة ١٨٢٥ (١٢٤١ هـ) أن يرحل إلى فرنسا ويتعاقد مع أحد الأطباء الفرنسـيين ؛ فسافر « تورنو » واتصل بالدكتور « انطوان برتلمى كلوت

---

(١) فصلت الحديث عن هذا التحول وتطوره وأسبابه فى بحث لى لم ينشر عن « تاريخ الترجمة فى عصر محمد على » .

Antoin Barthélmy Clot » فى « مرسيليا » ، « وكتب معه شروطا تقضى بحريته فى العمل ، وأن يتبع ديانته المسيحية ، وعدم إجباره على السير مع الجيش . . . الخ . . . الخ »[١] ؛ وحضر كلوت إلى مصر فى نفس السنة (١٢٤١ هـ — ١٨٢٥ م) وعين « جراح باشى » الجيش المصرى .

ولم يلبث كلوت أن أخلص لعمله الجديد ، ووهبه كل وقته وتفكيره ، فأنشأ المستشفيات العسكرية ، ومصلحة الصحة البحرية ؛ وفى سنة ١٢٤٢ هـ (١٨٢٧ م) أنشئت مدرسة الطب المصرية[٢] تنفيذاً لرغبته ، وجُعل مقرها فى أبى زعبل لتكون قريبة من معسكرات الجند .

وتخير الدكتور « كلوت » نخبة من أطباء وعلماء أوربا الممتازين ليكونوا أساتذة المدرسة الجديدة ، وكان من بينهم « الأستاذ برُون الكيماوى المعروف من مدرسة باريس »[٣] لتدريس مادتى الطبيعة والكيمياء .

وكانت الصعوبة الكبرى التى اعترضت طريق «كلوت» هى جهل الأساتذة باللغة العربية ، وجهل التلاميذ باللغات الأجنبية عامة ؛ ولكنه بذل جهودا جبارة للتغلب على هذه العقبة ، بدأت بأن يترجم المترجمون عن الأساتذة مايقولون ، وانتهت بترجمة الدروس التى تلقى ، والمراجع الطبية المختلفة ، وطبعها فى مطبعة بولاق ، ثم توزيعها على طلبة المدرسة .

غير أن أستاذا واحدا استطاع — كما يبدو — أن يذلل هذه العقبة وحده ،

---

(١) تاريخ كلوت بك ص ١٠ ، ترجمة محمد لبيب البتانونى أحد خريجى مدرسة الألسن بإشارة الدكتور محمد بك الدرى ، القاهرة ، المطبعة الطبية الدرية بحارة السقايين سنة ١٣٠٨ .

(٢) انظر جهوده وترجمة حياته بالتفصيل فى المرجع السابق ص ٦ — ١٥ ؛ كلوت بك لمحة عامة إلى مصر ، ترجمة محمد مسعود ، ج ٢ ص ٥٩٣ وما بعدها ؛ عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، القاهرة ١٩٣٨ ، ص : ٣٢ ، ٨٥ ، ٩٠ ، ٩٣ ، ١٢٩ — ١٣٠ ، ١٥٩ ، ٢٥١ الخ . الخ .

(٣) كلوت بك ، لمحة عامة إلى مصر ، ج ٢ ص ٦٢٨ .

فاستعان ببعض الألفاظ العربية — ولا شك — عند شرح دروسه ، ثم استعان أول الأمر بأحد مترجمى المدرسة ليترجم له محاضراته فى علم الطبيعة ، ولكنه بعد سنوات قضاها فى الدرس والبحث ، والاتصال ببعض المحررين والمصححين من شيوخ الأزهر استطاع أن يترجم بنفسه محاضراته فى الكيمياء .

ذلك الأستاذ المستشرق هو الطبيب « الكيماوى » الدكتور «برُّون» ، وهو الوحيد من بين جميع الأساتذة الأجانب فى مدارس محمد على المختلفة الذى كان يعرف اللغة العربية ، ويعنى بالبحث فى كتبها ، والترجمة عنها وإليها .

دكتور برُّون Dr. Perron :

كان « برُّون » عالماً بحاثة بكل ما تحمل هاتان الكلمتان من معنى ، فلم يكتف بعمله التعليمى الوظيفى فيغمض عينيه عن الحياة التى تحيط به ، وهى حياة جد جديدة ، فى بلد غريب ، وبين أناس يختلفون عن عشيرته من الفرنسيين الاختلاف كله : فى الدين ، والأخلاق ، والعادات ، والملابس ، والثقافة ... الخ ولكنه وهب وقته كله للبحث العلمى ، ولنوع خاص من هذا البحث العلمى : هو الحياة الثقافية ـ قديمها وحديثها ـ فى الشرق عامة ، وفى مصر خاصة ، فشارك فى حركة الترجمة والنشر التى نشطت وقتذاك فى مصر ، وكانت له جهود جليلة فى الترجمة عن العربية إلى الفرنسية ، وعن الفرنسية إلى العربية ، وكانت له نظرات ناقدة نافذة ـ رغم مرارتها ـ إلى صميم الحياتين الثقافية والسياسية فى مصر حينذاك ، ولهذه النظرات قيمة عظيمة جداً لأنها صادرة عن أجنبى يدرك العيب الذى لا يدركه صاحب البيت ، وعن عالم يستطيع التحليل والمقارنة ، ويجيد الشرح والوصف ، وإدراك الأسباب والمسببات .

وقد سجل « برُّون » هذه الملاحظات فى خطاباته التى كان يرسلها أثناء

مقامه فى مصر إلى صديقه المستشرق الشهير « جول مول[1] (Jules Mohl) ناموس الجمعية الأسيوية وعضو المجمع الفرنسى (l'Institut de France) فى « باريس » ، وقد نشر « مول » بعض هذه الخطابات فى الجريدة الأسيوية « Journal Asiatique » ، وبقى البعض الآخر دون أن ينشر حتى انتقل إلى ابن أخيه مسيو « أ. دى مول O. de Mohl » بصفته الوريث لعمه .

وفى سنة ١٩٠٨ كان « أ. دى مول » وزيراً مفوضاً ووكيلا لألمانيا فى صندوق الدين العام بالقاهرة ، فعثر بين أوراق عمه على أربع عشرة رسالة بخط الدكتور « برُون » مرسلة من مصر إلى « جول مول » فى « باريس » ، فقدمها لصديقه المرحوم أرتين باشا وكيل وزارة المعارف وقتذاك ، وعضو المجمع المصرى «l'Institut Egyptien» علّه يجد بها ما يهم مصر ، أو المجمع المصرى ، وذلك قبل إرسالها إلى باريس لتضم إلى أوراق « جول مول » المحفوظة بالمجمع الفرنسى .

وقد نشر أرتين باشا هذه الخطابات ومعها مقدمة تحليلية فى سنة ١٩١١ تحت هذا العنوان : « Yacoub Artin Pacha, Lettres du Dr. Perron, du Caire et d'Alexandrie, à M. Jules Mohl, à Paris. 1838—1854, Le Caire, 1911. »

وفى هذه الخطابات صور من نشاط « برُون » العلمى فى الترجمة والنشر .

ودكتور « برُون » فرنسى الأصل ، ولا نعرف شيئاً كثيراً عن حياته الأولى

---

(١) جول مول ألمانى الأصل ولد فى « ستتجارت Stuttgart » فى ٢٥ أكتوبر سنة ١٨٠٠ ، ودرس فى كلية توبنغن ، ثم سافر إلى باريس وتجنس بالجنسية الفرنسية ، ودرس هناك على المستشرقين الفرنسيين ، وكان معنياً بالدراسات الفارسية وله مؤلفات وأبحاث كثيرة أهمها نشره لكتاب الشاه نامه للفردوسى فى سبعة مجلدات ضخمة ؛ ثم أتبعه بترجمة فرنسية مذيلة بالحواشى ، وتوفى فى ٤ يناير سنة ١٨٧٦ . انظر : شيخو ، الآداب العربية فى القرن ١٩ ، بيروت سنة ١٩٠٨ — ١٩١٠ ، ج ٢ ص ٥٥ ؛ Y. Artin Pacha, Lettres du Dr. Perron... etc etc Le Caire, 1911. P. 6.

فى فرنسا قبل أن يحضر إلى مصر ، غير أنه يبدو أنه عنى — وهو فى باريس — إلى جانب دراساته الطبية العلمية ؛ بدراسة اللغة العربية ، وتتلمذ إذ ذاك على كبير مستشرقى فرنسا « سلفستر دى ساسى Silvestre de Sacy » كما تتلمذ على المستشرقين : « چان چاك كوزين دى برسيڤال » الأب ، و « أرمان كوزين دى برسيڤال » الإبن[١] .

ولسنا نعرف بالتحديد تاريخ مقدمه إلى مصر ، وإن كان « كلوت بك » يذكره ضمن الأساتذة الأول لمدرسة الطب المصرية بأبى زعبل ، فإذا صح أنه بدأ عمله بهذه المدرسة وقت إنشائها فإنه يكون قد حضر إلى مصر فى سنة ١٨٢٧ (١٢٤٢-١٢٤٣ هـ) .

وظل « برُّون » يدرس فى مدرسة الطب مادتى الطبيعة والكيمياء حتى بعد نقلها إلى القصر العينى .

ويبدو من رسائله إلى صديقه « مول » أنه كان فقيراً ، رقيق الحال ، فقد كتب إليه فى خطابه المرسل من الإسكندرية بتاريخ ١٠ اغسطس سنة ١٨٣٦ : « أشر علىّ بما ترى أنه خير وأفضل لى أن أعمله فأننى فقير لا أملك إلا مدادى .. »[٢] ، وقال فى خطاب آخر أرسله لصديقه من القاهرة فى ١٨ سبتمبر سنة ١٨٣٩ : « وأما أنا فقد عهد الى بإدارة مدرسة الطب .... وهذا المنصب

---

(١) ذكر « برُّون » مرة فى أحد خطاباته لصديقه « مول » أنه سيكتب قريباً لمسيو « كوزان » ، وطلب من صديقه أن يبلغه أنه سيعمل التحليل الذى طلبه منه ، وأنه يشرفه جداً أن يتمتع بصداقة وثقة عالم كبير كمسيو « كوزان » ؛ وفى خطاب آخر طلب من صديقه أن يسلم خطابا أرسله لأستاذه العزيز « كوزان دى برسيفال » : "l'autre est une seconde lettre que j'adresse à mon cher professeur Monsieur Causin de Perceval..." ، انظر : Yacoub Artin, Lettres du Dr. Perron, PP. 51, 53. ، ومن الواضح أن « برون » يقصد دى برسيفال الإبن فإن هذه الإشارات وردت فى خطابين بتاريخ ١٠ أغسطس سنة ١٨٣٨ و ٢١ مارس سنة ١٨٣٩ ، و « دى برسيفال » الأب توفى سنة ١٨٣٥ ، انظر : يوسف چيرا ، تاريخ دراسة اللغة العربية بأوربا ص ٢٨ ؛ وشيخو ، المرجع السابق ، ج ٢ ص ٥٤ .

(٢) Y. Artin Op. Cit, P. 11 .

الجديد قد عاد على بشيء من التحسين المادى — أعنى المالى — غير أن كل شيء هنا وقتى ، ورهين بتقلب الأحداث والأشخاص ، لدرجة أننى لو كنت أعرف أننى سأجد فى فرنسا ـ فى الحال ـ نصف ما أجمعه هنا ، لرحلت اليها تواً . . »[١]

ونجده فى نفس الخطاب قلقاً جدا لإهتمامه بطبع كتاب الأنساب[٢] الذى ترجمه إلى اللغة الفرنسية ، وكان قد كلف صديقاً له فى باريس إسمه « مسيو دوبرات M. Duprat » أن يقوم بنشره ؛ يقول « برون » فى خطابه لمول — وفيما يقول دليل واضح على رقة حاله — : « لقد تركت له مسألة النفقات وتقديرها ، وإنى أرى أن كل شيء غير مناسب الآن للقيام بهذا النشر الذى أريده (وأريده أن يتم بأقل نفقات ممكنة ، وذلك دون إهمال ما يتطلبه ظهور الكتاب) إذ أنه قلما تصرف لنا مرتباتنا ، والحكومة مدينة لنا بمرتب سنة ، فإذا كان مسيو « دوبرات » يثق فىّ الثقة الكافية ، فإنى أرجو أن يتولى الطبع فى الحال ، واعداً إياه أن أقوم بسداد المبلغ منجما كلما صرفت لنا الحكومة .... وإلى هذا فإن مرتبى قد زاد ، فقد كنت أتقاضى ثلاثة أكياس فجعلها الباشا خمسة ..»[٣]

ظل الدكتور «كلوت بك» مديراً لمدرسة الطب المصرية حتى سنة ١٨٣٤ حيث تخلى عن منصبه للدكتور « دفينو Duvigneau » وكان أستاذ الباتولوجيا والعيادة الداخليـة ، وفى سنة ١٨٣٩[٤] عين الدكتور « برون » مديراً لهذه المدرسة .

---

(١) Y. Artin, Op. Cit, P. 12 .

(٢) هو كتاب « اليتيمة فى النسب وفضائل العرب » أحد أقسام الجزء الثانى من العقد الفريد لابن عبد ربه .

(٣) Y. Artin, Op. Cit. PP. 13—14. والكيس كان يساوى ٥ جنيهات ، أى أن مرتبه كان ١٥ جنيها فأصبح ٢٥ جنيها ، ونلاحظ أن هذا الخطاب صادر عن مصر فى أواخر سنة ١٨٣٩ ، وكان نضال محمد على وقتذاك ضد الدولة العثمانية يستنفد معظم إيرادات مصر ، فلا عجب إذن أن أخرت الحكومة صرف مرتبات الموظفين .

(٤) يقول الدكتور أحمد عزت عبد الكريم فى كتابه « تاريخ التعليم فى عصر محمد =

ولبث « برُّون » مديراً لمدرسة الطب ست سنوات ، وفى سنة ١٢٦١ هـ (١٨٤٥) أنعم عليه محمد على باشا برتبة قائمقام ؛ وفى السنة التالية ١٢٦٢ (١٨٤٦ م)[1] استقال من منصبه ، وعاد إلى فرنسا فأقام فى باريس ثمانى سنوات ؛ ثم شعر بالحنين إلى مصر فعاد إليها فى أواخر سنة ١٨٥٣ (١٢٦٠ هـ) حيث عمل كطبيب حر فى مدينة الإسكندرية[2] ؛ ولا نعرف متى غادر مصر ثانية إلى وطنه ، ولكننا نعلم أنه مات فى باريس فى ١١ يناير سنة ١٨٧٦ (المحرم سنة ١٢٩٣ هـ) فى نفس السنة التى توفى فيها صديقه ومراسله العلامة « ج . دى مول » .

وقد كتب المسيو « إرنست رينان M. Ernest Renan » مرثية للرجلين فى التقرير المقدم عن أعمال الجمعية الإسيوية لسنتى ١٨٧٥ — ١٨٧٦[3]

قال « رينان » فى رثائه للدكتور « برُّون » : « فى الحادى عشر من يناير اختفى أيضاً رجل ترك فى تاريخ دراساتنا تذكاراً باقياً ، وأعنى به الدكتور

= على » ص ٢٨٤ : « وإلى أوائل سنة ١٢٥٤ هـ (١٨٣٧) كان « دڤينو » مديراً لمدرسة الطب وخلفه الدكتور « برون » ويفهم من قوله إن الدكتور برون تولى هذا المنصب سنة ١٨٣٧ ، ولكننا نستطيع أن نحدد — بوجه التقريب — تاريخ تعيينه مديراً للمدرسة ، ذلك أنه لم يشر إلى أى تغيير فى مركزه فى خطابه المرسل من القاهرة فى ٢١ مارس سنة ١٨٣٩ ، ولكنه تحدث إلى صديقه « مول » فى خطابه الصادر من القاهرة فى ٢٦ سبتمبر سنة ١٨٣٩ عن ترقيته إلى هذا المنصب ، وعن زيادة مرتبه تبعاً لهذه الترقية ، فيكون « برون » قد تولى هذا المنصب قطعاً بين مارس وسبتمبر سنة ١٨٣٩ ؛ انظر أيضاً : Enc IsL. Art: Tunisi .

(١) جاء فى Enc. IsL. Art: Tunisi أنه عاد إلى فرنسا فى سنة ١٨٥٠ ، والصحيح ما ذكرناه هنا نقلا عن عزت عبد الكريم ، المرجع السابق ، ص ٢٨٤ ، الذى اعتمد عند ذكر هذا التاريخ على بعض وثائق عابدين .

(٢) وقع على خطابه المرسل من الإسكندرية فى ١٩ يناير سنة ١٨٥٤ هكذا : برون طبيب صحى باسكندرية : Perron, Médecin Sanitaire à Alexandrie. Voir : Y. Artin, Op. Cit. PP. 38, 109 .

(٣) 28 Juin 1876, 7me série, tome VIII .

« برُّون » ، وهو واحد من أوائل الملتحقين بهذه الفرقة من الرجال المستنيرين المقاديم ، الذين عضدوا — وهم فى مصر — مشاريع محمد على لتحضير هذا البلد .

« و برُّون لم يدرس الشرق كباحث فقط ، و إنما كان يؤمن — ككل أفراد الجيل الذى كان من أبنائه — بالشرق ، كما كان يأمل فى ابتعاثه من جديد ، وقد عمل هناك فى إخلاص نادر .

« وكان إنشاء طب عربى فرنسى جزءا من عمله ، وقد أدى خدمات من نفس النوع لمنشآت مدارسنا فى الجزائر ؛ وكان يحب العرب ، و يعتقد فى إمكان ربطهم بالحضارة الأوربية ، ممتلئاً فى ذلك بعواطف خيرية ، ومتشبعاً بمبادىء فلسفة عاطفية .. »(١)

آراء برون فى أحداث مصر السياسية :

اعتاد « برُّون » أن يروى لصديقه « مول » — فى خطاباته اليه — نبذاً عن أحداث مصر السياسية الهامة ، وفى هذه النبذ مادة طيبة للباحثين فى تاريخ مصر السياسى فى عصر محمد على :

١ — كان للغة التركية المقام الأول فى مدارس محمد على — وخاصة المدارس الحربية — ، فلما تفاقم النزاع بين الباشا والسلطان ، ووصلت الخصومة الى أوجها فى الحرب السورية الثانية (١٩٣٩ — ١٩٤٠) رغب الباشا فى تعريب مصر — إن صح هذا التعبير — وذلك بجعل اللغة العربية أداة التعليم فى المدارس المصرية ؛ يشير الى هذا « برُّون » كما يشير الى أن السبب الحقيقى لهذه السياسة رغبة الحكومة فى الإقتصاد فى مصروفات المدارس ، ونتيجة لهذا عُزل المدرسون الأوربيون الذين كانوا يتقاضون مرتبات عالية ، وحل مكانهم مدرسون

(١) Y. Artin, Op. Cit, P. 7 .

مصريون[١] بمرتبات أقل ؛ وظلت هـذه السياسة رائد الحكومة المصرية حتى بعد انتهاء أزمة سنة ١٨٤١ ، فقد كتب « برئون » مرة أخرى لصديقه بتاريخ ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٤١ يقول : « ان الشئون المصرية باقية كما هى فى حالة عدم استقرار ، والاقتصاد هو اليوم كلمة الحكومة الأولى ، وهى تعمل على استبعاد الموظفين الأوربيين ؛ وتحت تأثير الاقتصاد أيضاً أنقص عدد تلاميذ المدارس ، فمدرسة الطب مثلا ، كان عدد تلاميذها ٣٠٠ فحدد هـذا العدد وأصبح ١٣٠ فقط ، وحدث مثل هذا فى المدارس الأخرى ... »[٢]

٢ — كان لهزيمة محمد على – نتيجة – لتدخل دول أوربا – رد فعل قوى فى نفسه ، فلم يعد يهتم بجيشه ، يذكر « برئون » أنه كان من عادة محمد على أن يُلقى إلى رجال جيشه – عند مقابلتهم له – ببعض كلمات ودية ، وكان فى بعض الأحيان يداعبهم مداعبة أبوية ؛ أما عند عودة الجيش من سوريا ، فقد جلس محمد على – على ديوان فى سلاملك القلعة ، وظل ينظر عابساً الى الخارج ، خلال احدى النوافذ – والجيش يمر أمامه ، دون أن يحظى أى ضابط أو صف ضابط بكلمة ودية واحدة .

فشلت مشاريع محمد على بعد جهاد طويل ، واضطر الى اخلاء سوريا ، وأنقص عدد جيشه ، ولكنه لم يركن الى الهدوء والدعة ، بل اتجه الى تنظيم

---

(١) Y. Artin. Op. Cit. PP. 13, 68—69 ، ورأى « برون » فى هذا الموضوع بعيد عن الصواب فإن سياسة محمد على منذ تولى عرش مصر كانت ترمى إلى تحقيق هذا الأمل ، وهو إبعاد الأجانب وإحلال المصريين محلهم ؛ لهذا أنشأ المدارس ، ولهذا أرسل البعثات ، لأنه كان يرى فى صرف الأجانب عن المنشآت الجديدة وإحلال المصريين محلهم « صيانة لأموال الدولة وفخراً لها » وكان يفرح الفرح كله كلما سمع عن نبوغ بعض الضباط المصريين ، ويعد ذلك « فألا حسناً للمستقبل إذ يغنى الحكومة عن استخدام الأجانب » ، انظر بحثنا عن الترجمة فى عصر محمد على ، وعزت عبد الكريم ، المرجع السابق ص ٣٣ و ٣٤ .

(٢) Y. Artin. Op. Cit. PP. 68—69 .

البيت ، واستثمار أرضه ، فعنى بالزراعة ـ عناية كبيرة ، يقول « برُون » فى خطاب له بتاريخ ٢٨ مارس سنة ١٨٤٢ : « حالة الدولة كما هى منذ شهور كثيرة والباشا يمر باستمرار فى الأقاليم لتشجيع الأعمال الزراعية ، وهو الآن فى الوجه البحرى حيث يعمل لزرع كميات كبيرة من السمسم »[١] ثم يقول : « وفيما يتعلق بالجيش ، لم يعد أحد يهتم به ، لا الباشا ولا أى انسان آخر ، وعدده يقل كل يوم ، وعدد الخارجين منه يزيد باستمرار . . »[١]

وذكر « برُون » بعد ذلك أن كبار أمراء الأسرة العلوية انتهجوا نهج محمد على ؛ فابراهيم باشا « كان غائباً عن القاهرة منذ شهور طويلة ، ولا يشغل نفسه إلا بالزراعة ، وكذلك عباس باشا ، فإنه يمر بأملاكه ، وبمزارع الحكومة . . . »[٢] .

٣ — ويشير « برُون » فى رسائله أيضاً إلى الضرائب الجديدة التى فرضها محمد على فى هذه الفترة ، ومنها ضريبة عقارية جديدة على المنازل فى المدن وقيمتها $\frac{1}{12}$ من إيجار المنزل ، ومنها ضريبة أخرى كبيرة المقدار على الرقيق الأسود — رجالا ونساء — الوارد إلى مصر أو الصادر عنها ، وقيمتها ٣٠٠ قرش[٣] .

(١ — ١) Y. Artin. Op. Cit. PP. 18, 19, 72, 73 وقد استخدم محمد على الجنود فى بناء القناطر الخيرية ، وفى زراعة الأراضى التابعة للحكومة فكلفهم بزراعة القطن فى جفالك نبروه ونشرت تحت إشراف يوسف أفندى وتحت إمرة بعض الضباط وصف الضباط .

(٢) Y. Artin. Op. Cit. PP. 20, 73 .

(٣) يتحدث حكاكيان بك عن هذه الضريبة فى مذكراته الغير منشورة ، المحفوظة فى المتحف البريطانى بلندن Memoires inédits du Hekekyan Bey, deposés en manucrit au British Museum à Londres" تحت تاريخ ١٤ نوفبر سنة ١٨٤٣ فيقول : « فرض الوالى ضريبة قدرها ٣٠٠ قرش على كل عبد يرد إلى مصر ، ولكن هذه الضريبة لم تؤثر فى حركة الوارد من الرقيق ، والباشا يرى أنه قد حان موعد إلغاء هذه التجارة ، والإنجليز يعنون نقل الرقيق بوساطة البحر بين إفريقيا وبلاد العرب ... » ، ويذكر أرتين باشا ، =

ويذكر « برنون » أن الباشا قدّر فى نفس الوقت ما قد يكون لهذا المنع من أثر اقتصادى فى التجارة المتبادلة بين مصر والسودان والحبشة ، فعمل على تشجيع التجارة فى الأصناف الأخرى الواردة من هذه البلاد ، كالعاج والصمغ العربى ، وحرّر هذه الأصناف من أى نوع من أنواع الضرائب .

٤ — كان للحكم المصرى فى سوريا أثره الواضح فى نشر الأمن والنظام فى ربوع هذا القطر الشقيق ، ولكن لم تكد جنود محمد على تنسحب من هذه البلاد ، ويعود إليها الجنود والحكام العثمانيون حتى عادت معهم الفوضى القديمة واشتد النزاع القديم بين طائفتى الدروز والموارنة ، يشير إلى هذا النزاع دكتور « برنون » فى خطابه المؤرخ ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٤١ فيقول :

« والدروز والموارنة فى نزاع مستمر وعداء ، وقد رأيت هذه الأيام مسافراً عاد من سوريا فأكد لى أن كل شىء هناك فى فوضى ؛ وفى نابلس نفسها رفض السكان دفع الضرائب[(١)] » .

آراء برونه فى الحالة العلمية :

١ — كانت مصر فى عهد محمد على قد بدأت تأخذ بأسباب نهضة علمية جديدة ، فأنشئت فيها المدارس على النظام الأوربى لتدريس العلوم الحديثة ،

= المرجع السابق ص ٢١ — ٢٢ أن السير ج. بورنج Sir J. Bowring و « الكومودور نابييه Napier » كانا شديدى الاهتمام بهذا الموضوع ، وأن محمداً علياً حاول هذه المحاولة تحت تأثيرهما ؛ وروى حكاكيان بك فى مذكراته السابق ذكرها بتاريخ ٨ فبراير سنة ١٨٤١ ملخص حديث دار بين « نابييه » ومحمد على ، وفيه يبين الوالى رأيه فى مشكلة إلغاء الرقيق : « أتى نابييه فى المساء وتحدث إلى الباشا بشأن الرقيق ، وقال له الباشا وعلائم السرور بادية عليه : إن ابنه سيبذل جهداً أكثر من جهده لمنع هذه التجارة ، وأن حفيده سيغالى أكثر من ابنه فى هذا الحظر ، وهكذا يتشدد فى المنع أحفاده واحد بعد الآخر حتى تنتهى هذه التجارة إلى الإلغاء » .

(١) Y. Artin. Op. Cit. PP. 17, 20—21, 69. وانظر لتوضيح العلاقة بين هاتين الطائفتين : « حروب إبراهيم باشا المصرى فى سوريا والأناضول » ج ٢ ص ٦٦ — ٦٨ وهو لمؤرخ مجهول ، علق حواشيه الدكتور أسد رستم ، وعنى بنشره الخورى بولس قرألى ، =

كالطب بفروعه المختلفة ، والطبيعة ، والكيمياء ، والتاريخ والجغرافيا ، والنبات والحيوان ، والجيولوجيا ، وعلوم الرياضة المختلفة ، كالهندسة ، والحساب ، والجبر ... الخ . الخ .

واختير من بين نوابغ الخريجين نفر أرسلوا فى بعثات لممالك أوروبا ، وخاصة فرنسا ؛ وكانت جهود هذه المدارس مركزة أول الأمر فى ترجمة المؤلفات الأوربية فى هذه العلوم ، وتلت هذه الجهود جهود أخرى لنشر بعض المؤلفات العربية القديمة الهامة . وقد أرخ « برون » لهذه الحركة تأريخاً لطيفاً مفيداً ، فكتب قائمة كاملة شاملة لجميع الكتب العربية ، والفارسية والتركية — مترجمة ومنشورة — التى طبعت فى مطبعة بولاق حتى سنة ١٨٤٢ (سنة ١٢٥٨ هـ) ، وأرسلها لصديقه مول لنشرها فى الجريدة الأسيوية[١] ؛ ولكن « مول » كان قد تلقى فى نفس الوقت من « موسيو بيانكى » قائمة أوفى فأهمل الأولى ونشر الثانية ، ثم أرسل « برون » لصديقه « ج . مول » فى نفس السنة (١٨٤٢) خطاباً آخر تحدث فيه عن المدارس الجديدة ومطبعة بولاق ، وقد نشر هذا الخطاب أيضاً فى الجريدة الأسيوية سنة ١٨٤٣[٢] .

المطبعة السورية بمصر الجديدة سنة ١٩٢٧ . وقد انتهى هذا النزاع بين الدروز والموارنة حوالى سنة ١٨٦٠ نتيجة لتدخل نابليون الثالث الحربى .

(١) Voir: Bianchi, Catalogue géneral des livres arabes, persans, et turcs imprimés à Boulac en Egypte depuis l'introduction de l'imprimerie dans ce pays : Journal Asiatique, 4e serie, 1843, t II, PP. 31 et seq ، وكان قد سبقه « رينو » فكتب مقالا فيه ملاحظات عن الكتب التى طبعت فى بولاق حتى سنة ١٨٣١ — ١٢٤٧هـ) انظر: Renaud, Notices des ouvrages arabes, persans et turcs imprimés en Egypte, Journal Asiatique, 2e serie, t. XIII, 1831. PP. 333—344 .

(٢) Lettre sur les écoles et l'imprimerie du Pacha d' Ègypte, par M. A. Perron à M. J. Mohl, Kaire 22 Octobre 1842. Journal Asiatique. 4me serie, t II, 1843. PP. 5 à 23. وقد استعان « برون » عند كتابة الجزء الخاص بالتعليم فى المساجد من هذا المقال بأستاذه الشيخ الطنطاوى .

٢ — وقد استطاع « برُون » أن يندمج فى الوسط العلمى المصرى بحكم اشتغاله بالتدريس ، وبحكم معرفته باللغة العربية ؛ غير أن معظم الأجانب الموجودين فى مصر وقتذاك للمساهمة فى نهضة محمد على التعليمية والإصلاحية ، كانوا يجهلون اللغة العربية ، وهم قوم مثقفون يحبون البحث والقراءة ، وليس فى مصر مكتبات أفرنجية ، أو محال لبيع الكتب الأجنبية ، لهذا كوّن هؤلاء الأجانب فى القاهرة جمعية أسموها « الجمعية المصرية[1] » Société Egyptienne تحدث عنها « برُون » كثيراً فى خطاباته لصديقه « مول » ، فذكر أنها أسست سنة ١٨٣٥ (سنة ١٢٥١ هـ) ، وكان غرضها الأول إنشاء مكتبة تضم أكثر عدد ممكن من الكتب ، وخاصة ما يتحدث منها عن الشرق : تاريخه ، وجغرافيته وأديانه ، وعاداته ... الخ .. الخ .

وكانت مالية الجمعية تتكون من :

ا — اشتراكات الأعضاء ، واشتراك العضو فى السنة مائة وخمسة قروش .

ب — ومن هبات الرحالة الأوروبيين الذين يمرون بالقاهرة ، فإن أى سائح أوروبى كان يستطيع أن يدخل الجمعية ، ويتمتع بالقراءة فى مكتبتها على

---

(١) Y. Artin. Op. Cit. PP. 15, 21, 25, 65, 76—77. ؛ وقد مر بمصر السائح الإنجليزى C. Rochfort Scott حوالى سنة ١٨٣٥ ، وقد وصف هذا السائح فى كتابه : Rambles in Egypt and Candia, London 1837, V. I. P. 216. ما تعانيه الجالية الأوربية المثقفة فى القاهرة من قلة الكتب ، ثم أشار إلى هذه الجمعية وما تؤديه من خدمات ، قال : « أما عن الكتب — فى القاهرة — فمن العسير الحصول على أى كتاب اللهم إلا الكتب الكثيرة الاستعمال التى نجدها فى مكتبات الدرجة الثالثة عند الإيطاليين ، أما الصحف فإنا لا نحصل عليها إلا مرة واحدة فى الشهر » ثم يشير إلى الجمعية المصرية بقوله : « وأخيراً تكونت جمعية اسمها الجمعية المصرية أسسها بعض الأجانب فى القاهرة ، وستقدم للسائحين خدمات كثيرة فى المستقبل ، ففيها مكتبة ، وفيها سيكون مكان صالح لاجتماعهم ، وسكرتيرها طبيب إنجليزى اسمه ڤالن Walne » ، هذا وقد تولى حكاكيان بك رئاسة هذه الجمعية أكثر من مرة ، وفى مذكراته السابق ذكرها أحاديث كثيرة عنها .

شرط أن يقدمه للجمعية أى عضو من أعضائها ، وكان هؤلاء السائحون يقدرون ما تؤديه الجمعية من فوائد ثقافية للجاليات الأوروبية فى القاهرة ، فكانوا يتركون عند رحيلهم بعض الجنيهات — كهبة فى صندوق الجمعية .

وقد تطورت أغراض الجمعية بعد نحو ست أو سبع سنوات من تأسيسها ، فأصبح من أغراضها طبع ونشر الكتب المتصلة بالشرق ؛ يقول « برُّون » عضو الجمعية وسكرتيرها فى خطابه المرسل من القاهرة بتاريخ ٢٨ أكتوبر سنة ١٨٤٢ : وعندنا الآن تحت الطبع مذكرات شائقة جدا عن الموقع الحقيقى لبحيرة قارون بالفيوم ، وعن حدودها ، والعلاقات القديمة بينها و بين فيضان النيل . . الخ . . الخ ، وهذا الكتاب من وضع مسيو « لينان » الرئيس الحالى للجمعية المصرية[١] .

وواضح من هذا الخطاب أن رئيس الجمعية فى سنة ١٨٤٢ (١٢٥٨ هـ) هو المهندس الفرنسى الشهير مسيو « لينان » ؛ وقد كان سكرتيرها فى تلك السنة ، وفى سنوات مقبلة هو الدكتور « برُّون » ، و بفضل صلته بجول مول وافقت الجمعية الأسيوية على أن تقدم لزميلتها الجمعية المصرية المساعدات الممكنة لبيع كتبها ومنشوراتها فى باريس ، يقول « برُّون » لصديقه فى نفس الخطاب : « اطلعت الجمعية على خطابكم الذى تعرضون فيه مساعدة الجمعية الأسيوية لتسهيل بيع الكتب التى سننشرها ، وقد قبل عرضكم هذا بكل سرور ، وإنى أقدم لكم شكر الجمعية . . »

وقد اعترضت هذه الجمعية صعوبات كثيرة ، ففى عهدها الأول (ما بين سنة ١٨٣٥ وسنة ١٨٤٢) قام نزاع شخصى بين رئيس الجمعية دكتور « ڤالن

---

(١) Lettres du Dr. Perron. PP. 23, 76—77 .

Dr. Walne » وسكرتيرها العام « دكتور م . أبوت Dr. M. Abbot»[(١)] ،
وأدى هذا النزاع إلى انفصال بعض الأعضاء ، وتكوينهم جمعية جديدة أسموها الجمعية الأدبية: «Association Littéraire» ؛ يقول « برُون» فى خطابه السابق: « وهذه الجمعية المنفصلة تضم نحو الستين عضوا ، وقد دفعوا رسم التأسيس ، وتنوى هذه الجمعية أن تعمل على النشر وخاصة النصوص الهيروغليفية ، وتحاول أيضا إنشاء مكتبة . . »

أما الجمعية المصرية فقد انتهت حياتها إلى الانحلال فى عهد متأخر فضُمت مكتبتها إلى المكتبة الخديوية [دار الكتب المصرية الآن] فى سنة ١٨٧٣ أو سنة ١٨٧٤ ؛ وذلك اتباعا لأمر أعضائها الأخيرين وهم : « حككيان بك Hekekian Bey» و« مسيوتوبورن M. Thuborn » و« كانى بك Cany Bey »

٣ — ولم يقنع « برُون» باتصاله بأنداده العلماء الأورو بيين المقيمين فى مصر لأنه كان معنيا بالبحث فى الكتب العربية ، وترجمتها والكتابة عن موضوعات مختلفة من تاريخ الشرق ؛ وقد أتى مصر وعربيته ضعيفة — دون شك — فعمل على أن يزيد معرفته بهذه اللغة ، وقد كان فى مدرسة الطب المصرية التى يدرس فيها هيئات مختلفة تعمل مشتركة لترجمة الكتب الطبية إلى اللغة العربية ، أهمها هيئة المترجمين ، وهيئة المحررين والمصححين ؛ وأعضاء الهيئة الأخيرة كلهم من خيرة مشايخ الأزهر المعروف عنهم الدقة فى البحث ، والشغف بالقراءة فكان منهم فى مدرستى الطب البشرى ، والطب البيطرى : الشيخ محمد عمر التونسى ، والشيخ ابراهيم الدسوقى[(٢)] ، والشيخ محمد الهراوى ، والشيخ

---

(١) وهما طبيبان إنجليزيان كانا فى خدمة محمد على باشا .

(٢) اتصل الشيخ الدسوقى بالمستشرق الإنجليزى « مستر لين .M. Lane » وعملا معاً على مراجعة القاموس المحيط مع شرحه تاج العروس الذى ترجمه « لين » فيما بعد ، وطبع فى لندن سنة ١٨٦٣ تحت اسم : Arabic English Lexicon انظر مقدمة هذا القاموس ، وانظر أيضاً =

سالم عوض القنياتى ، والشيخ مصطفى كساب .. الخ

وقد اتصل «برُون» بهؤلاء المشايخ ، وأفاد منهم ؛ غير أننا نحب أن نعرض لرأى « برُون » فى علماء مصر وقتذاك قبل أن نتحدث عن علاقته بهؤلاء المشايخ المحررين .

ورأى « برُون » فى علماء مصر فى ذلك العصر صحيح — رغم قسوته[(١)] ومرارته — فقد ظلت مصر طوال العصر المملوكى العثمانى تعيش فى جهل مطبق ، وغدا علماء مصر لا يعنون إلا بالدراسات الشكلية فى الدين واللغة ؛ وعندما بدأ

= على مبارك باشا ، الخطط التوفيقية ، ج ١١ ، ص ٩ — ١٣ ؛ المقالين المتعين اللذين كتبهما الأستاذ أحمد أمين بك عن العلاقة بين الرجلين فى الثقافة عددى : ١٢٦ و ١٢٧ .

(١) رأى «برون» فيما يلى قاس مرير ، ولكنه لا يبلغ فى القسوة والمرارة ما بلغه وصف الجبرتى لحالة العلم والعلماء فى مصر فى أواخر القرن الثامن عشر ، فإنه يروى أن أحمد باشا الوالى التركى الذى ولى مصر فى سنة ١١٦٣ هـ (١٧٤٩ م) كان من المحبين للعلوم الرياضية المشتغلين بها ، فلما أتى إلى مصر قرّب إليه جماعة من أشياخها وخاصة الشيخ عبد الله الشبراوى شيخ الجامع الأزهر ، وفى يوم دار بين الرجلين الحديث الآتى : « فقال له الباشا : المسموع عندنا بالديار الرومية أن مصر منبع الفضائل والعلوم ، وكنت فى غاية الشوق إلى المجئ إليها فلما جئتها وجدتها كما قيل : « تسمع بالمعيدى خير من أن تراه » فقال له الشيخ : « هى يا مولانا كما سمعتم معدن العلوم والمعارف » ؛ فقال : وأين هى ؟ وأنتم أعظم علمائها وقد سألتكم عن مطلوبى من العلوم فلم أجد عندكم منها شيئاً ، وغاية تحصيلكم الفقه والمعقول والوسائل ، ونبذتم المقاصد ، فقال له نحن لسنا أعظم علمائها ، وإنما نحن المتصدرون لخدمتهم وقضاء حوائجهم عند أرباب الدولة والحكام ، وغالب أهل الأزهر لا يشتغلون بشىء من العلوم الرياضية إلا بقدر الحاجة الموصلة إلى علم الفرائض والمواريث » الخ . . . الخ ، وطال الحديث بين الرجلين إلى أن قال الشيخ : « وهذه العلوم تحتاج إلى لوازم وشروط وآلات وصناعات وأمور ذوقية ، كرقة الطبيعة وحسن الوضع ، والخط والرسم ، والتشكيل ، والأمور العطاردية ، وأهل الأزهر بخلاف ذلك غالبهم فقراء ، وأخلاط مجتمعة من القرى والآفاق فيندر فيهم القابلية لذلك ... الخ » ؛ ثم دله الشيخ على الشيخ حسن الجبرتى والد المؤرخ وكان من المشتغلين بهذه العلوم فاستدعاه الباشا وقربه إليه « ولازم المطالعة عليه مدة ولايته ، وكان يقول : لو لم أغنم من مصر إلا اجتماعى بهذا الأستاذ لكفانى ... » ، ويختم الجبرتى هذه القصة بقوله : « وكان المرحوم الشيخ عبد الله الشبراوى كلما تلاقى مع المرحوم الوالد يقول له : « سترك الله كما سترتنا عند هذا الباشا ، فإنه لولا وجودك كنا جميعا عنده حميراً ... » انظر الجبرتى ، عجائب الآثار ، القاهرة سنة ١٣٢٢ ج ١ ص ١٩٣ — ١٩٤ .

محمد على نهضته التعليمية بقى شيوخ الأزهر — إلا من اتصل منهم بالمدارس للتتلمذ أو للتحرير والتصحيح — بعيدين عنها ، بل ساء رأيهم فى خريجى المدارس والبعثات ، وكانوا « يسخرون من المصريين الذين تعلموا فى أوربا ، ويقولون إنهم تعلموا تعليماً سطحياً ، وهم كالطائر الذى يحجل ويتهادى فى مشيته دون أن يحسن الطير »(١)

ومن العجيب أن نعرف أن دكتور « برُون » هو أول من فكر فى طبع القاموس(٢) المحيط للفيروزابادى فى مصر ، وقد تحدث عن مشروعه هذا فى خطابه المرسل من القاهرة فى ١٤ يناير سنة ١٨٤٥ ، وفيه أيضاً يبدى رأيه فى علماء الأزهر فيقول : « أظن أن هذا المشروع مفيد ، لا للأجانب المشتغلين باللغة العربية فحسب ، وإنما للمسلمين أيضاً ، فهذا القاموس سيساعد عدداً كبيراً من العلماء على البحث ، أو على الأقل على القراءة ، فهؤلاء العلماء ليسوا علماء إلا بالاسم فقط ، فهم فى غاية الكسل والجهل ، وهم لا يعرفون أسماء أبسط الكتب ، ومع ذلك فهم يحسبون أنهم يعرفون كل شىء ... وليس فيهم من يؤلف ،

---

(١) Enc. Isl. Art : Azhar .

(٢) تحدث « برون » كثيراً فى خطاباته عن مشروع طبع القاموس ، وذكر أنه أعد للمراجعة نسخا كثيرة مخطوطة والنسخة التى طبعت فى كلكتا سنة ١٢٣٠ — ١٢٣٢ هـ ، وأنه اتفق مع الشيخ التونسى على مراجعة النسخ وتصحيحها أثناء الطبع ، وأنه طلب من محمد على باشا أن يأذن له بطبعه فى مطبعة بولاق ؛ انظر : Enc. Isl. Art: Gomard, Tunisi فى مقدمته لكتاب Voyage au Darfaur, P. 10 . غير أننى رجعت لأقدم نسخة من القاموس طبعت فى بولاق ، فوجدت أنها نشرت فى جزأين بإشراف وتصحيح ، الشيخين : محمد قطة العدوى ، وأبو الوفا نصر الهورينى وذلك فى سنة ١٢٧٢ هـ (١٨٥٦) بأمر محمد سعيد باشا ؛ انظر هذه الطبعة من القاموس ج ١ ص ٦٨٠ وج ٢ ص ٦٨٥ ؛ وقد طبع بعد ذلك طبعات أخرى فى مصر فى : ١٢٨٩ و ١٣١٩ ؛ انظر : سركيس ، معجم المطبوعات العربية والمعربة ، عمودا ، ١٤٧٠ ، ١٤٧١ ؛ هذا وليس فى المراجع التى أفدت منها ما يبين الأسباب التى عاقت « برون » والتونسى عن تنفيذ مشروعهما ، وجعلت تنفيذه على يد الشيخ نصر الهورينى .

بل لا نجد فى الشرق أحداً يستطيع أن يؤلف كتباً . . . فهؤلاء العلماء يدرسون الفقه وعلوم اللغة ، وأكثرهم علماً يدرسون المنطق. . . والتوحيد ، . . . وأذكى العلماء ينظمون الشعر ، وأى شعر ! . . . وهم كذلك يحبون الزجل حباً جماً ، فهو عندهم منتهى الفن ؛ ومن لم ينشىء زجلا لايكون قد فعل شيئاً .

وتكون مخطئاً إذ حسبت أن القاموس يوجد عند العلماء ، فليس هناك فى القاهرة ولا فى مصر كلها عشرة علماء يملكون هذا القاموس ... » ويختم «برُون » حديثه بجملة فيها تهكم مرير فيقول : « فلنعط اذن قاموسا للعلماء Donnons donc un dictionnaire aux Ulémas[١] .

وفى خطابه المؤرخ ٩ يناير سنة ١٨٤٠ تحدث « برُون » عن وفاة شيخ الأزهر فقال : «لقد توفى شيخ الإسلام ، وعين مكانه خلفه الشيخ الصائم[٢] ، وهو سيد فقير فى علمه ، ولكنه فى الحقيقة غنى فى ماله» .

عالمان فقط من علماء مصر الذين اتصل بهم «برُون» حازا إعجابه ، وتتلمذ عليهما ، وأشار إليهما فى خطاباته بالإعجاب ، واعترف لهما بالاستاذية ، فقد أعاناه وساعداه فى بحوثه ، وترجماته العلمية المختلفة ، هذان هما : الشيخ محمد عيّاد الطنطاوى ، والشيخ محمد عمر التونسى .

---

(١) Lettres du Dr. Perron. P. 29, 90—92 .

(٢) المرجع السابق ص ١٥ و ٦٤ ؛ وقد ورد اسم الشيخ الجديد فى هذا الكتاب بهذا الرسم "le Cheikh El Waim" ولعل « برون » أخطأ فى كتابة الاسم ، أو لعل أرتين باشا أخطأ فى نقله عند طبع الرسائل ، وصحته : الشيخ أحمد عبد الجواد الصائم السفطى (+ ١٢٦٣ — ١٨٤٧) وقد ولى مشيخة الأزهر بعد الشيخ حسن القويسنى (+ ١٢٥٤ — ١٨٣٨) ؛ انظر : سليمان رصد ، كنز الجوهر فى تاريخ الأزهر ، القاهرة ١٢٣٠ ، ص ١٤١ — ١٤٣ و Enc. Isl. Art : Azhar .

الشيخ محمد عياد الطنطاوى :



الشيخ محمد عياد الطنطاوى

أرسل هذه الصورة المستشرق الروسى « اغناطيوس كراتشقوفسكى » إلى المرحوم أحمد تيمور باشا فى سنة ١٩٢٤ ، وذلك بمناسبة مقاله الذى نشره عن الشيخ الطنطاوى فى مجلة المجمع العلمى العربى ، وقد نشر هذه الصورة — مع مقال آخر عن صاحبها — الأستاذ محب الدين الخطيب فى مجلته الزهراء :
(م ١ ، ج ٧ ، رجب سنة ١٣٤٢ ، ص ٤١٧ — ٤٢٨) وعنها نقلنا هذه الصورة .

هو الشيخ محمد بن سعيد[(١)] بن سليمان عياد المرحومى الطندتائى الشافعى ، ولد سنة ١٢٢٥ هـ (١٨١٠ م) فى نجريد ، وهى قرية صغيرة قريبة من طنطا ، وتوفى

---

(١) ذكر فى بعض مؤلفات الطنطاوى أن اسمه « محمد بن سعد » لا سعيد ، انظر كتابيه : حاشية على متن الكافى فى علمى العروض والقوافى ، مخطوط ، مكتبة البلدية رقم ٥٠٢٠ ج ، وحاشية على شرح الأزهرية ، مخطوطة ، مكتبة البلدية باسكندرية ، رقم ٤٩٧٨ ج .

فى ٢٣ ربيع الثانى سنة ١٢٧٨ (٢٩ اكتوبر سنة ١٨٦١) فى «سانت بطرسبرج»

كان أبوه تاجراً متنقلا من سكان محلة مرحوم ، ولما بلغ محمد عياد السادسة من عمره التحق بمكتب فى طنطا حيث تلقى علومه الأولى ، فلما بلغ الثالثة عشرة من عمره سافر إلى القاهرة فأقام مع عمه ، والتحق بالأزهر فدرس على الشيخ ابراهيم الباجورى (+١٢٧٦) ، والشيخ حسن العطار (+١٢٥٠) والشيخ ابراهيم السقاء (+١٢٩٨) ، وغيرهم ؛ ونبغ من زملائه فى عهد التلمذة نفر كثيرون أهمهم : رفاعة الطهطاوى زعيم النهضة العلمية فى مصر فى عهد محمد على ، والشيخ ابراهيم الدسوقى أحد محررى الكتب المترجمة ومصححيها فى ذلك العصر ، وأستاذ المستشرق الكبير « مستر لين M. Lane »

وقد اضطر الشيخ محمد عياد أن يعود إلى طنطا بعد وفاة أبيه ، وأن يقيم بها مدة تقرب من العامين (١٢٤٣ — ١٢٤٥ = ١٨٢٧ — ١٨٢٩) ، وهناك أكمل دراسته ، وبدأ يلقى بعض الدروس ، ثم عاد إلى القاهرة حيث تولى منصباً من مناصب التدريس فى الجامع الأزهر فكان من شيوخ الطليعة الذين اتجهوا لتدريس[1] الأدب والشعر ، ولعله كان متأثراً فى ذلك بروح أستاذه شيخ العطار

وقد تتلمذ عليه فى تلك الفترة نفر من المستشرقين المقيمين فى مصر ، أو

---

(١) كانت دروسه فى الأدب تعنى بقراءة مقامات الحريرى وشرحها ، وديوان الحماسة انظر : أدمس ، الإسلام والتجديد فى مصر ص ٢٩ ترجمة عباس محمود ؛ Voyaga au Darfour. Trad, Française par Perron, p. 451. و Enc. Isl. Art : Tantawi ؛ وقد ذكر فولرز فى هذه المادة أن الطنطاوى اختير فى ذلك الوقت للتدريس فى مدرسة إنجليزية بالقاهرة ، ولعل هذه هى المدرسة التى كانت تديرها الارسالية الانجليكانية ، وكانت ذات ثلاث شعب : شعبة تعد الشبان الأقباط ليكونوا قسساً ، وشعبة لتعليم البنين ، وشعبة لتعليم البنات ، وقد أنشئت هذه المدرسة حوالى سنة ١٨٣٥ ، انظر تفصيل الحديث عنها فى : Bowring. Report on Egypt and Candia, PP. 137-138. Sophia Poole, The ; The English Woman in Egypt, Lon. 1842—44. PP. 4a-41.

الوافدين عليها ، منهم : دكتور «برون» و«فرسنل[١]» و«ج. فيل G. Weil» و«دكتور برنر Dr. Pruner» و«ر. فراهن R. Frahn[٢]»

وقد أشاد «فراهن» بذكر الشيخ الطنطاوى فى روسيا . فدعته نظارة خارجيتها ليدرس اللغة العربية فى معهد اللغات الشرقية «Institut des Lungues orientales» فى «سانت بطرسبرج» . وكان الوسيط بين نظارة الخارجية والشيخ لإقناعه بالسفر «الخواجة بكتى» ترجمان القنصلية الروسية بالقاهرة[٣] «Agent Consulaire.» .

ولم تحدد المراجع التى كتبت عنه السنة التى سافر فيها إلى الروسيا ، غير أنه

---

(١) هو صديق حميم للدكتور «برون» وهو أول من عرف علماء أوروبا بالشيخ الطنطاوى انظر J. A. 3rd ser. V, 1828 . وقد كان أيضا صلة التعارف بين الشيخ الدسوقى و«مسترلين» .

(٢) كان أبوه أول مدير للمتحف الأسيوى فى سانت بطرسبرج .

(٣) انظر : أحمد تيمور باشا ، الشيخ محمد عياد الطنطاوى ، مقال نشر فى مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ، عدد أيلول سنة ١٩٢٤ ج ٩ ، م ٤ ، ص ٣٩٠ ؛ وكراتشكوفسكى Kratschkovsky ، مقال بنفس العنوان فى نفس المرجع ، عدد كانون الأول سنة ١٩٢٤ ، ج ١٢ ، م ٤ ، ص ٤٩٤ . هذا وأسرة بكتى Bokty » من أقدم الأسر السورية المشهورة ، نزح أفراد كثيرون منها إلى مصر فى القرن الثامن عشر ، وقد أهلتهم معرفتهم باللغات الأوروبية إلى تولى مراكز القنصلية للدول الأوروبية فى القاهرة ، انظر : الخورى بولس قرألى ، السوريون فى مصر ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٢٠ ، ١٠٨ حيث يذكر أن جد هذه الأسرة «أبو جبران» وفد على مصر ، وتوفى بها سنة ١٧٦٢ ، وهو فى سن الثمانين ، وقد نبغ من هذه الأسرة فى أواخر القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر رجلان ، أولهما «بطرس بكتى» وهو المذكور فى هذا المقال ، وكان قنصلا للروسيا فى القاهرة . وقد تولى إقناع الطنطاوى بالسفر إلى الروسيا ؛ وثانيهما «يوسف بكتى» وكان قنصلا للسويد فى القاهرة وبإيعازه ومساعدته أرسلت أول بعثة علمية مصرية إلى إيطاليا فى عصر محمد على فى سنة ١٨٠٩ ومنها نبغ عثمان نور الدين باشا فيما بعد ، انظر تفصيلات أكثر فى : قسطنطين الباشا ، محاضرة فى تاريخ طائفة الروم الكاثوليك فى مصر ، لبنان ١٩٣٠ ، ص ١٨ ، ٤٣ ، وشيخو ، الآداب العربية فى القرن ١٩ ، ج ١ ، ص ٨٢ ، Cattaui, Le Règne de M.de Aly d'après les archives Russes. t. I. ، وانظر أيضا بحثنا عن «الترجمة فى عصر محمد على» .

من المرجح أنه وصل إلى الروسيا فى سنة ١٢٥٦هـ (١٨٤٠م)، ويؤيدنا فى هذا الظن شاهدان :

١ — الأول نسخة من سقط الزند[1] كتبها بخط يده، وذكر فى ختامها أنه نسخها فى سنة ١٢٥٦ هـ وهو فى المحجر الصحى بالقسطنطينية .

٢ — الثانى : رسائل كتبها فى سنة ١٢٥٧ هـ إلى بعض أصدقائه فى مصر، ورسائل أخرى وردت إليه فى نفس السنة من مصر لتعرف أحواله بعد سفره إلى روسيا، وقد وردت هذه الرسائل فى كتاب للطنطاوى اسمه « أحسن النخب فى معرفة لسان العرب » وهو كتاب فى اللغة العامية المصرية ألفه بعد وصوله إلى روسيا، وطبع فى «ليبسك» سنة ١٢٦٤هـ(١٨٤٨) .

وقد ذكر على الصفحة الأولى من هذا الكتاب مايلى : «للشيخ محمد عياد الطنطاوى معلم العربى فى مدرسة الألسن الشرقيـة، والمدرسة الكبيرة الأمبراطورية ببتربورج المحمية » .

وفاتحة الكتاب قصيدة من نظمه موضوعها : « تاريخ ولادة الأمير الكبير شاه زاده نقوله الكسندوفيج »، ومطلعها :

بعث الهنا نحو السرور رسوله　　يقرى عليه سلامه ووصوله

وختمها بقوله مؤرخاً :

أدعو الاله مهنئاً ومؤرخـاً　　للروسيا رغد بطالع نقولَهْ

٣٣٧　١٢٠٤　١١١　١٩١

١٨٤٣

---

(١) كانت لدى الشيخ الطنطاوى مكتبة كبيرة فيها عدد كثير من المخطوطات ومعظمها بخط يده وبعضها من تأليفه، وقد ضمت هذه الكتب بعد وفاته إلى مكتبة الجامعة فى روسيا، ولا تزال محفوظة فيها حتى الآن، ومن بينها هذه النسخة من سقط الزند تحت رقم ٨٣٧، انظر : C. Salemann, and V. Rosen, Indices alphabetici codicum manuscriptorum persicorum turcicorum arabicorum qui in Bibliotheca Imperialis Litterarum Universitatis Petropolitanae adservantur. St. Peteraburg .

وأطرف هذه الرسائل رسالة كتبها الطنطاوى لزميله وصديقه رفاعة بك الطهطاوى وصف فيها بعض ما شاهده فى الروسيا بعيد وصوله : « وأنا شغوف بكيفية معيشة الأوربيين ، وانبساطهم ، وحسن إدارتهم ، وترتيبهم ، وتربيتهم ، خصوصاً ريفهم وبيوته المحدقة بالبساتين والأنهار ، إلى غير ذلك مما شاهدتهم قبلى بمدة فى باريس ، إذ « بتربورغ » لا تنقص عن « باريز[١] » فى ذلك ، بل تفضلها فى أشياء كاتساع الطرق ، وأما من قبل البرد فلم يضرنى جداً ، إنما ألزمنى ربط منديل فى العنق ، ولبس فروة إذا خرجت ، وأما فى البيت فالمداخن المتينة معدة لإدفاء الأرض ، وطالما أنشدت عند جلوسى بقرب النار :

أ كل الفوا كه فى الشتا فليصطل النار فا كهة الشتاء فمن يرد

وتذكرت قول الأعرابى فى يوم بارد :

فى مثل هـذا اليوم طابت جهنم فإن كنت يوما مدخلى فى جهنم

وفى سنة ١٢٦٥ (١٨٤٨) عين الطنطاوى أستاذاً فوق العادة فى الجامعة الروسية ، وفى سنة ١٢٧١ هـ (١٨٥٤) عين أستاذاً عاديا ، واختير العالم الروسى « نفروتسكى » ليكون مساعداً له .

ومن أنبغ تلاميذه هناك فى الفترة بين ١٨٤٠ و١٨٤٢ المستشرق الفنلندى « ج . ا .[٢] فالين G.A. Wallin » الذى غدا فيما بعد أستاذاً فى جامعة Helsingfors وظل يراسل أستاذه حتى مات .

---

(١) لم يسافر الطنطاوى إلى باريس ، ولكن هذه المقارنة تدل دلالة واضحة على أنه قرأ رحلة صديقه رفاعة « تخليص الأبريز فى تلخيص باريز » .

(٢) ارتحل هذا العالم فى حياته إلى بلاد العرب ومصر وسوريا ، ومكث بها سنوات يحمل اسم « عبد الولى » وقد تبودلت الرسائل بينه وبين أستاذه الطنطاوى مدة ما ؛ وطبع « فالن » بعض هذه الرسائل مترجما إلى اللغة الأسوجية ، ويوجد البعض الآخر فى مكتبة الجامعة فى Helsingfors عاصمة فنلندا .

تاريخ وفاته :

لم يُعن أحد بتتبع أخبار الطنطاوى بعد أن طالت مدة إقامته فى روسيا ، ولهذا اختلف المؤرخون فى تحديد سنة وفاته ، فالعالم الفرنسى « هيوار Huart »[١] يذكر أنه توفى سنة ١٨٧١ ويوافقه فى ذلك الأب لويس[٢] شيخو «وبروكلمان»؛ وذكر أمين فكرى[٣] باشا فى كتابه عن رحلته إلى مؤتمر استكهلم الذى سماه : « إرشاد الألبا إلى محاسن أوربا » أنه توفى سنة ١٨٦٢ فقد روى أنه تقابل فى المؤتمر مع المستشرق الروسى يوسف كوتوال (غوتوالد) وكان قد بلغ الثمانين من عمره ، وذكر أنه ارتبط بوالده عبد الله فكرى باشا برابطة الود والصداقة فكثر اجتماعهما أحدهما بالآخر، وقال إن والده سأل الأستاذ «غوتوالد» مرة «عن الشيخ محمد عياد الطنطاوى من أعاظم علماء الأزهر، المتبحرين فى علوم الأدب صاحب التآليف العديدة ، والشعر الرقيق ، وكان توجه إلى بلاد الروسية ، وأقام بها ؛ هل هو حى أو ميت ؛ وهل أعقب ذرية أو لم يعقب ؛ فأخبره الشيخ « كوتوال » كما قيدته وقتذاك فى ورقة محفوظة عندى أن الشيخ محمداً كان بالمدرسة الكبرى ، وبديوان الخارجية بسان بطرسبرج معظما غاية التعظيم ، محترما إلى النهاية ، مرتباً له معاش عظيم ، وكان له ولد وزوجة ، وأنه مات فى سنة ١٨٦٢ على ما يتذكر ، وماتت بعده زوجته ، وكانت من مصر ، علوية ، وبعدها توفى ولده وكان اسمه أحمد على ما يظن ، وأن الشيخ محمداً الموما إليه دفن فى « بطرسبرج » حيث قبور المسلمين بها ، وقبره معلوم هناك ، وكذلك قبر زوجته وابنه . . »

---

(١) Huart, Histoire dela Litterature Arabe, paris, 1903 P, 420.

(٢) شيخو ، الآداب العربية فى القرن التاسع عشر ؛ بيروت ١٩٠٨ — ١٩١٠ ، ج ٢ ، ص ٥٩ .

(٣) ارشاد الألبا ، مطبعة المقتطف سنة ١٨٩٢ ، ص ٦٠٩ — ٦١٠ .

والتاريخ الذى أورده أمين فكرى باشا أقرب إلى الصحة فإن المستشرق الروسى المعاصر « إغناطيوس كراتشقوفسكى »(١) أثبت بعد تحقيق أن الشيخ الطنطاوى توفى فى ٢٩ اكتوبر سنة ١٨٦١ ، كما ذكر أن قبره لا زال موجوداً فى المنطقة التترية فى « لينينجراد » ، وعليه كتابة روسية وعربية .

الشيخ محمد عمر التونسى :

هو محمد بن عمر بن سليمان التونسى أصلا ومولداً ، ولد بتونس فى الساعة الثالثة من يوم الجمعة منتصف ذى القعدة سنة ١٢٠٤ هـ (٢٧ يوليو سنة ١٧٨٩) وأمه مصرية ، حملت به فى مصر أيام مجاورة أبيه بالأزهر لطلب العلم .

أسرته :

كان جده سليمان من عظماء أهل تونس ، وأثريائها ، وقد أعقب ثلاثة بنين أوسطهم عمر والد صاحب الترجمة ، وكان سليمان من المشتغلين بالعلم حسن الخط ، ينسخ الكتاب فيبيعه بضعف ما يبيع به غيره ، وكان إلى ذلك عارفا بفن صباغة الثياب ، فكان لهذا « أرفه إخوته معاشاً ، وأحسنهم ارتياشاً » .

سافر إلى الحجاز للزيارة والتجارة فغرقت سفينته فى البحر الأبيض المتوسط ، ونجا هو مع نفر قليل فبقى فى رودس مدة ينفق من « هميان » كان فى وسطه به بعض الذهب ، ثم ركب البحر ثانية إلى الإسكندرية ، ومضى إلى الحجاز فأدى الفريضة ، وخرج عائدا إلى جدة ، فاجتمع هناك بأناس من سنار فنشأت بينه وبينهم صحبة وصداقة ، وعاد معهم إلى بلادهم فقدموه إلى ملكهم ، وأخبروه أنه

---

(١) انظر : كراتشقوفسكى ، Enc. Isl. Art: Tantawi ومقاله السابق الذكر فى مجلة المجمع العلمى العربى ص ٥٦٣ .

رجل من أهل العلم غريب الديار انكسرت سفينته وضاع ماله ، فرحب به ، وأكرمه ، وأنزله دارا خاصة ، وأجرى عليه رزقا .

واستقر سليمان فى سنار ، وخلف أولاده الثلاثة فى تونس ، وكان أوسطهم — وهو عمر والد صاحب الترجمة — فى السادسة من عمره ، فكفلهم خالهم السيد أحمد بن العلامة الرحالة السيد سليمان الأزهرى .

تلقى عمر بعض العلوم على خاله ، وعلى غيره من العلماء ، وحفظ القرآن ؛ ولما بلغ مبلغ الرجال أراد الخروج للحج فخرج بصحبة خاله ، وركبا البحر من تونس إلى الاسكندرية ؛ ثم ذهبا إلى القاهرة ، ومنها إلى القصير ؛ يقول الشيخ محمد عمر التونسى فى ترجمته لنفسه : «وبينما هما فى القافلة إذ ناداهما منادٍ : «أيها المغاربة .. » ، فقال أبى : « نعم — من أنت ؟ » ، فقال : «أنا نسيب أحمد بن سليمان » ، فعرفه خال أبى ؛ وقال لأبى : « ياعمر : سلّم على أبيك » فأكب والدى يسلم على أبيه ويقبل يده ، ثم سلم جدى على نسيبه »[١] .

وواصل عمر السير مع خاله لأداء فريضة الحج ، وذهب سليمان إلى القاهرة ، وتواعدا على المقابلة هناك ، فلما عاد عمر وجد أباه قد باع تجارته ورجع إلى سنار .

وكان خال عمر قد توفى فى مكة ، فأقام فى القاهرة يطلب العلم فى الأزهر ، ثم ارتحل بعد قليل إلى سنار باحثا عن أبيه فوجده يحيا هناك حياة هنيئة ، وحوله أولاده من زوجة سنارية .

وطلب عمر من أبيه العودة معه إلى تونس فرفض ، فعاد هو يدفعه شوقه لإتمام دراسته ، وزوده أبوه بثلاثة جمال — على أحدها حمل صمغ وأربع جوارٍ، وعبدان ؛ وسار عمر مع القافلة التى ضلت الطريق ، وأصاب أفرادها العطش ،

---

(١) من ترجمة محمد عمر التونسى لنفسه، ذكرها فى كتابه « رحلة دارفور » ص ٣١ — ٣٢، ونقلها عنه على مبارك باشا ، الخطط التوفيقية ، ج ١٧ ص ٣٦ .

فمات الرفيق ، ونفقت الجمال ، وعاد عمر فقيرا كما ذهب ؛ ولكن حدث فى الطريق أن أصيب دليل القافلة وهاديها بصداع منعه النوم ، فكتب له عمر ورقة وضعها على محل الألم فبرئ الرجل لوقته ، فاعتقد فى عمر الصلاح ، ووهبه عدل صمغ ، فلما وصل الى مصر باع الصمغ «بخمسة وسبعين فندقليا[1]» .

واشتغل عمر ثانية بطلب العلم فى الأزهر ، وتزوج من والدة الشيخ محمد صاحب الترجمة ثم ارتحل إلى تونس ومعه زوجته ، وهناك وُلد له محمد بعد خمسة أشهر .

وفى سنة ١٢٠٧ هـ (١٧٩٢ — ١٧٩٣ م) عاد عمر إلى مصر لإتمام دراسته فحضر دروس الشيخ عرفة الدسوقى ، والشيخ محمد الأمير الكبير ، وبعد قليل عُين نقيبا لرواق المغاربة .

وفى سنة ١٢١١هـ (١٧٩٧ م) وصله خطاب من أخيه لأبيه بسنار ينعى إليه أباهما ، ويذكر أنه ترك «جملة كتب سرقت منا ، وبقينا بحالة تسر العدو ، وتسىء الصديق ، فعجل بالقدوم إلينا لتأخذنا معك نعيش بما تعيش به ..»[2] .

وأسرع الشيخ عمر بالسفر إلى سنار ، وترك ابنه محمدا — وهو فى السابعة من عمره — وطفلا آخر فى الرابعة من عمره ، يقول الشيخ محمد فى ترجمته لنفسه : « وترك لنا نفقة ستة أشهر فمكثنا سنة باعت فيها والدتى أشياء كثيرة من نحاس وحلى » ؛ ثم جاء عمه الصغير ، واسمه « الطاهر » حاجا وتاجرا ، فضمهما اليه ، وتولى الاشراف عليهما ، غير أنه لم يلبث أن غادر مصر إلى بلاد الحجاز لأن ابنه الصغير توفى فى مصر فلم يطق البقاء بها من بعده .

---

(١) التونسى ، تشحيذ الأذهان ؛ باريس ١٨٥٠ ، ص ٣٤

(٢) التونسى ، تشحيذ الأذهان ، ص٣٦ ؛ على مبارك ، المرجع السابق ج ١٧ ص٣٦ ؛ وانظر أيضاً Enc. Isl. Art : Tunisi

صاحب الترجمة

وظل محمد يطلب العلم فى الأزهر حتى ضاقت ذات يده ، ثم سمع بقيام قافلة إلى دارفور – وكان قد سمع بانتقال والده وعمه إليها – فصحبها ، ورحلوا من الفسطاط فى النيل حتى وصلوا منفلوط ثم بنى عدى ، وهناك تأهبت القافلة وتزودت ، ومن بنى عدى سارت براً إلى الواحات الخارجة ، ثم اتجهت جنوبا حتى وصلت إلى دارفور ، وفيها التقى محمد بعمه وأبيه فى بلدة اسمها «حلة جولتو» يقول الشيخ محمد ، : «وبعد أن أقمت عند والدى ثلاثة أيام جهزنى أنا وعمى إلى الأعتاب السلطانية بهدايا من عنده إلى حضرة السلطان[1] ووزيره الأعظم فركبنا من «أبى الجدول» إلى «تندلتى» وهو مقر السلطان ، فى أول شعبان سنة ١٢١٨ ، ويسمى ذلك البلد بلغتهم «الفاشر» ، وكل محل سكنه السلطان يسمى عندهم فاشراً ، فسافرنا يومين سفراً غير شطيط ، ودخلنا ضحوة الثالث فوجدنا بلداً يموج بالساكن ، ويرتج بالقاطن ، ما بين راكب وماش ، وجالس وغاش ، وطبول ترعد ، وخيول تركض ، فحظينا هناك بنيل المأمول ، وحلت هديتنا محل القبول ، ودعانى الوزير الشيخ محمد كرا ، وكسانى كشميراً أخضر وجبة خضرا ، وقفطاناً من القطن الهندى ، وأمر لى بجاريتين وعبد ، وكتب لأبى كتابا صورته : «من حضرة من أكرمه الكريم ، ولا يفارقه الخير والنعيم ، الوزير الأعظم المتوكل على من يسمع ويرى ، الأب الشيخ محمد كرا ، إلى حضرة الأستاذ الأعظم ، والملاذ الأفخم ، علامة الزمان ، ونخبة سلالة سيد ولد عدنان ، السيد الشريف عمر التونسى دام مجده آمين : أما بعد فإنه قد حضر لدينا نجلكم

(١) كان عمر قد حظى ، ونال مركزاً ممتازاً عند سلطان دارفور وقتذاك عبد الرحمن ابن أحمد (+ ١٢١٤ = ١٧٩٩) ، وشرح بأمره كتابين فى الفقه والشريعة ، انظر : رحلة دارفور ص ١٠٧ و ٤٢٤ ؛ Enc. Isl. Art : Tunisi .

المكرم ، صحبة أخيكم المحترم المعظم ، بما أهديتموه لنا حسبما هو مشروح فى جوابكم ؛ ففرحنا غاية الفرح بأمرين : الأول ، اجتماع شملك بقرة عينك ، والثانى أننا نؤمل إقامتك فى بلدنا ، وهذا هو المقصود الأعظم لتحصل لنا أكبر البركة بكم أهل البيت ، وقد أتحفناه بما صحبه ، ونرجو أن يكون مقبولا لديكم ، ولولا ما نحن فيه من الأشغال لكان الأمر أبلغ من ذلك ، فالمعذرة إليك ، والأمل ألا تنسانى من صالح دعواتك ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..» [١]

وعاد محمد إلى والده ، فأقاما معاً شهر رمضان ، ثم سافر إلى الفاشر ، وودع الوزير محمداً كرا ، واستأذنه فى السفر الى تونس على أن يترك ابنه محمداً ليدير أملاكه هناك ، ويجمع خراجها .

وقد أقام الشيخ محمد مدة فى السودان ، نعم فيها ، وطاف بأرجاء البلاد ونواحيها ، ووصف ما رأى من هذه البلاد ، وعادات أهليها فى كتابه « رحلة دارفور » أو كما سماه : « تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان » ؛ ثم عاد الى مصر « وقد فقدت أمواله وتحولت أحواله » [٢]

وأقبل ثانية على طلب العلم ، ودخل فى خدمة مجدد مصر محمد على باشا ، وكانت أول خدمته كما يقول : « بوظيفة واعظ فى الآلاى [٣] الثامن من المشاة ،

---

(١) تشحيذ الأذهان ، ص ٦٠ — ٦١ ؛ على مبارك ، المرجع السابق ؛ ج ١٧ ص ٣٤ — ٣٥ .

(٢) على مبارك ، المرجع السابق ج ١٧ ص ٣٦ .

(٣) باشرت السلطات المصرية إنشاء هذا الآلاى فى أغسطس سنة ١٨٢٤ ، وعهدت بذلك إلى المهندس الإيطالى شيانطى قاسم أغا ، ولما حضر إلى مصر الجنرال « بوايه » الفرنسى تولى تدريبه ، وفى أوائل سنة ١٨٢٦ ألحق هذا الآلاى بجيش المورة ، وفى أواخر عام ١٨٣١ أرسل إلى الشام ... الخ انظر الشىء الكثير عن تاريخ هذا الآلاى فى : الممهدات لتاريخ الجيش المصرى فى عهد محمد على باشا ، صفحة من تاريخ الآلاى المشاة الثامن ، للأستاذين الدكتور أسد رستم والبكباشى عبد الرحمن زكى ، مطبوعات المتحف الحربى ، بولاق ١٣٦٢ — ١٩٤٣ .

هذا كتاب تشحيذ الأذهان
بسيرة بلاد العرب والسودان
لمؤلفه الأخ الصديق
محمد بن السيد
عمر التونسي
ابن سليمان
عفا
عنه

الصفحة الأولى من كتاب « تشحيذ الأذهان »
وهى بخط الدكتور « برون »

وسافرت معه (أى مع ابراهيم باشا) الى المورة . . . ثم استخدمت فى مدرسة أبى زعبل لتصحيح الكتب الطبية ، وخصصت منها بتصحيح كتب الأجزاجية ، ومكثت على ذلك حتى اجتمعت بأبرع أهل زمانه حذاقة وفهماً ، وأذكى أهل عصره صناعة وعلماً ، معلم الكيمياء الحكيم «برُون» الفرنساوى ، وقد قرأ علىّ كتاب كليلة ودمنة باللغة العربية ؛ فذكرت له بعض ما عانيته فى أسفارى من العجائب، فحملنى على أن أزين وجه الدفتر بإيضاح ما شاهدته ، فامتثلت أمره لما له علىّ من اليد البيضاء، ورأيت أن ذلك أجمل بى أيضاً، لقول صاحب المقصورة

وإنما المرء حديث بعده   فكن حديثاً حسناً لمن وعى»[١]

وفى السنوات الأخيرة من حياته اشتغل التونسى بالتدريس فكان يلقى درساً فى الحديث بمسجد السيدة زينب فى يوم الجمعة من كل اسبوع، وبقى على ذلك إلى أن توفى سنة ١٢٧٤هـ (١٨٥٧م)

هذا موجز عن حياة الشيخين اللذين تتلمذ عليهما « برُّون » واستعان بهما فى أعماله وبحوثه العلمية فهو إذا ذكرأولهما فى أى من خطاباته قال دائماً : «شيخنا محمد عياد[٢] Notre Schaykh Mohammed Ayyad » بل أنه ليصفه بالجرأة والشجاعة إذا ذكره بعد سفره إلى الروسيا؛ فيقول : « شيخنا الشجاع عياد شيخى وشيخ فرسنل القديم : Notre brave Cheikh Aiad, l'ancien Cheikh de M. Fresnel et de moi »[٣].

وقد كتب مرة لصديقه «مول» يعده بإرسال مقال له عن التعليم فى مصر، ثم يعتذر إليه عن تأخيره ، لأنه ينتظر حتى يعود إلى القاهرة، فهو محتاج إلى شيخه محمد عياد ليمده بالمعلومات عن نظام التعليم فى المساجد[٤]، وعن اتجاه هذا التعليم، والفوائد التى يظن أنها سوف تجنى منه فى المستقبل.

وفى مرة أخرى ذكر « برُّون» لصديقه «مول» أنه مرسل إليه بحثاً صغيراً مكتوباً بالعربية ، ومترجماً إلى الفرنسية عن أسماء الأعلام العربية — أصولها

---

(١) التونسى، تشحذ الأذهان، ص ٥ — ٦ ؛ على مبارك، المرجع السابق ج ١٧ ص ٣٧ .

(٢، ٣، ٤) Lettres du Dr. Perron, PP. 11, 47, 64, 113 . وانظر أيضاً : Perron. Lettre sur les éscoles. etc. J. a. 1843. P. 9 حيث يقول عن أستاذيه : « وأنا فى الحقيقة لا أعرف بين الشيوخ فى مصر من يقرأ التاريخ أوله إلمام به غير الشيخ التونسى مؤلف رحلة — السودان — والشيخ التميمى المغربى المعلم الخاص لأولاد إبراهيم باشا ، وكان هنا أيضا عالم ممتاز ومثقف حقا هو الشيخ محمد عياد الذى ارتحل إلى « سانت بطرسبرج » منذ ثلاث سنوات حيث استدعاه الأمبراطور ، وحيث ينظر إليه نظرة تقدير واعتبار » .

واشتقاقاتها — ، ثم ذكر له أن هذا البحث كان قد كتبه له أستاذه الشيخ محمد عيّاد ، إجابة لطلبه[١] .

وهو إذا ذكر التونسى ذكره بالتجلة والاحترام ، فهو يقول دائماً : « شيخى القديم التونسى[٢] « Mon ancien Cheikh El. Tounsy » ، وقد بادله التونسى تقديراً بتقدير ، واحتراماً باحترام ، فهو عنده « أبرع أهل زمانه حذاقة وفهماً ، وأذكى أهل عصره صناعة وعلماً ، معلم الكيمياء الحكيم بيرون الفرنساوى[٤] » ، وهو « اللوذعى الأديب ، والماهر الطبيب اللبيب ، أحذق أقرانه ، وأنبه إخوانه ، المعلم بيرون الفرنساوى ، الحكيم النبيه الكيماوى ، ذو الذهن الوقاد ، والتعليم الذى كل تلميذ منه استفاد[٤] » ، وهو أيضاً : « الماهر فى جميع الفنون ، ناظر مدرسة الطب البشرى الشهير بيرون[٥] » .

***

وبعد فهذا ثالوث عجيب من الرجال ، كلهم عاش فى غير وطنه ، وكلهم وقف حياته وجهوده للعلم والتعليم ؛ فالدكتور « برُّون » فرنسى الأصل ، طبيب ، رحل إلى مصر وخدم نهضتها الحديثة فى عصر محمد على أستاذاً وناظراً لمدرسة الطب ، وشغف حباً بلغة غير لغته ، فتعلمها وحذقها ، وترجم عنها وإليها ؛ والطنطاوى مصرى ، عالم دينى ، تخرج فى الأزهر ، ورحل إلى « الروسيا » ، وعاش وتوفى

---

(١) Lettres du Dr. Perron, pp. 11, 47, 64, 113.

(٢) Op. Cit. PP. 89, 107.

(٣) انظر رحلة دارفور للتونسى ، ص ٥ — ٦ ؛ وعلى مبارك ، الخطط التوفيقية ج ١٧ ، ص ٣٧ .

(٤، ٥) انظر : برون ، الجواهر السنية فى الأعمال الكيماوية ، ٣ أجزاء كبار ، بولاق سنة ١٢٥٨ — ١٢٦٠ ، مقدمتا الجزءين الأول والثانى .

بها ، وتتلمذ عليه نفر كثير من المستشرقين فى مصر وفى الروسيا ، تعلم الفرنسية وأتقنها وشغل منصب الأستاذية فى جامعة « بطرسبرج » ، وله مؤلفات كثيرة تنتظر من يعنى بها .

والتونسى من تونس — أصلا ومولداً — وإن كانت أمه مصرية ، أسرته عشقت الرحلة فعاش هو وأبوه وجده فى مصر و بلاد العرب والسودان أكثر مما عاشوا فى وطنهم الأصلى تونس ؛ وقد شارك التونسى مشاركة فعلية قيمة فى حركة الترجمة والنشر التى ازدهرت فى عصر محمد على باشا .

جمعت بين هذا الثالوث رابطة العلم القوية ، رغم ما كان بين أفراده من اختلاف فى الجنس والموطن واللغة والدين والثقافة ، فأفاد « برُّون » من شيخيه علم المشرق ولغته ، وأفاد الطنطاوى من تلميذه لغة الفرنج ، كما أفاد التونسى منه طريقة الغربيين ومنهجهم فى البحث العلمى .

***

جهود هذا الثالوث فى التأليف والترجمة والنشر :

١ — دكتور برُّون :

1— Les Femmes Arabes.

وقد كتب «مول» تقديراً وتقريظاً لهذا الكتاب ، انظر „J. Mohl,Vingt
Sept ans d'Histoire d'etudes orientales, Paris, 1880, t. II, P. 283.

٢ — ترجمة مختصر سيدى خليل بن إسحاق عن الفقه المالكى فى ثلاثة مجلدات نشره بين سنتى ١٨٤٦ و ١٨٥١ ، (ذكر شيخو ، ج ١ ص ١١٢ أنه انتهى من طبعه سنة ١٨٥٤ ، وعلق عليه تعليقات واسعة) .

3— Voyage au Darfour par le Cheikh Mohammed ibn Omar el Tounsy, Reviseur en chef à l'École de Medeicine du Caire, traduit de l'Arabe par Dr. Perron, Directeur de l'Ecole de Médecine du Caire, Paris, 1855.

وعدد صفحات الكتاب ٤٩٢ من القطع الكبير ، وبه مصور جغرافى ، وكتب مقدمته Jomard (ص ١ — ٧١) ، وقد طبعت هذه المقدمة على حدة تحت عنوان :

Observations sur le voyage au Darfour suivis d'un vocabulaire de la langue des habitants et de Remarques sur le Nil-Blanc supérieur, Paris, 1855.

4— Voyage au Ouaday par Cheikh Mohammed Ebn Omar al Tounsy, traduit de l'Arabe par Dr. Perron, Paris, 1851.

وهو كتاب كبير فى ٧٥٦ صفحة ، ومقدمته فى ٧٥ صفحة ، وبه أيضاً مصور جغرافى وتسع لوحات مصورة ، وكتب مقدمته أيضاً مسيو جومار M. Gomard ، والأخبار الواردة فى هذه الرحلة صحيحة فى جملتها ، وإن كان يعوزها الترتيب والتصنيف العلمى ، وقد اقتنع «برُّون» بصحتها من جماعة من أهل دارفور ووادای كانوا يسكنون فى القاهرة ؛ غير أن « بارث Barth » أخذ عليه أنه لم يورد فى كتابه شيئاً مضبوطاً عن الأحوال الجغرافية والطبوغرافية والأحصائية ، والأرصاد الجوية لهذه البلاد ؛ انظر :

Barth, Reisen und Entdeckungen in Nord und le Centralafika, Berlin, 1859, 3, P. 525.

وفى: Nachtigal, Petermanns Geogr. Mitteil, vol 21, 1875.

Sahara und Sudan, vol. 3. P. 8.

٥ — ترجمة لقصة سيف التيجان سنة ١٨٦٢ .

٦ — ترجمة لكتاب الطب النبوى ؟ (انظر شيخو ، الآداب العربية فى القرن ١٩ ، ج ١ ص ١١١) .

Voyage

au

Dârfour

ou

l'aiguisement de l'esprit.

par le voyage au Soudan et parmi les arabes du centre de l'Afrique,

par

le cheykh Mohammed ibn-Omar el-Tounsy,

Autographié et publié

par

Mr. Perron

Paris

chez Benjamin Duprat

libraire de l'Institut de France, de la bibliothèque nationale, de la société asiatique de Paris, &c

Rue du cloître Saint-Benoît, N° 7

1850

Imprimerie lithographique de Kaeppelin.

17, Quai Voltaire

العنوان الفرنسى لكتاب « رحلة دارفور » ؛ وهو أيضاً بخط الدكتور « برون » ؛ كما هو واضح فى السطور ١١ — ١٣

٧ — ترجمة لكتاب كامل الصناعتين المعروف بالناصرى فى البيطرة والزرطقة[1] ، لأبى بكر بن بدر وكان بيطاراً فى اصطبل الملك الناصر محمد بن قلاوون وهو فى ٣ مجلدات ، ونشر تحت هذا العنوان :

Abou Bekr ibn Bedr, Le Nâceri. La perfection des deux arts, ou, Traité complet d'hippologie et d'hippiatrie arabes. Traduit de l'arabe par Dr. Perron. 3 vols. Paris 1852 — 1860.

٨ — ترجمة كتاب ميزان الخضرية للشعرانى فى الفقه .

٩ — مقالات مختلفة ، بالفرنسية ، عن بعض مشاهير العرب ، كطرفة[2] ، والمتلمس ، وعنترة ، وأحيحة بن الجلاح ... الخ ... الخ ، وقد اعتمد عند كتابة هذه المقالات على كتاب الأغانى .

١٠ — ترجمة كتاب الأنساب ، وهو جزء من كتاب العقد الفريد ، لابن عبد ربه .

١١ — كتاب الأزهار البديعة فى علم الطبيعة ، وهو مجموعة محاضراته التى ألقاها على طلابه بمدرسة الطب المصرية ، وقد ترجمه إلى العربية بمساعدة يوحنا عنحورى ، أحد مترجمى مدرسة الطب ، وراجعه الشيخ الهراوى ، طبع فى بولاق ١٢٥٤ . ثم طبع طبعة ثانية فى سنة ١٢٦٩ .

١٢ — الجواهر السنية فى الأعمال الكيماوية ، وهى أيضاً مجموعة

---

(١) قال صاحب كشف الظنون عند كلامه على هذا الكتاب : « البيطرة هى النظر فى أحوال الخيل من جهة الصحة المرض ، والزرطقة هى عبارة عن تربية الخيل فى تعليمها ولوازمها » هذا وتوجد نسختان مخطوطتان من هذا الكتاب فى الخزانة التيمورية بالقاهرة ؛ أنظر : تيمور باشا ، التصوير عند العرب ، نشره وعلق عليه الدكتور زكى محمد حسن ، القاهرة ١٩٤٢ ص ٣٦ .

(٢) انظر مثلا : Perron. Lettre sur les poètes Tarafah et Al-moutalammis. Journal Asiatique, 3me serie, t. XI, Jan. 1841. pp. 46-69, & mars. 1841, pp 215-247 .

محاضراته فى الكيمياء التى ألقاها على طلابه بمدرسة الطب المصرية ، وتقع فى ثلاثة مجلدات كبيرة : الأول فى ٦٧٦ صفحة ، والثانى فى ٤٩٤ صفحة ، والثالث فى ٥٥٩ صفحة ، وقد ترجمه بنفسه ، « وكان إذ ذاك ضرب بعطن فى اللغة العربية ، وصار يفهم النكات الأدبية ، فبحث فى القواميس على الألفاظ الطبية والكيماوية ... الخ ، (انظر مقدمة التونسى للجزء الأول من هذا الكتاب) ، وقد قام على تصحيحه ، ومراجعته الشيخان محمد الهراوى ، ومحمد عمر التونسى ، واثنان من تلاميذ « برُون » ، هما الدكتور حسين غانم الرشيدى ، والشيخ درويش زيدان ، بولاق سنة ١٢٥٨ — ١٢٦٠ .

***

٢ — الشيخ محمد عياد الطنطاوى :

ترك الطنطاوى عند وفاته مكتبة غنية ، فيها ما لا يقل عن ١٥٠ مخطوطة بعضها من تأليفه ، والبعض الآخر من نسخه ، وقد آلت هذه الكتب إلى مكتبة الجامعة فى «بتروغراد» ، وفيما يلى بيان لأهم مؤلفاته :

١ — تاريخ حياته بقلمه ، ولم ينجز منه إلا قطعة صغيرة ، نشر أصلها العربى ومعه ترجمة ألمانية J. G. Kosegarten فى مجلة : Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes, 1850, 43 — 67, 197 — 200.

وقد كتب المستشرق «غوتوالد» تعليقات على هذا الكتاب فى مجلة :

Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellshaft, IV, 243 — 248.

٢ — أحسن النخب فى معرفة لسان العرب ، وهو كتاب فى اللغة العامية المصرية ، ألفه وهو فى «روسيا» ، وطبع فى «ليبسك» سنة ١٢٦٤ (١٨٤٨) ،

ويشتمل هذا الكتاب على ألفاظ وجمل وأمثال ، ورسائل وقصص ، وأغانٍ مصرية عامية ، ومعها ترجمتها إلى الفرنسية ، (وقد ذكرنا فى متن المقال بعض محتويات الكتاب ، وخاصة شعر الفاتحة ، ورسالة الطنطاوى لصديقه رفاعة الطهطاوى) ، ومن أهم ما ورد فى هذا الكتاب منظومة أمين أفندى الجندى التى نظمها عند مسير الجيش المصرى لفتح الشام ، يقول تيمور باشا فى مقاله السابق الذكر : «وكنا نسمع فى متناقل الأخبار أن هذا الجيش كان يتغنى بها ، ولم نكن نعلم منها غير قوله فى مطلعها :

هيــــا بنا هيا بنا   للحرب نلقى ضدنا »[1]

	رقم الكتاب فى مكتبة بتروغراد
٣ — حاشية على شرح الشيخ خالد الأزهرى[2] على متنه المسمى بالأزهرية فى علم النحو ، كتبها بخط يده سنة ١٢٥٢ هـ .	٨٢٧
٤ — حاشية على متن الزنجانى فى الصرف المشهور بمتن العزى كتبها بخط يده سنة ١٢٥٥ هـ .	٨٣٣
٥ — حاشية على كتاب الكافى فى علمى العروض والقوافى[3] بخط يده سنة ١٢٥٥ هـ .	٧٨٦

---

(١) انظر هذه المنظومة كاملة فى : داود بركات ، البطل الفاتح إبراهيم باشا ، ص ٢٢٦ ، القاهرة ١٩٣٤ .

(٢) توجد نسخة خطية من هذا الكتاب فى مكتبة البلديه باسكندرية ، ضمن مجموعة رقم ٤٩٧٨ ج وقد كتب على الصفحة الأولى منها أنها «حاشية على شرح الأزهرية للشيخ خالد مع التعرض لحاشيته المشحونة بغرر الفرائد لشيخنا خاتمة المحققين والنظار ، مولانا الشيخ حسن العطار» وقد ذكر فى نهايتها أنها كتبت بخط «مصطفى الفق» فى أول رجب سنة ١٢٤٧ .

(٣) توجد نسخة مخطوطة من هذا الكتاب فى مكتبة البلدية رقم ٥٠٢٠ ج ، كتبها محمد بن سليمان فى سلخ شعبان ١٢٦٥ .

٦ — منتهى الآداب فى الجبر والميراث والحساب ، بخط ٨٢٠
يده سنة ١٢٤٥ هـ .

٧ — الحكايات المصرية العامية ، بخط يده ؟ ٧٤٥

٨ — مسودات لتاريخ العرب ، ومعها ترجمة الباب الأول من كتاب « كلستان[١] » لسعدى الشاعر الفارسى وهو بخط يده .

٩ — منظومة فى البيان نظم فيها متن السمرقندية .

١٠ — حاشية على شرح برهان الدين أبى المعالى إبراهيم السقا ، (وهو أحد شيوخه) على منظومة السيد محمد بُليحة ، وعنوان الشرح التحفة السنية فى العقائد السنية .

١١ — حاشية على رسالة شيخه إبراهيم البيجورى فى العقائد .

١٢ — شرح على منظومة الشيخ السلمونى ، التزم السجع فى جميع جمله .

١٣ — رسالة عن الأعياد المصرية ، (مخطوط ، مكتبة بتروغراد ، رقم ٨٣٨) .

١٤ — كتاب عن تاريخ روسيا باسم : تحفة الأذكيا فى أخبار بلاد روسيا ، كتبه بخط يده سنة ١٢٦٦ (١٨٥٠) ، (انظر للتعريف بالكتابين الأخيرين :

Comptes-rendus de l'Académie des Sciences de Russie, 1926, pp. 23 — 26; 1924, pp. 102 sqq; 1927, pp. 181 sqq.)

***

٣ — الشيخ محمد عمر التونسى :

١ — رحلة دارفور المسماة « تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان »

---

(١) عندى فى مكتبتى ترجمة عربية أخرى لهذا الكتاب ترجمها فى نفس العصر جبرائيل يوسف المخلع كاتب الديوان الخديوى بالاسكندرية ، وطبع فى بولاق سنة ١٢٦٣ هـ .

كتبها تنفيذاً لإشارة دكتور « برُون » ، الذى عنى بطبع النص العربى فى باريس سنة ١٨٥٠ ، (انظر الترجمة الفرنسية للرحلة فى مؤلفات دكتور برُون) .

٢ — رحلة واداى ، كتبها أيضاً تنفيذاً لرغبة دكتور « برُون » ولم ينشر النص العربى لهذه الرحلة حتى اليوم ؛ بل ولا يعلم مصيره ؛ فقد كان فى حوزة دكتور برُون ، وإنما نشرت الترجمة الفرنسية فى باريس سنة ١٨٥١ ، (انظر مؤلفات برُون) .

٣ — الشذور الذهبية فى المصطلحات الطبية ، وهو معجم كبير للألفاظ والمصطلحات الطبية والعلمية المختلفة ، جمعها من الكتب والمعاجم العربية والأفرنجية ، ذكره جورجى زيدان فى كتابه (تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٤ ، ص ١٧٧ — ١٧٨ ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٣٧) ، وقال عنه : « هو معجم للمصطلحات الطبية والأطباء ، وقد أسند لكل مؤلف ما التقطه منه ، فجاء كتاباً فى نحو ٦٠٠ صفحة متوسط الحجم ، وهو من الذخائر النفيسة ، وقد حمل إلى باريس ، وفى المكتبة الخديوية[1] نسخة منقولة بالفوتوغراف عن نسخة باريس ، وقد أقرت نظارة المعارف على طبعها فى جملة كتب إحياء الآداب العربية » ، وقد بدأت فعلا دار الكتب الخديوية بطبع هذا المعجم ، وطبع منه الجزء الأول فى ١٠٠ صفحة ، (مطبعة المقتطف سنة ١٩١٤) ، وأشرف على تصحيحه وطبعه وترجمة ألفاظه إلى اللغتين الفرنسية والإنجليزية الدكتور أحمد عيسى بك ، غير أن الدار لم تنشر منه حتى اليوم إلا هذا الجزء تحت عنوان :

---

(١) توجد من هذا المعجم أربع نسخ فى دار الكتب المصرية أرقامها : ٧٥٧١ و١٧٤٠ و١٦٤٤ و١٦٥٣ طب ؛ انظر حديثا مفصلا عنه فى : بحثنا عن تاريخ الترجمة فى عصر محمد على ؛
J. H. Dunne, Printing and Translation, under m$^{\underline{ed}}$ Ali, Journal of the Royal Asiatic Society. July 1940. pp. 343—345.

الانسان ان يضرب الرمل المذكور ياتى برمل نظيف نقى ويبسطه
على الارض ثم ينقط فيه بالاصبع الوسطى اربعة اسطر من غير عدد
بالاسطر من اليسار الى اليمين هكذا
ثم يتتبعه زوجا فزوجا حتى ينتهى الى الآخر فان كان الاخر زوجا اثبته
وان بقى فردا اثبته فيثبت ما تحصل من السطر الاول اولا وما تحصل من
الثانى تحته وهكذا حتى تتم الاربعة اسطر فيتحصل منها شكل من الاشكال
الستة عشر المتقدمة ومن لم يجد رملا ضرب الخط بفول وحمص وهو انه
ياخذ قبضة من غير عدد ويسقطها زوجا زوجا ويثبت الاخير ان كان
زوجا او فردا واما تولدات اشكاله واتصالاتها وما يتعلق بها من
الاسما والحروف والكواكب والعاقبة وعاقبة العاقبة فذلك كله منوط
بمؤلفات علم الرمل فلا نطيل الكلام عليها وانما ذكرنا هذه النبذة اليسيرة
ليكون للناظر فى رحلتنا هذه المام بماهية الرمل فى الجملة ولئلا تخلو
هذه الرحلة عن مثل هذه الفائدة والله عـــــالم
وقد طبع بالحجر هذه النسخة الجليلة المنمقة الجميلة بدار طباعة
السيد كينيلتى الفاخرة الكائنة بمدينة باريز الباهرة وذلك برسم وخط
السيد پيرون بنعمة الله وعونه وكان طبعه على ذمته ونظره وهمته فى سلخ
شهر نونبر سنة خمسين وثمانمائة بعد الالف المسيحية والحمد لله فى البدء
والنهاية ونسأله من الخير بلوغ الغاية امـــــين

الصفحة الأخيرة من النسخة العربية لرحلة دارفور ، وهى « برسم وخط السيد بيرون » ، كما هو واضح فى السطرين ١٥ — ١٦

Al-Schoodhoor-Al-Dhahabieh of Muhammad Omar Al-Tounsy, Dictionary of Technical Terms "Ancient and Modern" used in the medical, natural and veterinary sciences, edited and translated into French and English by Dr. Ahmed Issa Bey vol I. Cairo, 1914.

ويوضح السبب الذى دفع التونسى لوضع هذا المعجم ما جاء فى مقدمته ، قال : « لما كان حضرة من نشئت المدرسة على يده ... كلوت بك ... يعلم أن جل غرض الخديوى إظهار المعارف ، وإبراز اللطائف ، وأن المعارف لا تتم الا بجمع كتاب موصوف بما وصفناه من الجمع للألفاظ الطبية وأسماء المعادن والحيوانات .. أحضر معجما فى الألفاظ المذكورة باللغة الفرنسية ، وأمر بترجمته إلى اللغة العربيـة ، ففرقه ناظر المدرسة إذ ذاك على معلميها . . . فترجم كل منهم الجزء الذى أعطيه .... ولما تمت ترجمة الأجزاء ... أمر ناظر المدرسة إذ ذاك الماهر فى الفنون ، المتوغل فى العربية ، المعلم بيرون أن يؤخذ من القاموس كل لفظ دل على مرض أو عرض ، وكل اسم نبات أو معدن أو حيوان ... وقسم أوراقه على المشار إليهم ، وأدخلنى معهم ، فأخذت منه جزء وافراً . . . وكذا أعطى الماهر أخانا العلامة الشيخ سالم عوض المصحح الأول ، وكذا الفاضل الشيخ على العدوى الذى عليـه فى تبييض كل مسودة معول ، فاستخرج الجماعة منه ما أمكنه استخراجه ... ثم خصنى الناظر المذكور باستخراج ما فى القانون من التعاريف ، وما فى تذكرة داود من كل معنى لطيف ، وزدت على ذلك ما فى فقه اللغة ومختصر الصحاح ، وما فى الهروى من التعاريف الصحاح ، وضممت لذلك أسماء الأطباء المشهورين ، وأسماء عقاقير كنت رأيتها فى بلاد السوادين ، ورتبت جميع ذلك على حروف المعجم ليكون أسهل للمراجعة وأقوم ، وسلـكت فى ذلك مسلك صاحب المصباح لسهولته على مسلك القاموس والصحاح ، ... . وأغلب

أحوالى فيه أنى أعزى لكل كتاب ما التقطته من فوائده ، وما استفدته من فرائده ، ولم أقتصر فيه على الأسماء العربية ، بل توجد فيه أسماء لاطينية ، وأخرى فرنساوية ، وأخرى فارسية ..... الخ » [مقدمة الجزء المطبوع ص ب — ه]

٤ — وأشرف التونسى على طبع ونشر كثير من الكتب العربية القديمة التى طبعت لأول مرة فى بولاق ، وخاصة المستطرف للأبشيهى ، ومقامات الحريرى .

٥ — كذلك قام التونسى بتحرير وتصحيح كثير من الكتب الطبية والعلمية التى ترجمت فى عصر محمد على وأهمها :

ا — الدر اللامع فى النبات وما فيه من الخواص والمنافع تأليف الدكتور «فيجرى بك» وترجمة حسين غانم الرشيدى ، بولاق ١٢٥٧ ه .

ب — الجواهر السنية فى الأعمال الكيماوية فى ثلاثة أجزاء تأليف وترجمة الدكتور «برُّون» بولاق سنة ١٢٦٠ .

ج — كنوز الصحة ويواقيت المنحة ، تأليف « كلوت بك » وترجمة الدكتور محمد الشافعى ، بولاق سنة ١٢٥٨ — ١٢٦٠

د — التنقيح الوحيد فى التشريح الخاص الجديد تأليف الاستاذ « كروولييه » وترجمة الدكتور محمد الشباسى ، بولاق سنة ١٢٦٦ .

ه — روضة النجاح الكبرى فى العمليات الجراحية الصغرى ترجمة الدكتور محمد على البقلى ، بولاق ١٢٥٩ .

و — الدرر الغوال فى معالجة أمراض الأطفال ، تأليف « كلوت بك » وترجمة الدكتور محمد الشافعى ، بولاق ١٢٦٠ .

جمال الدين الشيال

المهرجان الألفى

لأبى العلاء المعرى

احتفل المجمع العلمى العربى بدمشق فى الأسبوع الأخير من سبتمبر سنة ١٩٤٤ بمرور ألف سنة على مولد أبى العلاء المعرى فيلسوف الشرق العربى وشاعره الأكبر ، فأقام لتلك المناسبة مهرجاناً فخماً دعا إليه حكومات العالم العربى وهيآته الأدبية البارزة . وقد لبى الدعوة عدد من العلماء والأدباء غير قليل . وكان وفد مصر مؤلفاً من حضرة صاحب العزة الدكتور طه حسين بك ممثلاً لوزارة المعارف العمومية ورئيساً للوفد ، وحضرة صاحب العزة أحمد أمين بك ممثلاً للمجمع اللغوى وجامعة فؤاد الأول ، والأستاذ أحمد الشايب ممثلاً للجامعة المذكورة . والأستاذين عبد الحميد العبادى وابراهيم مصطفى ممثلين لجامعة فاروق الأول . ولم يتمكن الأستاذ ابراهيم مصطفى من السفر ، غير أنه بعث إلى أمانة سر المهرجان ببحثه فى « أبى العلاء وعلم النحو » . كما وجهت الدعوة إلى الأستاذين عبد الوهاب عزام وإبراهيم عبد القادر المازنى ، الأول لعضويته بالمجمع العلمى العربى ، والثانى بكونه ممثلاً للصحافة المصرية .

***

وقد نزلت الوفود ضيوفاً على حكومة الجمهورية السورية مدة انعقاد المهرجان (٢٥ سبتمبر — أول اكتوبر) وأعد لنزولهم فندق أوريان بالاس أكبر فنادق العاصمة السورية .

وكان برنامج الحفلات الخطابية على النحو الآتى :

الحفلة الافتتاحية : الاثنين ٢٥ سبتمبر ، الساعة ١٧ فى مدرج الجامعة السورية بدمشق .

النشيد السورى .

كلمة الافتتاح لحضرة صاحب الفخامة رئيس الجمهورية السورية .

(١) الدكتور طه حسين بك : « كتاب الفصول والغايات » .

(٢) الأستاذ مهدى الجواهرى : قصيدة .

(ممثل وزارة المعارف العراقية)

(٣) الأستاذ عارف النكدى (عضو المجمع العلمى العربى) « المعرى من الوجهة الإصلاحية »

(٤) الأستاذ أحمد الشايب « هل المعرى شاعر أو فيلسوف ؟ »

(٥) النشيد السورى .

الحفلة الثانية : الثلاثاء ٢٦ سبتمبر . الساعة ١٧ فى مدرج الجامعة السورية بدمشق .

(١) الأستاذ أحمد أمين بك : « سلطان العقل فى نظر المعرى » .

(٢) الأستاذ محمد إسعاف النشاشيبى : عضو المجمع العلمى العربى . « التفاؤل والأثرية عند المعرى » .

(٣) الأستاذ محمد البزم : عضو المجمع العربى « قصيدة » .

(٤) قطعة من شعر أبى العلاء : غنتها فرقة الإذاعة بدمشق .

(٥) الأستاذ ألفريد غليوم ، من جامعة أكسفورد « المعرى فى نظر المستشرقين .

الحفلة الثالثة : الأربعاء ٢٧ سبتمبر ، الساعة ١٧ فى معرة النعمان على قبر أبى العلاء.

(١) كلمة ارتجلها الدكتور طه حسين بك .

(٢) قصيدة للأستاذ معروف الرصافى : عضو المجمع العلمى العربى .

(٣) كلمة ارتجلها الدكتور مهدى البصير الأستاذ بدار المعلمين العالية ببغداد

الحفلة الرابعة : الخميس ٢٨ سبتمبر ، الساعة ١٧ فى مدرسة التجهيز بحلب .

(١) الأستاذ سامى الكيالى « الاضطراب السياسى فى عصر أبى العلاء المعرى وأثره فى بيئته وشعره » .

(٢) الأستاذ عمر أبو ريشه قصيدة « الفيلسوف » .

(٣) الأستاذ طه الراوى ، ممثل وزارة المعارف العراقية ، « سر الخلود فى شعر المعرى » .

(٤) الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى ، « بحث أدبى عن أبى العلاء » .

الحفلة الخامسة : الجمعة ٢٩ سبتمبر : الساعة ١٧ فى فندق كازينو باللاذقية .

(١) الأستاذ عبد الحميد العبادى : « الناحية التاريخية من أدب المعرى » .

(٢) الدكتور جميل صليبا : عضو المجمع العلمى العربى « فكرة الخير فى فلسفة أبى العلاء » .

(٣) الأستاذ بدوى الجبل « قصيدة » .

(٤) الأستاذ محمد الشريقى « أسلوب المعرى » .

(٥) الأستاذ أنيس الخورى المقدسى ، ممثل الجامعة الأميركية فى بيروت « الروح العلائية فى أدبنا الحديث » .

الحفلة السادسة : الأحد ١ أكتوبر الساعة ١٧ فى مدرج الجامعة السورية بدمشق :

(١) الدكتور عبدالوهاب عزام « اللزوميات : متى نظمت ، وكيف رتبت » .

(٢) الشيخ عبد القادر المغربى ، نائب رئيس المجمع العربى : « شيخ المعرة والشيخ الدرا » .

(٣) قطعة من شعر أبي العلاء ، غنتها فرقة الإذاعة بدمشق .

(٤) الأستاذ سليم الجندى ، عضو المجمع العلمى العربى : «دين أبي العلاء» .

(٥) الأستاذ هنرى لاووست ، عضو المجمع العلمى العربى : « اختلاف الآراء فى فلسفة أبى العلاء » .

(٦) الأستاذ شفيق جبرى ، عضو المجمع العلمى العربى : « قصيدة » .

(٧) الأستاذ محمد كرد على ، رئيس المجمع العلمى العربى : « كلمة الختام » .

وقد تخللت الحفلات فى الأيام المذكورة زيارات للأماكن الأثرية السورية وولائم نخمة تجلى فيها الكرم العربى السورى ، وكان ختامها حفلة عشاء ساهرة أقامها حضرة صاحب الفخامة رئيس الجمهورية السورية .

***

وقد اعتزمت إدارة المجمع العلمى العربى نشر البحوث المذكورة فى سفر خاص . وعلاوة على ذلك فقد كان المهرجان مناسبة طيبة لظهور عدة تصانيف بعضها من آثار أبى العلاء نفسه و بعضها يتصل بأدبه ، نخص من هذه التصانيف الهامة ما يأتى :

(١) « تعريف القدماء بأبى العلاء » وفيه كل ما كتبه القدماء عن أبى العلاء حتى القرن الثالث عشر الهجرى ، وقد جمعته وحققته لجنة من رجال وزارة المعارف العمومية المصرية بإشراف الدكتور طه حسين بك ، وهو تمهيد لما اعتزمته الوزارة المذكورة من نشر آثار أبى العلاء ، وقد وزع هدية على أعضاء المهرجان .

(٢) « رسالة الملائكة » لأبى العلاء ، نشرها المجمع العلمى العربى بدمشق بتحقيق وشرح الأستاذ محمد سليم الجندى .

(٣) « أوج التحرى عن حيثية أبى العلاء المعرى » للبديعى ، نشره المعهد الافرنسى بدمشق بتحقيق الأستاذ إبراهيم الكيلانى .

(٤) « حياة أبى العلاء المعرى وفلسفته » بحث بالفرنسية للأستاذ هنرى لاووست مدير المعهد الأفرنسى بدمشق .

(٥) « أبو العلاء فى بغداد » للأستاذ طه الراوى .

***

وبمناسبة هذا المهرجان جددت حكومة الجمهورية السورية ضريح أبى العلاء على نسق عربى روعيت فيه البساطة والجمال اللائقان بمقام الثاوى فيه . فبين يدى الضريح حديقة لطيفة مستطيلة ، وخلفه مكان فسيح أعد لأن يكون مكتبة . وقد أعلن حضرة صاحب العزة رئيس الوفد المصرى نبأ تبرع الحكومة المصرية بألفى جنيه مصرى مساهمة منها فى تزويد المكتبة المذكورة بما تحتاج إليه من الكتب .

وعلى الجملة فقد كان المهرجان الألفى لأبى العلاء المعرى فوق ناحيته العلمية فرصة ثمينة انتهزتها سورية لاظهار شخصيتها وقوميتها كما انتهزتها الشعوب العربية عامة للتعبير عن تآلفها وتعاونها من طريق اجتماعها حول ذكرى أبى العلاء وأدبه وفلسفته .

عبد الحميد العبادى